عِلمُ البَدِيع

دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع

الدكتور/ بسيوني عبد الفتاح فيود
أستاذ البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

مؤسسة
المختار
للنشر والتوزيع

علم البديع

دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع

عبد الفتاح فيود، بسيونى
علم البديع
دراسة تاريخية ورفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع
تأليف: د. بسيونى عبد الفتاح فيود
القاهرة: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، 2015
331 ص، 24 سم
تدمك: 8-24-5283-977-978
رقم الإيداع :3869 / 1998
الطبعة الرابعة
1436 هـ ـ 2015م

مؤسسة المختار
للنشر والتوزيع
الإدارة: 16 ش محمد حسن الجمل ـ عباس العقاد ـ مدينة نصر ـ القاهرة
تليفون: 22713945
فاكس: 22713202
المكتبة: 33 ش محمد عبده ـ خلف جامع الأزهر ـ القاهرة
تليفون: 25105891
E-mail:mokhtar_est@hotmail.com

علم البديع

دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع

الدكتور/ بسيوني عبد الفتاح فيود
أستاذ البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

مؤسسة
المختار
للنشر والتوزيع

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله بديع السموات والأرض، أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، فتبارك الله أحسن الخالقين... والصلاة والسلام على النبي الأمين، المبعوث رحمة للعالمين. أحسن الله خَلْقَه، وسأل ﷺ ربه أن يحسن خُلُقَه كما أحسن خَلْقَهَ، فقال ﷺ: «**اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي**»[١]. فأحسن الله عز وجل خُلُقه، فكان خُلُقُه القرآن، وامتدحه ربه -جل وعلا- بحسن الخلق، فقال تعالى: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم: ٤].

اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، الذين تخلقوا بأخلاقه، ونهجوا نهجه، واقتدوا به، فرضي الله عنهم، ورضوا عنه، ورضي عن الذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين، اللهم ارض عنا معهم بمنك وعفوك، واجعلهم لنا قدوة، واجعلنا بهم وبرسولنا محمد ﷺ مقتدين: ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٢١]، واستر اللهم عوراتنا وآمن روعاتنا، اللهم آمين.

أما بعد:

فإن هذا الكتاب ذو شقين، شق تاريخي تناول تاريخ البلاغة وتطور البحث البلاغي، وشق فني تناول مسائل البديع، ولذا اخترنا له هذا العنوان: "علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع" وهو -كما نرى- عنوان يفوح بديعًا؛ إذ بُنِيَ على ذاك اللون البديعي المعروف باللف والنشر أو الطي والنشر.

لقد عالج الكتاب الشقين معالجة دقيقة، عالج الشق الأول معالجة موجزة وافية، فمضى مع الملاحظات البلاغية، وتطور البحث البلاغي في بيئاته المختلفة حتى استوت البلاغة على عودها، واستقرت في علومها الثلاثة: المعاني والبيان والبديع.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده رقم (٣٨٢٣).

وعالج الشق الثاني مسائل البديع معالجة دقيقة متأنية، جلّى ألوانه المختلفة، وأبرز من خلال الشواهد في سياقاتها، المزايا البلاغية لتلك الألوان البديعية، وأثبت أن الحسن في ألوان البديع حسن ذاتي اقتضاه المقام، وليس حسنًا عرضيًا، فألوان البديع ليست لمجرد الزينة والزخرفة الشكلية، بل تأتي لتحقيق أغراض بلاغية يقتضيها المقام.

لقد تناول الشق الثاني من الكتاب تلك الألوان وجلاها من خلال آيات الذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف والنصوص الشعرية والنثرية الجيدة، وكان التركيز على إيضاح الحسن الذاتي لتلك الألوان، وإبراز المقاصد والأغراض التي تحققها، وبيان أنها ليست للزينة والزخرفة الشكلية، والحسن العرضي فحسب، بل إن المقام يقتضيها والأحوال تتطلبها وتستدعيها... وقد تجلى ذلك واتضح من خلال الشواهد المختلفة.

والحمد لله أثمر الكتاب، وانتفع به طلاب العلم، ونفذت طبعته الأولى طبعة مطبعة السعادة عام ١٩٨٧م، فطبع طبعة ثانية نهضت بها دار المعالم الثقافية للنشر والتوزيع بالأحساء بالمملكة العربية السعودية بمشاركة مؤسسة المختار للنشر والتوزيع بالقاهرة عام ١٩٩٨ م ونفذت هذه الطبعة أيضًا، فانفردت مؤسسة المختار بطبعه عام ٢٠٠٤م.

وقد نجم عن الطبعة الأخيرة أخطاء مطبعية كثيرة حيث ضبطت الأبيات ضبطًا غير صحيح.. وأسقطت كلمات غيرت المعنى .. وكثرت الشكوى من هذه الأخطاء .. ولذا وجب إعادة طبع الكتاب طبعة صحيحة، فكانت هذه الطبعة الثالثة التي راعينا فيها ما يلي:

١- تصحيح الأبيات وضبطها ضبطًا دقيقًا صحيحًا، رجعنا فيه إلى مصادرها في دواوين الشعراء، وإلى المعاجم اللغوية، ومع الضبط الصحيح أوضحنا المعاني اللغوية للألفاظ الغريبة التي تحتاج إلى إيضاح.

٢- ضبط الأحاديث النبوية، وتخريجها من كتبها الصحيحة، وتحديد

موطن كل حديث في تلك الكتب الصحيحة، وكذلك ضبط النصوص النثرية وإيضاح ما يحتاج إلى إيضاح منها، وإبراز مواطن الشواهد في كل نص.

٣- تتبع نص الكتاب وتصحيحه برد ما أسقط منه، أو كتب خطأ، وقد اقتضى ذلك إضافات وإيضاحات، فقمنا بالإضافة المطلوبة، ونهضنا كذلك بالإيضاحات اللازمة، وفي أثناء تلك المعالجة تراءى لنا أن بعض الضوابط والأحكام والقضايا والمسائل البلاغية، تحتاج إلى تنقيح وتهذيب وإيضاح، فلم نبخل بذلك، وتأنينا في التهذيب والتنقيح وإيضاح ما يحتاج إلى إيضاح.

وبذا استقام الكتاب، وظهر في ثوب جديد مهذب منقح، استوى على عوده، وبدا صحيحًا يحمل المزيد من الإيضاح والتهذيب، وسيجد القارئ الكريم -إن شاء الله تعالى- تحليلات جيدة ومعاني واضحة، لن يرى خللاً ولا اعوجاجًا، بل سيرى جنى دانيا، وعليه أن يقتطف وأن يطعم سائلين إياه دعوة طيبة نرجو من الله تبارك وتعالى قبولها واستجابتها.

ونسأل الله عز وجل أن ينتفع بهذا العمل طلاب العلم ومحبو المعرفة، وأن يجدوا فيه بغيتهم، وأن يجزينا به خير الجزاء، ويغفر زلاتنا، ويتجاوز عن سيئاتنا، وأن يرحم والدينا، ويهدي أبناءنا، وأن يصلح لنا شأننا كله، وأن يرزقنا حسن الخاتمة، ويتوفانا مسلمين، ويلحقنا بالصالحين... اللهم آمين.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين، صلاة وسلامًا دائمين كاملين تامين إلى يوم الدين... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تم في الثالث من ربيع الأول ١٤٢٩هـ. الموافق التاسع من إبريل ٢٠٠٨م.

المؤلف

أ.د/بسيوني عبد الفتاح فيود

أستاذ البلاغة والنقد بجامعة الأزهر

كلية اللغة العربية بالقاهرة.

عضو اللجنة العلمية الدائمة للبلاغة والنقد.

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين بديع السموات والأرض، جعل الأرض قرارًا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم، فتبارك الله أحسن الخالقين... والصلاة والسلام على خير خلقه المبعوث رحمة للعالمين الذي أوتي جوامع الكلم، صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين... أما بعد.

فكتاب علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع كتاب له وجهتان:

الوجهة الأولى: دراسة أصول البلاغة دراسة تاريخية تبرز تلك الأصول منذ آن كانت إشارات وملاحظات بلاغية يلاحظها الشعراء والنقاد والكتاب في مختلف عصور الأدب، ثم دونت تلك الملاحظات وسجلت وكان التأثر والتأثير بين العلماء فنمت هذه المسائل البلاغية وتطورت.

والقسم الأول من الكتاب يجلي هذا الجانب ويبرز تاريخ البلاغة العربية ويظهر تطورها ويبين مدى التأثر والتأثير بين علمائها، ويحرص على إيضاح أصالتها مفندًا آراء المشككين في تلك الأصالة.

أما الوجهة الثانية فهي دراسة مسائل البديع دراسة فنية، وتضمن القسم الثاني من الكتاب دراسة تلك المسائل، وقد حرصنا في هذا الجانب على تجلية ألوان البديع وإبراز أسرارها ودقائقها وإيضاح أن تلك الألوان ليست لمجرد الزينة والزخرفة الشكلية فحسب، بل إن التحسين الذي تضفيه على الكلام تحسين ذاتي يقتضيه المقام وتستدعيه الحال.

ولما نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب، وظهرت الحاجة إليه، وكثر سؤال الدارس عنه لزم إعادة طبعه طبعة دقيقة واضحة يستفيد منها الدارس، وتحقق الثمرة المرجوة والغاية المنشودة.

فالله عز وجل أسأل أن يكون عملنا خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع بهذا الكتاب ويجزينا خير الجزاء، ويهدينا سواء السبيل، إنه خير مسئول، وهو نعم المولى ونعم النصير... وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المؤلف د/ بسيوني عبد الفتاح فيود

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين...

أما بعد:

فيتكون هذا الكتاب من قسمين: تناولت في القسم الأول –نشأة البديع وتطور البحث في الدراسات البلاغية وقد اختتمته بحديث أوضحت فيه أصالة البلاغة العربية، وتناولت في القسم الثاني فنون البديع فدرستها دراسة تحليلية دقيقة، جليت فيها تلك الفنون وأوضحت أنها ليست لمجرد الزينة والتحسين- كما ذكر الخطيب القزويني وأتباعه- بل لها مزاياها البلاغية التي يقتضيها المقام ويستدعيها الكلام، وقد وقفت مع كل فن من فنون البديع وأبرزت مزاياه البلاغية وأثره في التعبير... والله عز وجل أسأل أن ينتفع بهذا الكتاب طلبة العلم وأبناء الإسلام وأن يجزينا خير الجزاء ويهدينا إلى سواء السبيل إنه نعم المولى ونعم النصير؟

المؤلف

د/ بسيوني عبد الفتاح

القسم الأول

نشأة البديع وتطور البحث
في الدراسات البلاغية

يطلق البديع في اللغة على إيجاد الشيء واختراعه على غير مثال قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧]، فمعنى إبداع السموات والأرض: خلقهما وإيجادهما على غير مثال سابق، كما يطلق على الجديد المحدث، وعلى الشيء العجيب الغريب، يقول حسان بن ثابت ﷺ:

سَجِيَّةٌ تلكَ فِيهِمْ غيرُ محُدَثَةٍ ... إنَّ الخَلاَئِقَ فاعْلَمْ شرُّهَا البِدَعُ

ويقال: شيء: بديع أي. عجيب محدث، وركيٌّ بديع أي: جديدة حديثة الحفر[١].

والبلاغيون قد أطلقوا كلمة (بديع) على فنون البلاغة ومسائلها، كما أطلقوا على تلك الفنون والمسائل كلمات: البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة، وظلت كلمة "البديع" ترد مرادفة تلك المعاني، مرادًا بها مسائل البلاغة وفنونها، حتى جاء السكاكي: "ت ٦٢٦هـ" فقسم البلاغة إلى علمي: "المعاني والبيان" وقال: وهناك وجوه أخرى غير مسائل هذين العلمين، يصار إليها لقصد تحسين الكلام وتزيينه، وهي ما أطلق عليه بعده "علم البديع".

وبهذا يتضح لك أن البلاغة لم تقسم إلى علوم ثلاثة إلا في القرن السابع الهجري، وكانت مسائلها قبل ذلك، من طباق وجناس وتورية ومبالغة وتقسيم واستعارة وتشبيه وكناية ومشاكلة وتجريد، إلى آخر تلك الفنون، كان يطلق عليها جميعًا اسم: البديع أو البيان أو الفصاحة أو البراعة، دون تمييز بينها، وكانت ترد في الشعر القديم وما وصل إلينا من نثر، عفو الخاطر وبلا تكلف ولا تصنع، فكان لها أثرها في النفس وفي إبراز المعنى وإظهار جماله وحسنه.

من ذلك ما نشعر به في قول امرئ القيس مجانسًا على سبيل الاشتقاق.

وإنْ كُنْتِ قدْ سَاءَتْكِ مِنِّي خَلِيقَةٌ ... فَسُلِّي ثيَابِي مِنْ ثِيَابِكِ تَنْسُلِ

وقوله:

لقدْ طَمَحَ الطَّمَاحُ مِنْ بُعدِ أرضِهِ ... ليُلْبِسَني من دائهِ ما تَلَبَّسَا

---

(١) انظر لسان العرب مادة بدع، والرَّكيُّ تطلق على البئر.

وقوله مطابقًا ومشبهًا ومبالغًا في وصف فرسه:

مِكَــرٍّ مِفَــرٍّ مُقْبِــلٍ مُــدْبرٍ معًــا   كَجُلْمُـودِ صَـخْرٍ حطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَـلِ

وقوله مبالغًا في وصف فرسه أيضًا:

فعــادَى عِــداءً بــينَ ثَــوْرٍ ونَعْجَــةٍ   دِرَاكًــا ولمْ يَنْــضَحْ بــماءٍ فَيُغْــسَلِ

وقوله رادًا أعجاز الكلام على صدوره:

إذا المــرءُ لمْ يَخْــزِنْ عليــهِ لِــسَانَهُ   فلــيسَ عــلى شيءٍ ســواهُ بِخَــزَّانِ

وقوله مصرعًا أول القصيدة:

ألا عِــمْ صَـبَاحًا أيُّهَــا الطَّلَــلُ الْبَــالِي   وهل يَنْعَمَنْ من كانَ في الْعُصُرِ الخَالِي

وقوله في حسن الابتداء:

قِفَـا نبـك مـن ذكـرَى حَبِيـبٍ ومَنْـزِلِ   بِـسِقْطِ اللِّـوَى بـين الـدَّخُولِ فحوْمَـلِ

وفي قول زهير بن أبي سلمى مطابقًا:

لَيْــثٌ بِعَثَّــرَ يَــصْطَادُ الرِّجَــالَ إذا   مــا اللَّيْــثُ كَــذَّبَ عــن أَقْرَانِــهِ صَــدَقَا

وقوله في حسن التقسيم وكان عمر ﷺ يعجب منه ويردده:

فــإنَّ الحــقَّ مَقْطَعُــهُ ثــلاثٌ   يَمــينٌ أو نِفَــارٌ أو جِــلاَءُ

وقوله في حسن التسهيم:

سَئِمْتُ تكـاليفَ الحيـاةِ ومَـنْ يعِـشْ   ثمانــينَ حَــوْلاً لا أَبَالَــكَ يَــسْأَمِ

وقوله في التذييل:

ولــستَ بِمُــسْتَبْقٍ أخَــا لاَ تَلُمُّــهُ   عــلى شَــعْثٍ أيُّ الرِّجَــالِ الْــمُهَذَّبُ

وفي قول طرفة بن العبد محترسًا:

فَــسَقَى دِيــارَك غــيرَ مُفْــسِدِهَا   صَــوْبُ الغَــمَامَ وَدِيمــةٌ تَهْمِــي

وقول حسان مبالغًا:

لنَا الْـجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ في الضُّحَى   وَأَسْـيَافُنَا يَقْطُـرْنَ مِـنْ نَجْـدَةٍ دَمَـا

وقوله في حسن الاستطراد:

إنْ كُنْـتِ كاذبـةَ الـذي حـدَّثْتِنِي   فَنَجَـوْتِ مَنْجَـى الحـارث بْـنِ هِـشَام

تـرك الأحِبَّـةَ أنْ يُقَاتِـلَ دُونَهُـم   ونجـا بـرأس طِمِـرَّةٍ وَلِجَـامِ

وقوله في حسن التخلص:

قُـولي لِطَيْفِـكِ أنْ يكـفَّ عـن الحـشَا   سـطواتِ نـيرانِ الهـوَى ثـمَّ اهْجُـري

وانْهَـيْ جمَالَـكَ أنْ ينـالَ مَقَـاتلِي   فَيَنَـالَ قومَـكِ سـطوةٌ مـن مَعْـشَرِي

إنِّي مـن القـوم الـذين جِيَـادُهُمْ   طَلَعَـتْ عـلي كِـسْرَى بـريحٍ صَرْصَرٍ

وفي قول الأعشى موغلا:

كَنَـاطِحٍ صَـخْرَةً يَوْمًـا لِيَفْلِقَهَـا   فلـمْ يَـضِرْهَا وَأَوْهَـى قَرْنَـهُ الوَعِـلُ

وقوله مغاليًا:

فتـىً لـو ينـادي الـشمسَ ألقَـتْ قِنَاعَهَـا   أَوِ الْقَمَـرَ الـسارِي لألقَـى المقالِـدَا

وفي قول النابغة الجعدي مغاليًا:

بَلَغْنَـا الـسَّمَاءَ مَجْـدُنَا وسَـنَاؤُنَا   وإنَّـا لنرجُـو فـوقَ ذلـكَ مظهـرَا

وفي قول جرير مطابقًا:

وباسـطُ خـيرٍ فـيكُمْ بيمِينـهِ   وقـابضُ شَرٍّ عَـنْكُمُ بِـشِمَالِهِ

وقوله رادًا أعجاز الكلام على صدوره:

زَعَـمَ الْفَـرَزْدَقُ أنْ سَـيَقْتُلُ مِرْبعًـا   أَبْـشِرْ بطُـولِ سـلامَةٍ يـا مِرْبـعُ

وقول الفرزدق في اللف والنشر:

لقـدْ خُنْـتَ قومًـا لـو لجَـأْتَ إِلَـيْهِمُ   طريـدَ دمٍ أو حَـامِلاً ثِقْـلَ مَغْـرَمِ

لأَلْفَيْتَ فِيهِمْ مُعْطِيًا أو مُطَاعِنًا ... وراءك شَزْرًا بالْوَشِيجِ الْمُقَوَّمِ

وفي المذهب الكلامي:

لكلِّ امرئ نَفْسَانِ نفسٌ كريمةٌ ... ونفسٌ يُعَاصِيهَا الفتى أَوْ يُطِيعُهَا

وَنَفْسُكَ من نَفْسَيْكَ تَشْفَعُ للنَّدَى ... إذا قلَّ من أحرارِهِنَّ شَفِيعُهَا

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: هل كان هؤلاء القدماء في تلك العصور: الجاهلي والإسلامي والأموي، يعرفون هذه الفنون، ويقفون على مسمياتها المذكورة؟

والجواب: لا، فتلك المصطلحات لم تكن قد وضعت بعد، وهؤلاء إنما كانوا ينظمون على السليقة العربية، وعلى طريقة العرب في التعبير والقول، وكانت تلك المسائل التي لا يعرفون مسمياتها ترد في كلامهم عفو الخاطر وبلا تكلف.

فإذا انتقلنا إلى العصر العباسي وجدنا الإكثار والإسراف في صور البديع ومسائله؛ إذ ظهر مجموعة من الشعراء أمثال بشار بن برد وأبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي تمام وابن المعتز وغيرهم، وهؤلاء قد أسرفوا في الصور البديعية وتكلفوا مسائل البيان؛ إذ نظروا في الشعر القديم مقلدين ما فيه من فنون بديعية وصور بيانية ومسائل بلاغية، وأسرفوا في استخدام هذه الصور معتقدين أن الإبداع في الإكثار من تلك الفنون.

ها هو ذا بشار يقول: "ما زلت أروي في بيت امرئ القيس:

كأَنَّ قلوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا ويابسًا ... لَدَى وَكْرِهَا العُنَّابُ وَالحُشَفُ الْبَالِي

إذ شبه شيئين بشيئين حتى صنعت:

كأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فوقَ رءوسِنَا ... وأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

ويستمع إلى قول كُثَيِّر:

أَلاَ إنَّمَا لَيْلَى عَصَا خَيْزُرَانَةٍ ... إذا غَمَزُوهَا بالأَكُفِّ تلينُ

فيقول: والله لو جعلها عصا مخ أو عصا زبد ما أحسن، لقد جعلها جافية خشنة، ألا قال كما قلت:

وَدَعْجَاءِ المحاجرِ من مَعَدٍّ كأنَّ حَدِيثَهَا ثَمَرُ الجِنَانِ
إذا قامَتْ لحَاجَتِهَا تَثَنَّتْ كأنَّ عِظَامَهَا من خَيْزُرَانِ

وكأنه قد أدار المعنى في نفسه وتأمله ثم صاغه هذه الصياغة الجديدة التي جلته من جفوته وخشونته[١].

ومن الواضح أن عصور الأدب ليست بينها حواجز قوية، بل يتداخل بعضها في بعض، والفنون أو الظواهر الجديدة لا تبرز في حالة تامة مستوية الجوانب واضحة المعالم، بل توجد موزعة في أواخر العصر السابق وأوائل العصر اللاحق، ولذا فإن هؤلاء الشعراء الذين أسرفوا في البديع وأكثروا من صوره وتكلفوا مسائله في العصر العباسي، لم يكونوا على مستوى واحد ودرجة واحدة من حيث الإكثار والإسراف والتكلف والاصطناع، بل هم متفاوتون، ونستطيع تقسيمهم إلى أربع فئات أو مدارس، لكل مدرسة منها طابعها الخاص ورجالها الذين يمثلونها.

فالمدرسة الأولى مدرسة بشار بن برد ومن تلامذتها ابن هرمة والعتابي ومنصور النميري وأبو نواس: والمدرسة الثانية يمثلها مسلم بن الوليد الذي زاد في الإسراف وبالغ في التكلف والمدرسة الثالثة يمثلها أبو تمام الذي حلف لا يصلي حتى يحفظ ديوان مسلم بن الوليد، فبلغت الصور البديعية على يديه من التنمق والتأنق والتكلف والتعقيد والمزج بألوان الثقافات الواسعة والخوض في بحار الفلسفة والمنطق مبلغًا لم تبلغه على يد شاعر غيره، والمدرسة الرابعة عماداها: البحتري وابن المعتز، وقد تحلل البديع على أيديهما من تلك الأعباء الثقال التي أرهقه بها أبو تمام وأخذ يرجع إلى عهد الفطرة السلسلة العذبة والطبع القويم[٢].

ولن نخوض في تلك المدارس فليس المقام مقام إفاضة وتفصيل، بل سنكتفي

---

(١) انظر الأغاني جـ ١ / ١٥٤، ١٩٦.

(٢) انظر الصبغ البديعي ٦٢، وما بعدها.

بالنظر في شعر شاعر من هؤلاء الشعراء لنرى مدى ازدياد وطغيان الصنعة البديعية عن ذي قبل، وليكن هذا الشاعر بشارًا إذ يقول مطابقًا:

حَتَّامَ قَلْبِي مَشْغُولٌ بِذِكْرِكُمُ　　يَهْذِي وَقَلْبُكِ مَرْبُوطٌ بِنِسْيَانِي

لَهْفِي عليهَا ولَهْفِي من تَذَكُّرِهَا　　يَدْنُو تَذَكُّرُهَا منِّي وتَنآني

إنيَ لَمُنْتَظِرٌ أقْصَى الزَّمَانِ بِهَا　　إنْ كانَ أدناهُ لا يصفُو لِحَرَّانِ

فلا يخلو بيت من هذه الأبيات الثلاثة من طباق، وتلك كثرة لم تشهدها في الأدب القديم.

ومن طباقه أيضًا قوله:

إذا أيقظتْكَ حُرُوبُ العِدَى　　فَنَبِّهْ لهَا عمرًا ثمَّ نَمْ

وقوله:

ومَا نَلْقَاهُمُ إلا صَدَرْنَا　　بِرَيٍّ مِنْهُمُ وهُمُ حِرَارُ

ومن تقسيماته الرائعة:

فراحُوا فريقٌ في الإسارِ ومثلُهُ　　قتيلٌ ومثلٌ لاذ بالبحرِ هاربُهُ

ومن الرجوع قوله:

نُبِّئْتُ فَاضِحَ أُمِّهِ يَغْتَابُنِي　　عندَ الأَمِيرِ وهلْ عليَّ أميرُ

ومن التوجيه قوله في خياط أعور يدعى عمرًا:

خاطَ لي عَمْرٌو قَبَاءً　　لَيْتَ عَيْنَيْهِ سَوَاءْ

قُلْتُ شِعْرًا لَيْسَ يُدْرَى　　أَمَدِيحٌ أم هِجَاءْ

ومن مبالغاته قوله:

سَلَبْتِ عظامي لَحْمَهَا فتَركْتِهَا　　عَوَارِيَ في أَجْلادِهَا تَتَكَسَّرُ

وأَخْلَيْتِ مِنْهَا مُخَّهَا فَجَعَلْتِهَا　　أنابيبَ في أجوافِهَا الريحُ تَصْفِرُ

خذي بيدي ثم ارْفَعِي الثوبَ فانْظُرِي ... ضَنَى جَسَدي لكنَّني أَتَسَتَّرُ
وليسَ الذي يجَرِي مِنَ الْعَيْنِ ماؤُهَا ... ولكنَّهَا نَفْسٌ تَذُوبُ فَتَقْطُرُ

ومن جناسه قوله:

وقدْ كانتْ بتَدْمُرَ خَيْلُ قَيْسٍ ... فكانَ لتَدْمُرَ منها دَمَارُ

وقوله وقد جمع فيه بين الجناس والمقابلة:

رُبَّمَا سرَّك البعيدُ وأصْلا ... ك القريبُ النَّسِيبُ نارًا وعارًا

ولا يخفي عليكم ازدياد الصور البديعية فيما عرضناه من شعره كما لا يخفى قصده إلى تلك الصور وعمده إليها، وقد صرح هو بذلك إذ كان يروي نفسه في كلام القدماء حتى يصنع نحوه ويأتي بمثل ما فيه من صور.

وما من ريب في أن ظهور الثقافات الأجنبية كالهندية واليونانية والفارسية كان له أثر كبير في إكثار الشعراء وإسرافهم وتكلفهم فنون البديع ومسائله إذ أقبل بعض الشعراء كأبي تمام على تلك الثقافات ونهلوا منها وأغرموا بما فيها من عمق الفلسفة والمنطق، وقد أدى بهم هذا إلى الغموض والتعقيد، والبعد في صورهم وأخيلتهم على نحو ما نرى في قول أبي تمام:

لآلِئٌ كالنُّجُومِ الزُّهْرِ قد لَبِسَتْ ... أَبْشَارُها صَدَفَ الإحْصَانِ لا الصَّدَفَا

إذ جعل للطهر والعفاف صدفا...

وفي قوله معللاً:

لاَ تُنْكِرِي مِنْهُ تَخْدِيدًا تجلَّلَهُ ... فالسيفُ لا يُزْدَرَى إنْ كَانَ ذَا شُطَبِ

فقد نزع إلى تحسين القبيح بقياسه على أمر مستحسن محمود إذ يقول لصاحبته لا تصدي عنه لما بوجهه من تخديد فالسيف يروق ويعجب إذا كان ذا شطب بادية على صفحته.

وفي قوله مبالغًا في ضياء المحبوبة:

بيضاءُ تَسْرِي في الظلامِ فَيَكْتَسِي ... نورًا وتَسْرُبُ في الضياءِ فَيُظْلِمُ

فاعجب لهذا الضياء الذي يبدد الظلام والضياء معًا... إلى آخر ما نجده في شعره من تعقيد وغموض وبعد في الخيال والصور؛ مما جعل البحتري ينفر من أثر الفلسفة والمنطق على الشعر إذ يقول:

كَلَّفْتُمُونَـــا حـــدودَ مـــنطقكُمْ   والـشِّعْرُ يُغِنـي عـن صِـدْقِهِ كَذِبُـهُ
ولمْ يكـنْ ذو القُـرُوحِ يَلْهَـجُ بالْــ   ــمَنْطِقِ مـا نَوْعُـهُ ومـا سَـبَبُهُ
والـشِّعْرُ لمُـحٌ تَكْفِـي إِشَـارَتُهُ   ولـيسَ بالهُـذْرِ طُوِّلَـتْ خُطَبُـهُ

وقد نظر الجاحظ إلى كثرة صور البديع وفنونه في هذا العصر فجعله مقصورًا على العرب، إذ يقول: "والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان"(١)، وهو لا يعني أن اللغات الأخرى تخلو من البديع وإنما أراد أن البديع قد كثر في عصره في اللغة العربية كثرة جعلت ما عداه مما يوجد في اللغات الأخرى لا يعد شيئًا(٢).

كما نظر بعضهم إلى تلك الكثرة فعدوا البديع وليد هذا العصر؛ مما جعل ابن المعتز يتصدى لهؤلاء مؤلفًا كتابه: "البديع" مثبتًا فيه بالشواهد والبراهين أن البديع قديم وموجود في القرآن والحديث وفي الشعر الجاهلي والإسلامي، وليس وليد هذا العصر كما يزعمون(٣).

***

متى بدأت الكتابة في مسائل البلاغة؟

البديع أو البلاغة أو البيان أو الفصاحة، كلها مترادفات تعني شيئًا واحدًا؛ إذ لم تتسم مسائل البلاغة إلى علومها الثلاثة -كما ذكرت- إلا في عصر السكاكي: ت ٦٢٦هـ، وقد بدأت الكتابة في تلك المسائل منذ بدأ التأليف في علوم العربية ومسائلها، ولكن الإشارة إليها والحديث عنها قد بدأ قبل ذلك بزمن طويل، ولا

---

(١) البيان والتبيين ٤/ ٥٥.

(٢) انظر البلاغة تطور وتاريخ ٥٦.

(٣) انظر البديع ١، ٤.

نبعد إذا قلنا إن الحديث عن البلاغة والإشارة إلى فنونها ومسائلها قد بدأ منذ العصر الجاهلي، وكانت آنذاك في صورة ملاحظات نقدية أو توجيهات تعليمية إرشادية، فنحن نعلم ما كان للعرب في الجاهلية من أسواق أدبية كسوق عكاظ بجوار مكة، وكانوا يجتمعون في تلك الأسواق فيتناشدون الشعر، ويتبارون بإبراز نتاجهم الأدبي، ومما يروى أن النابغة الذبياني كانت تضرب له قبة في سوق عكاظ، ويأتي الشعراء الناشئون فينشدون شعرهم ويحتكمون إليه، فمن نوه به طارت شهرته في الآفاق، وكان في أثناء ذلك يبدي ملاحظاته على معاني الشعراء وأساليبهم، ويقال: إنه فضل الأعشى على حسان بن ثابت، وفضل الخنساء على بنات جنسها، فغضب حسان وثار عليه، وقال له: أنا والله أشعر منك ومنه فقال له النابغة حيث تقول ماذا؟ قال: حيث أقول:

لنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى ... وأسيافُنَا يقطُرنَ من نجدة دمَا

ولدنا بَنِي العنقاءِ وابْنَيْ محُرِّقٍ ... فأكرمْ بنَا خالاً وأكرمْ بنَا ابْنَمَا

فقال له النابغة: إنك لشاعر لولا أنك قللت عدد جفانك فقلت: الجفنات ولو قلت: الجفان لكان أكثر وقلت: يلمعن بالضحى، ولو قلت: يبرقن بالدجى لكان أبلغ في المديح لأن الضيف أكثر طروقًا بالليل، وقلت يقطرن من نجدة دما فدللت على قلة القتل، ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم، وفخرت بمن وَلَدْتَ ولم تفخر بمن ولدك، فقام حسان منكسرًا منقطعًا[(١)].

فالنابغة قد لاحظ أن حسانًا لم يراع مقتضى حال المديح والفخر فتلك الحال تقتضي المبالغة والفخر بمآثر الآباء قبل الأبناء وحسان قد تخلى عنهما، وعلى الرغم من أن البعض قد شكك في هذه الرواية، والبعض قد دفع ملاحظة النابغة دفاعًا مقبولًا[(٢)]، إلا أنها توضح لنا أن الجاهليين كانوا يراجعون بعضهم بعضًا، وإن تنافسوا على السيادة والتقدم فالحكم هو النتاج الشعري وليس أدل على ذلك من أن الشاعر منهم كان يعكف على قصيدته يهذب وينقح ويصقل ولا يخرجها للناس إلا

(١) انظر الأغاني ٩/ ٢٤٠.

(٢) انظر نقد الشعر والأغاني ٩/ ٣٤٠.

بعد تثقيف طويل حتى سمي هذا بالمثقف، وذا بالمتنخل، وذلك بالمنخل والمهلهل والمرقش، ونحن نعلم مدرسة عبيد الشعر التي كان يتزعمها زهير بن أبي سلمى، تلك المدرسة التي كان شعراؤها يطيلون الوقوف أمام قصائدهم، إذ كان الواحد منهم يقف أمام قصيدته حولاً كاملاً يهذب فيها وينقح ولا يذيعها إلا بعد أن يكون قد رضي عنها وتأمل كل بيت من أبياتها، وقد سميت تلك القصائد بالحوليات والمنقحات والمذهبات والمحكمات[١].

فإذا انتقلنا إلى العصر الإسلامي وجدنا أن القرآن الكريم كان له أثر كبير في تنمية الذوق وتهذيب النفوس، فها هو ذا النبي ﷺ يوصي بأن يتخير المسلم الكلمة الملائمة: "لا يقولن أحدكم خَبُثَتْ نفسي ولكن ليقل: لَقِسَتْ نفسي"[٢] وذلك كراهية أن يضيف المسلم الخبث إلى نفسه، وهذا هو أبو بكر يمر على رجل معه ثوب فيقول له: أتبيع هذا الثوب؟ فأجابه: لا، عافاك الله، فيتأذى أبو بكر ويقول للرجل: "قل لا وعافاك الله"، وتلك إشارة إلى باب من أهم أبواب البلاغة، باب الفصل والوصل، وذاك هو عمر يعجب بشعر زهير ويقول: "زهير أشعر الناس" ثم يعلل هذا الحكم: "لأنه لا يتبع حوشي الكلام، ولا يعاظل في المنطق ولا يمدح الرجل إلا بما فيه، ولا يقول ما لا يعرف"[٣].

وتزداد هذه الملاحظات البلاغية في العصر الأموي. إذا تراهم يحاولون تحديد مفهوم البلاغة، فقد سأل معاوية صحار العبدي وقد راعه بخطابته: "ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: البلاغة الإيجاز. فقال معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ"[٤]، كما نراهم يشيرون إلى جودة الابتداء وجودة القطع ويفضلون الشاعر أو الخطيب الذي يجيد الابتداء ويحسن التخلص والانتقال[٥].

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ١٣.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب برقم (١٠٠/ ٦١٧٩).

(٣) انظر البيان والتبيين ١/ ١٥١.

(٤) انظر البيان والتبيين ١/ ٦٩.

(٥) انظر البيان والتبيين ١/ ١٢٢.

وقد قامت سوق المريد في البصرة وسوق الكناسة في الكوفة مقام سوق عكاظ في الجاهلية، ودعا الشعراء إلى الابتعاد عن الألفاظ الغريبة وإلى تخير الألفاظ الملائمة التي تتسق مع السياق، كما نبهوا إلى ضرورة مراعاة التناظر بين الكلمات وألا يباعد الشاعر في القول وإلى أن تكون الأبيات ملتحمة متقارنة.

هذا هو جرير يستمع إلى قول عمر بن لجأ في وصف إبله:

قد وَرَدتْ قبل إنى ضَحَائِهَا وتَفْرِسُ الحيَّاتِ في خِرْشَائِهَا

جرَّ العجوزِ الثِّنْيَ مِنْ رِدَائِهَا[١]

فيقول له: كان أولى بك أن تقول: جر العروس، لا جر العجوز التي تتساقط خورًا وضعفًا[٢]، فقد لاحظ جرير أن كلمة "العجوز" نابية قلقة في سياقها. ويستمع أحد الشعراء إلى قول الأخطل في مدح أحد سادة بني ربيعة:

قد كنتُ أَحْسَبُهُ قَيْنًا وأُخْبَرُهُ فاليومَ طُيِّرَ عن أثوابِه الشَّرَرُ[٣]

فيقول: "ظنه قينًا وهو سيد نابه"[٤]، فقد لاحظ هذا الشاعر وهو ضوء بن اللجلاج أن كلمة "قينًا" في بيت الأخطل: لا تلائم المقام ولا تناسب المدح بالكرم والسيادة.

ويروى أن النصيب والكميت وذا الرمة قد اجتمعوا فأنشد الكميت قصيدته: "هل أنت عن طلب الأيفاع منقلب"، حتى إذا بلغ منها قوله:

أمْ هلْ ظعائنُ بالعلياءِ يافعةٌ وإنْ تكاملَ فِيهَا الأُنْسُ والشَّنَبُ[٥]

عقد نصيب عقدة فقال له الكميت: ماذا تحصي؟ قال: خطأك باعدت في القول ما الأنس من الشنب ألا قلت كما قال ذو الرمة:

---

(١) إني: وقت. وضحاء الإبل: مرعاها في الضحى- وتفرس: تدق وتحطم والخرشاء: جلد الحيات.

(٢) انظر الأغاني ٨/ ٧٠.

(٣) القين: العبد.

(٤) انظر الصناعتين ٨٦.

(٥) الظعائن: مفردها ظعينة وتطلق على المرأة في الهودج، والشنب: ماء ورقة وعذوبة في الأسنان.

لَـــمْيَاءُ في شـــفَتَيْهَا حُـــوَّةٌ لَعَـــسٌ وفي اللِّثَّــاتِ وفي أســنانهَا شَــنَبُ[١]

فانكسر الكميت[٢]، وهذه الملاحظة التي لاحظها نصيب هي ما أطلق عليه البلاغيون فيما بعد اسم: مراعاة النظير.

وقال عمر بن لجأ لأحد الشعراء: أنا أشعر منك، قال: وبم ذاك؟

فأجاب: لأني أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه، وقال شخص لروية بن العجاج: رأيت اليوم ابنك عقبة ينشد شعرًا له أعجبني قال رؤبة: نعم إنه يقول ولكن ليس لشعره قران[٣]. فعمر ورؤبة ينبهان إلى ضرورة اتحاد أجزاء القصيدة وتلاحم أبياتها وهو ما عرف فيما بعد باسم وحدة السياق أو الوحدة العضوية للقصيدة.

***

وتكثر هذه الملاحظات في العصر العباسي بين الكتاب والشعراء فهذا هو ابن المقفع "ت ١٤٢هـ" أحد كتاب الدواوين وهو فارسي الأصل ترجم عن الفارسية إلى العربية كتبًا كثيرة تاريخية وسياسية وأدبية منها كتاب "كليلة ودمنة"، يقول وقد سئل عن البلاغة: "البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاستماع ومنها ما يكون في الإشارة ومنها ما يكون في الاحتجاج ومنها ما يكون جوابًا، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها ما يكون سجعًا وخطبًا، ومنها ما يكون رسائل؛ فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة، فأما الخطب بين السماطين وفي إصلاح ذات البيت فالإكثار في غير خطل والإطالة في غير إملال. وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته"[٤].

---

(١) لمياء: اللمى سمرة في الشفة، والحوة: حمرة في الشفتين تضرب إلى السواد واللعس، سواد مستحب في الشفة.

(٢) الأغاني ١/ ٣٤٨.

(٣) انظر البيان والتبيين ١/ ٢٠٥.

(٤) البيان والتبيين ١/ ١١٥.

ففي هذا القول تحديد واضح لمفهوم البلاغة ومنه استمد البلاغيون المتأخرون تعريفهم للبلاغة بأنها: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"[١] فللإيجاز مواضع وللإطناب مواضع وما يصلح لهذا لا يصلح لذاك، لكل مقام مقال.

كما أن فيه إشارة إلى ما سمي فيما بعد "براعة الاستهلال" ليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك" وإشارة أخرى إلى ما عرف باسم "رد الأعجاز على الصدور". "خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمِعت صدره عرفت قافيته".

وفي هذا العصر –كما نعلم– بدأ التأليف ونشط في مختلف العلوم العربية. وسجلت الملاحظات والمسائل البلاغية في تلك المؤلفات، وهي إما لمؤلفيها وإما محكية ومنقولة عن غيرهم، فتعالوا ننظر في هذه المؤلفات لنرى كيف بدأت فيها أسس المسائل والفنون البلاغية ثم نمت وتطورت حتى صارت إلى ما هي عليه الآن.

سيبويه "ت ١٠٨ هـ"

تحدث سيبويه في الكتاب عن بعض خصائص التراكيب وأوجه الدقة في استعمال الألفاظ مثل: التقديم والتأخير والتعريف والتنكير والحذف، وعن معاني بعض الأدوات مثل أدوات الاستفهام وأدوات الشرط وذا ما تناوله البلاغيون فيما بعد في علم المعاني. يقول مثلاً عن سر بلاغة التقديم عند جواز تقديم المفعول على الفاعل: "كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعًا يهمانهم ويعنيانهم"[٢].

ويتحدث عن همزة الاستفهام فيذكر أن قولك: أزيدًا لقيت أم عمرًا؟ تقديم

---

(١) الإيضاح ١/ ٢٦.

(٢) الكتاب ١/ ١٥.

الاسم فيه أحسن وأفضل، ولو قلت ألقيت زيدًا أم عمرًا؟ لكان جائزًا حسنًا(١).
وما أجازه سيبويه وعده حسنًا رفضه عبد القاهر والبلاغيون بعده حيث أوجبوا إيلاء المستفهم عنه الهمزة إذا كانت للتصور فلا يجوز عندهم في المثال المذكور إلا: "أزيدًا لقيت أم عمرًا؟. وهو ما جعله سيبويه أحسن وأفضل(٢). وقد ذكر صاحب دلالات التراكيب وجهًا حسنًا في التوفيق بين الرأيين فارجع إليه(٣).

ويشير إلى المجاز العقلي عند حديثه عن بيت الخنساء:

تَرْتَعُ ما غَفَلَتْ حتَّى إذا ادَّكَرَتْ ... فَإِنَّمَا هي إِقْبَالٌ وإدبارُ

فيقول: "جعلتها الإقبال والإدبار مجازًا على سعة الكلام"(٤)، كما يتحدث عن التشبيه ويورد أمثلة له نحو قولك: مررت برجل مثل الأسد، إذا كنت تشبهه(٥)، إلى غير ذلك من الإشارات البلاغية التي تجدها متناثرة هنا وهنالك والتي تحتاج من دارسي البلاغة إلى تتبعها واستخلاصها.

الفراء "ت ٢٠٧هـ"

ويتحدث الفراء في كتابه "معاني القرآن" عن مسائل بلاغية مختلفة كالتقديم والإيجاز والإطناب والمعاني التي تفيدها بعض الأدوات كأدوات الاستفهام، والتشبيه والاستعارة والكناية، وهي إشارات موجزة يدركها المتأمل في كتابه معاني القرآن. نراه مثلاً يشير إلى الكناية في الآية الكريمة: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ [البقرة: ٢٣٥] فيقول: "السر في هذا الموضع: النكاح" ثم يرويه عن ابن عباس رضي الله عنهما وينشد لامرئ القيس:

---

(١) انظر الكتاب ٣/ ١٦٧.

(٢) انظر دلائل الإعجاز ١٤١.

(٣) ارجع إلى دلالات التراكيب ٢١٩ للدكتور محمد أبو موسى.

(٤) الكتاب ١/ ١٦٩.

(٥) انظر الكتاب ١/ ٢٣١.

ألاَ زَعَمَتْ بَسْبَاسَةُ الْيَوَمَ أَنَّنِي كَبِرْتُ وأَلاَّ يَشْهَدَ السِّرَّ أَمْثَالِي[١]

ويتحدث عن الاستعارة في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر: ٧٩]، فيقول: "بطريق لهم يمرون عليها في أسفارهم فجعل الطريق إمامًا لأنه يؤم ويتبع"[٢].

ويتحدث عن إفادة الاستفهام لغير طلب الفهم في الآية الكريمة: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨]، فيقول: "وقوله" كيف تكفرون... "على وجه التعجب والتوبيخ لا على الاستفهام المحض أي: ويحكم كيف تكفرون"[٣].

وهذه إشارة دقيقة لو تنبه لها البلاغيون المتأخرون ما تعبوا وأتعبوا، فقد قالوا: إن إفادة الاستفهام لمعانيه البلاغية عن طريق المجاز ثم راحوا يلتمسون العلاقات بين طلب الفهم وبين المعاني البلاغية كالإنكار والتعجب والتهكم والوعيد والتقرير، وقد تعبوا كثيرًا في الوصول إلى علاقات مناسبة لا تسمن ولا تغني، ولا تفيد الدارس شيئًا، وكانوا في غنى عن هذا التعب لو أنهم تنبهوا لإشارة الفراء إلى أن تلك المعاني دخلت الاستفهام وشابته فأفادها بالإضافة إلى إفادة طلب الفهم، وصار بإفادته إياها استفهامًا غير محض.

أبو عبيدة " ت ٢٠٨ هـ".

ألف أبو عبيدة كتابه "مجاز القرآن" بسبب مسألة تتعلق بالتشبيه إذ سأله سائل في مجلس الفضل بن الربيع عن التشبيه في قوله تعالى: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الصافات: ٦٥]، فقال: "إنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله وهذا لم يعرف، فأجاب أبو عبيدة: إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

---

(١) معاني القرآن ١/ ١٥٣.

(٢) معاني القرآن ٢/ ٩١.

(٣) معاني القرآن ١/ ٢٣.

أَيَقْتُلُنِـــي والْمَـــشْرَفِيُّ مُـــضَاجِعِي ومَـــسْنُونةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَــابِ أَغْـــوَالِ

وهم لم يروا الغول قط، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به"[١]... والمجاز عند أبي عبيدة لا يراد به المجاز الاصطلاحي المقابل للحقيقة، وإنما يراد به المعنى اللغوي لكلمة "مجاز" فهي مصدر ميمي أو اسم مكان من جاز يقال: جاز الطريق وجاز مجازًا إذا عبر. فالمراد إذًا بمجاز القرآن: التفسير وبيان الطرق التي يسلكها القرآن في التعبير عن المعاني. وقد أشار أبو عبيدة إلى هذا المراد حيث يقول في الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٧]: مجازه تأليف بعضه إلى بعض" ثم قال: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٨] مجازه، فإذا ألفنا منه شيئًا فضممناه إليك فخذ به واعمل به وضمه إليك"[٢]، وفي أثناء تفسيره للآيات الكريمة تحدث عما فيها من استعارة وتشبيه وكناية وتقديم وتأخير وحذف وتكرار، كما أشار إلى الصورة العامة للالتفات وإن لم يسمه بهذه التسمية إذ يقول: "ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ [يونس: ٢٢] أي: بكم"[٣].

الأصمعي "ت ٢١١هـ"

لم يترك الأصمعي كتابًا في صيغ التعبير القرآني كالفراء وأبي عبيدة، ولكن من جاءوا بعده كابن المعتز وابن رشيق وأبي هلال وقدامة نقلوا آراءه وإشاراته البلاغية، فقد تحدث عن الجناس ويقال إنه ألف فيه كتابًا وتحدث عن المطابقة وعن صورة أخرى للالتفات غير الصورة التي ذكرها أبو عبيدة. كما تحدث عن الإيغال وعن المبالغة.

يقول ابن المعتز: "التجنيس هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السبيل التي ألف الأصمعي كتاب الأجناس عليها"[٤].

---

(١) نزهة الألباء: ٧٠.
(٢) مجاز القرآن: ١١.
(٣) مجاز القرآن: ١١.
(٤) كتاب البديع ٢٥.

ويقول ابن رشيق: "ذكر الأصمعي المطابقة في الشعر فقال: أصلها وضع الرجل في موضع اليد في مشي ذوات الأربع"، ثم قال: أحسن بيت قيل لزهير في ذلك:

لَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ الرِّجَالَ إذا ... ما اللَّيْثُ كَذَّبَ عن أَقْرَانِهِ صَدَقَا[١]

وتحدث الأصمعي عن الالتفات وهو أول من وضع له هذه التسمية وقد أضاف له صورة أخرى غير التي ذكرها أبو عبيدة وهي أن يفرغ المتكلم من المعنى ونظن أنه سيتجاوزه إلى غيره؛ فإذا به يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره.

يقول أبو هلال: "سأل الأصمعي بعض من كان يتحدث إليهم أتعرف التفاتات جرير؟

فقال له: فما هي؟ قال:

أَتَنْسَى إِذْ تُوَدِّعُنَا سُلَيْمَى ... بِعُودِ بَشَامَةٍ سُقِيَ الْبَشَامُ

ألا تراه مقبلاً على شعره ثم التفت إلى البشام فدعا له.

وقوله:

طَرِبُ الحَمَامُ بِذِي الأَرَاكِ فَشَاقَنِي ... لاَ زِلْتَ في غَلَلٍ وأَيْكٍ نَاضِرِ

"فالتفت إلى الحمام فدعا له..."[٢]، كما أشار الأصمعي إلى الإيغال وعرفه بأنه: أن ينقضي كلام الشاعر قبل القافية فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى.

كقول ذي الرمة:

قِفِ الْعِيسَ في أَطْلالِ مَيَّةَ فَاسْألِ ... رُسُومًا كَأَخْلاقِ الرِّدَاءِ الْمُسَلْسَلِ[٣]

فتم كلامه بالرداء ثم أفاد بالمسلسل شيئًا جديدًا.

---

(١) العمدة ٢/ ٧.

(٢) الصناعتين ٣٩٢ والبشام: شجر لا ثمر له وذو الأراك: موضع والغلل: الماء على سطح الحدائق، والأيك: الشجر الملتف.

(٣) الرداء الأخلاق والخلق: البالي. والمسلسل: الرديء النسج.

وكقول الأعشى:

كناطحٍ صخرةً يومًا لِيَفْلِقَهَا   فلمْ يَضِرْهَا وأوهَى قَرْنَهُ الْوَعِلُ[١]

فتم كلامه بيضرها فلما احتاج إلى القافية قال: وأوهى قرنه الوعل، فزاد معنى[٢].

صحيفة بشر بن المعتمر "ت ٢١٠هـ"

وصحيفة بشر من الأصول البلاغية المهمة التي أفاد منها الدارسون كثيرًا إذا ألهمتهم كثيرًا من الأفكار والقضايا، وقد رواها الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" وإليك خلاصة ما تضمنته هذه الصحيفة من أفكار.

١- يوصي بشر في أول صحيفته الأديب أن يقبل على عمله في وقت نشاطه وعندما يكون مستعدًا لهذا العمل فارغ البال مما سواه وألا يخوض في أدبه عندما يكون مجهدًا متعبًا.

٢- ينبغي للأديب سواء أكان خطيبًا أم كاتبًا أم شاعرًا أن يبتعد عن التعقيد وعن الألفاظ الغريبة الوعرة وأن يتخير الألفاظ الملائمة للمعنى الذي ينشده.

٣- المعنى الشريف الكريم يلائمه اللفظ الشريف فينبغي للأديب أن يصون معانيه وألفاظه عما يفسدهما ويهجنهما.

٤- ينبغي للأديب أن يلائم ويوازن ويراعي المقامات والأحوال؛ مقامات الكلام وأقدار المعاني وأحوال المستمعين، فإن كان من المتكلمين ويخاطب غيرهم تجنب ألفاظ المتكلمين، وإن خاطب المتكلمين كان الأولى والأجدر استعمال ألفاظهم ومصطلحاتهم إذ هم على فهمها أقدر وإليها أميل وبها أشغف، فعلى الأديب إذًا أن يلائم بين الألفاظ والمعاني وأحوال المستمعين الذين يوجه إليهم الحديث.

---

(١) أوهى: أضعف.

(٢) انظر الصناعتين: ٢٨.

٥- ثم يضع بشر الأديب في منزلة من منازل ثلاث:

أولاها: منزلة البليغ التام الذي يقدر على أن يصوغ معانيه في ألفاظ رشيق عذبة، وسهلة فخمة، وأن تكون معانيه ظاهرة واضحة، وقريبة معروفة، وأن يمكنه إفهام العامة معاني الخاصة بأن يكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الأكفاء فالمعنى لا يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، ولا يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال.

ثانيها: منزلة من لا تسعفهم طبائعهم بالألفاظ الملائمة والقوافي الجيدة المتمكنة بل يجدون في ذلك عسرًا وصعوبة، ومثل هؤلاء يحسن أن يتأنوا، لأن طبائعهم لا تسمح لهم بالكلام الجيد لأول وهلة؛ فعليهم أن يتركوا العمل إذا تأبى عليهم سواد الليل وبياض النهار، ثم يعاودوه عند نشاطهم واستعدادهم واكتمال تهيؤهم، فإن كان لهم في الأدب طبيعة ومنزع فسيواتيهم عندئذ، وإن لم يكن غزيرًا.

ثالثتها: منزلة من شحت طبائعهم، ونضبت ينابيع القول في نفوسهم، فهم مهما تأنوا وتهيأوا ونشطوا وخلصوا أنفسهم من أي شاغل آخر، لا يقعون من الأدب إلا على المستكره المرذول أو لعلهم لا يقعون على شيء منه أبدًا، وهؤلاء حري بهم أن يهجروا صناعة الأدب إلى صناعة أخرى تشاكلهم وتناسبهم.

تلك خلاصة ما عرضه بشر في صحيفته من آراء وأفكار ونصائح وما من ريب في أن النقاد والبلاغيين قد أفادوا كثيرًا مما جاء في هذه الصحيفة...[1].

الجاحظ "ت ٢٥٥هـ"

يعد الجاحظ من الأعلام الذين أسهموا بنصيب وافر في إرساء دعائم الفنون البلاغية، فلقد أشار في كتاباته إلى كثير من الأسس البلاغية التي أثرت البحث البلاغي، وألهمت الدارسين الكثير من الآراء والأفكار.

---

(١) ارجع إلى نص الصحيفة في البيان والتبيين ١/ ١٣٥.

والناظر في كتابات الجاحظ في "البيان والتبيين" أو "الحيوان" أو "البخلاء" أو في "رسائله" يقف على أسلوبه المتميز بكثرة الاستطراد والخروج من فكرة إلى أخرى ثم العود بعد زمن طويل إلى الفكرة الأولى، ولعله يهدف بهذا إلى دفع الملل عن السامع أو القارئ، كما أن الأسس البلاغية التي يعرض لها تراها متناثرة في كتاباته، والفكرة الواحدة تراه يعرضها في عدة مواضع، مما يتطلب من الدارس أن يبذل الكثير من الجهد في تتبعه واستقصاء كتاباته حتى يقف على هذه الأسس ويلم بتلك الأفكار.

ما أهم الأسس البلاغية التي تحدث عنها الجاحظ؟

عرض الجاحظ لملائمة اللفظ للمعنى، وملاءمة الكلام للمقام ولأحوال المستمعين، وقد مرت بنا صحيفة بشر التي ذكرها، كما عرض الجاحظ للنظم وأشار إلى كتاب له في "نظم القرآن" ولكنه لم يصل إلينا، وقد رجع الجاحظ إعجاز القرآن الكريم إلى نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد[(١)].

ويخطئ كثير من الدارسين عندما يقرون أن الجاحظ قدم اللفظ على المعنى مستندين إلى عبارته: "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير..."[(٢)].

وبتأمل هذه العبارة لا نجد تقديمًا للفظ على المعنى وإنما المقدم هو النظم: أي اللفظ المسبوك، المقام في وزن، المصاغ في شعر، الذي صور به معنى، "إقامة الوزن... جودة السبك... الشعر صياغة وضرب من التصوير" أما اللفظ المجرد الذي لم يوضع في نظم فلا مزية له.

ويقوي هذا الزعم قول الجاحظ في موضع آخر: "ثم اعلم -حفظك الله- أن

---

(١) انظر الحيوان ٤/ ٩٤.

(٢) الحيوان ٣/ ١٣١.

حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة[(١)].

فهو هنا يقدم المعاني لأنها مبسوطة ممتدة ويؤخر الألفاظ؛ لأنها معدودة محددة ولكن ما المعاني المقدمة هنا؟ إنها المعاني المركبة. إنها الصياغة والتصوير والسبك، وليس المراد بها المعاني العامة، واللفظ المؤخر هنا هو اللفظ المجرد، لأنه هو المحدود المعدود أما الألفاظ المنظومة المركبة فهي ممتدة لا نهاية لها.

المزية إذًا مرجعها عند الجاحظ إلى النظم، وسوف نرى نمو نظرية النظم هذه عند القاضي عبد الجبار ثم ازدياد نموها عند الإمام عبد القاهر الذي فصلها وحلل شواهدها.

ومما عرض له الجاحظ أيضًا من أسس وقضايا بلاغية: الإيجاز والإطناب والمساواة، فتحدث عن التكرار في الوعظ والقصص القرآني، وبين أن لكل من الإيجاز والإطناب مقامًا يقتضيه وأن المعتد به في الإيجاز ليس مجرد قصر الألفاظ وقلة كمياتها، وإنما هو مساواتها الدقيقة للمعاني دون زيادة فقد يمتد الكلام صفحات ويسمى موجزًا[(٢)].

وتحدث عن التعقيد المخل بالفصاحة وعن تنافر الحروف وتنافر الكلمات وأطال الوقوف أمام بعض الشعر الذي اشتد فيه التنافر بين ألفاظه[(٣)].

وتكلم عن السجع وعقد له بابًا سماه "باب من الأسجاع في الكلام"، وعن الازدواج والاقتباس من القرآن الكريم ونوه بالتقسيم وجودته وعلل به استحسان عمر ﷺ قول زهير:

وإنَّ الحــــقَّ مَقْطَعُــــهُ ثَــــلاَثٌ ... يَمِــــينٌ أو نِفَــــارٌ أو جِــــلاءُ

واستحسانه قول عبدة بن الطبيب:

والمــرءُ ســاعٍ لــشيءٍ لــيسَ يُدْرِكُــهُ ... والْعَــيْشُ شُــحٌّ وإشْــفَاقٌ وتَأْمِيــلُ

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٧٦.

(٢) انظر البيان والتبيين ١/ ١٠٥.

(٣) انظر البيان والتبيين ١/ ٦٥.

فقد ردد عمر ﷺ البيتين عند سماعهما متعجبًا من حسن ما قسم وفصل...[١].

وتكلم عن حسن الابتداء وحسن التخاطب والانتهاء فقال: "وحدثني صالح بن خاقان قال: قال شبيب بن شبيبة: الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه وأنا موكل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه"[٢].

وتحدث عن الإرصاد وهو ما يعرف بالتسهيم أو التوشيح وإن لم يسمه بهذا الاسم بل جعله من صفات البلاغة التي تكسب الكلام حسنًا وجمالاً؛ حيث يقول: "لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه فلا يكون لفظه إلا سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"[٣].

وتكلم عن الأسلوب الحكيم وسماه باسم اللغز في الجواب وعرض له عدة شواهد[٤].

كما تحدث عن المذهب الكلامي ويذكر ابن المعتز أن الجاحظ هو الذي سماه بهذا الاسم، والمراد به عند الجاحظ وكذلك عند ابن المعتز: طريقة المتكلمين العقلية في إقامة الحجج وإبراز الأدلة والجدل...

يقول الجاحظ "لولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى، كما أنه لولا الاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى... وللعقل في خلال ذلك مجال، وللرأي تقلب، وتنشأ للخواطر أسباب، ويتهيأ لصواب الرأي أبواب"[٥].

ويعد الجاحظ أول من أشار إلى مسألة السرقات الشعرية التي شغل بها كثير من النقاد والبلاغيين .. على أن المسألة في رأيي لا تعدو أن تكون تأثرًا وتأثيرًا[٦].

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٢٤٠.

(٢) انظر البيان والتبيين ١/ ١١٢.

(٣) الحيوان ٢/ ١١٥.

(٤) انظر البيان والتبيين ٢/ ١٤٧.

(٥) الحيوان ١/ ١١٥.

(٦) ارجع إلى السرقات في القسم الثاني.

يقول الجاحظ: "لا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام وفي معنى غريب عجيب أو في معنى شريف كريم أو في بديع مخترع إلا وكل من جاء بعده من الشعراء معه إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدعه بأسره فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكًا فيه كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف فيه ألفاظهم وأعاريض أشعارهم ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه أو لعله أن يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط، وقال إنه: خطر على بالي من غير سماع كما خطر على بال الأول"(١).

وأشار إلى الاحتراس في بيت طرفة بن العبد:

فَسَقَى دِيَارَكَ -غَيْرَ مُفْسِدِهَا- صَوْبُ الغَمَامِ وَدِيمةٌ تَهْمِي

وسماه: إصابة المقدار: حيث طلب الغيث على قدر الحاجة لأن الفاضل ضار...(٢).

وتحدث عن الاستعارة في قول الشاعر:

يا دارُ قدْ غيَّرَها بِلاَهَا كأنَّمَا بقلمٍ محَاهَا

أَخربَهَا عُمْرَانُ مَنْ بَناهَا وكَرُّ مُمسَاهَا على مَغْنَاهَا

وطَفِقَتْ سَحَابةٌ تَغْشَاها تَبْكِي على عِراصِهَا عَيْنَاهَا

إذ يقول: "ممساها يعني مساءها" ومغناها: موضعها الذي أقيم فيه، والمغاني المنازل التي كان بها أهلوها، وطفقت: ظلت تبكي، على عراصها عيناها، وعيناها ههنا للسحاب وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه"(٣).

ونراه في أكثر من موضع يتحدث عن التشبيه وعن الكناية والتعريض وعن

---

(١) الحيوان ٣/ ٣١١.

(٢) انظر البيان والتبيين ١/ ٢٢٨.

(٣) البيان والتبيين ١/ ١٥٢.

المجاز بمعناه الاصطلاحي المقابل للحقيقة ولكنه لم يحدد أنواعه فقد أطلقه على الاستعارة بأنواعها وعلى المجاز المرسل:

فمن حديثه عن الكناية قوله: "إذا قالوا فلان مقتصد فتلك كناية عن البخل، وإذا قيل للعامل مستقص فذلك كناية عن الجور"(١)، وقوله: "رب كناية تربي على إفصاح ولحظ يدل على ضمير، وإن كان ذلك الضمير بعيد الغاية قائمًا على النهاية"(٢).

ومن حديثه عن التشبيه مقارنته بين قول النبي ﷺ: "النَّاسُ كُلُّهُمْ سَواءٌ كَأَسْنَانِ الْمُشْطِ"(٣)، وقول كثير عزة:

سَـــواءٌ كَأَسْـــنَانِ الحِـــمَارِ فَـــلاَ تَـــرَى ... لِـذِي شَـيْبَةٍ مِـنْهُمْ عـلى ناشِـئٍ فَـضْلاً

إذ يقول: "وإذا حصلت تشبيه الشاعر وحقيقته، وتشبيه النبي ﷺ وحقيقته عرفت فضل ما بين الكلامين"(٤)، وقد ساق كثيرًا من الآيات والأشعار معلقًا على ما فيها من تشبيهات ذاكرًا التشبيه بنفس معناه الاصطلاحي(٥).

ومن حديثه عن المجاز تعليقه على الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠]؛ حيث جعلها من باب المجاز، ثم قال: "وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة ولبسوا الحلل وركبوا الدواب ولم ينفقوا منها درهمًا واحدًا في سبيل الأكل... قد قال الله عز وجل في تمام الآية: ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ وهذا مجاز آخر... ونار تأتي على طريق المثل لا على طريق الحقيقة نحو قول ابن ميادة.

وَنَــــارَاهُ نَـــــارٌ نَـــــارُ كُــــلِّ مُــــدَفَّعٍ ... وأُخْرَى يُصِيبُ المجرمينَ سَعِيرُهَا(٦)

(١) البيان والتبيين ٢/ ٧.

(٢) البيان والتبيين ٢/ ٧.

(٣) الحديث أخرجه ابن عساكر برقم (١٠/ ٣٦٣)، والديلمي برقم (٤/ ٣٠٠/ ٦٨٨٢).

(٤) البيان والتبيين ٢/ ١٩.

(٥) ارجع إلى الجزء السابع من الحيوان.

(٦) انظر الحيوان ٥/ ١٣٣.

ولما رأى الجاحظ إكثار الشعراء المعاصرين له من ألوان البديع المختلفة لم يعتد بها في اللغات الأخرى منه وجعله مقصورًا على العرب، وذلك حيث يقول: "والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان، والراعي كثير البديع في شعره، وبشار حسن البديع والعتابي يذهب شعره في البديع"(١).

فلا عجب إذا قلنا بعد ذلك كله، إن ما ذكره الجاحظ في كتبه من أسس بلاغية، قد أثرى البلاغة العربية، وقد انتفع بهذه الأسس كثير من الدارسين بعده...

ابن قتيبة "ت ٢٧٦هـ"

يعد ابن قتيبة من أعلام أهل السنة كما أن الجاحظ من أعلام المعتزلة، يقول ابن تيمية: "هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة، كان خطيب أهل السنة كما كان الجاحظ خطيب المعتزلة"(٢)، وقد ألف ابن قتيبة كتابه: "تأويل مشكل القرآن" للرد على الملاحدة الذين يطعنون في أساليب القرآن الكريم ويشككون في نظمه وإعرابه، وقد عرض في كتابه للكثير من آي الذكر الحكيم مستشهدًا لها بنصوص الشعر القديم ليبطل دعوى الطاعنين، ويذهب ريب المشككين..

كما أن له كتاب "الشعر والشعراء" و "تأويل مختلف الحديث"، وفي هذه الكتب نثر ابن قتيبة ملاحظاته البلاغية، فتحدث عن المجاز بمعناه الواسع وتحدث عن الحذف والتقديم والتأخير والتكرار في القصص القرآني، وعن مخالفة ظاهر اللفظ معناه وهو ما عرف فيما بعد باسم المشاكلة كقوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠]، كما تحدث عن الكناية والمبالغة وعن المقلوب كتسميتهم اللديغ سليمًا والفلاة مفازة وتحدث عن الاستعارة وعن الاستفهام وإفادته لمعانيه البلاغية وعن الأمر وإفادته لغير طلب الفعل...

إلى غير ذلك من الملاحظات التي أثارها وتحدث عنها... انظر إلى قوله:

---

(١) البيان والتبيين ٤/ ٥٥.

(٢) تفسير سورة الإخلاص ص ٨٦.

"وللعرب المجازات في الكلام ومعناها طرق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار والتعريض والإفصاح والكناية والإيضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجمع والجمع خطاب الواحد، والواحد والجمع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص إلى العموم وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، مع أشياء كثيرة ستراها في باب المجاز"(١).

ونلاحظ أنه يستعمل المجاز بمعناه الواسع على الرغم من أن الجاحظ قد استعمله في معناه الاصطلاحي المقابل للحقيقة.

وإذا كان ابن قتيبة قد استعمل المجاز بمعناه الواسع، فإنا نراه يستعمل الكناية في معناها الاصطلاحي الذي حدد فيما بعد، وذلك حيث يقول في قول العرب: فلان طويل النجاد: "والنجاد حمائل السيف، وإنما يريدون أنه طويل القامة، فيدلون بطول نجاده على طوله، ويقولون: فلان عظيم الرماد، ولا رماد في بيته ولا على بابه، وإنما يريدون أنه كثير الضيافة"(٢)، ونجد ابن قتيبة في مقدمة كتابه "الشعر والشعراء" يسوي بين اللفظ والمعنى في البلاغة، ويقسم الكلام على هذا الأساس إلى أربعة أقسام: ما حسن لفظه ومعناه معًا، وما حسن معناه دون لفظه، وما حسن لفظه دون معناه، وما ساء وقبح في لفظه ومعناه معًا(٣).

وكأنه قد نظر في قول الجاحظ "المعاني مطروحة في الطريق" واعتقد أنه يقدم اللفظ على المعنى، فأراد أن يجعل للمعنى مزية في البلاغة كما للفظ... وقد أوضحنا أن الجاحظ لم يقدم اللفظ ولا المعنى؛ وإنما رجع البلاغة إلى النظم وجودة السبك فارجع إلى ما قلناه هناك...

---

(١) تأويل مشكل القرآن ١٥.

(٢) تأويل مختلف الحديث ٦٣.

(٣) ارجع إلى مقدمة الشعر والشعراء.

المبرد "ت ٢٨٥هـ"

ونلتقي بالمبرد صاحب المؤلفات والمصنفات التي أربت على الأربعين مصنفًا، وأشهرها كتاب "الكامل" في اللغة والأدب الذي يقول عنه: "هذا كتاب ألفناه، يجمع ضروبًا من الآداب ما بين كلام منثور وشعر مرصوف ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة"(١).

وقد اشتهر المبرد بالنحو فعرفه أكثر القدماء بمحمد بن يزيد النحوي، وكان فصيحًا بليغًا مليح الاختيار ثقة فيما يرويه، وقد ضمن كتابه "الكامل" كثيرًا من أنواع البديع وألوان البلاغة، من أهمها حديثه عن التشبيه حيث أفرد له بابًا وذكر أن العرب تشبه على أربعة أضرب تشبيه مفرط وتشبيه مصيب وتشبيه مقلوب وتشبيه بعيد وقد ساق كثيرًا من الشواهد منها قول امرئ القيس:

كأنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطبًا وَيَابِسًا ... لَدَى وكرِهَا العُنَّابُ والحُشَفُ البالِي

ذاكرًا أنه أحسن تشبيه أجمعت الرواة عليه حيث شبه شيئًا واحدًا في حالتين بشيئين مختلفين.

ثم يقول: "فإن اعترض معترض فقال، فهلا فصل التشبيهين فقال: كأنه رطبًا العناب وكأنه يابسًا الحشف البالي"، ويجيب عن هذا الاعتراض بأن العربي الفصيح الفطن يرمي بالقول مفهومًا ويرى ما بعد ذلك من التكرير عيًا... ونجد المبرد يطلق التشبيه على التمثيل، فلا فرق عنده بين التشبيه والتمثيل؛ إذ يذكر أن من تمثيل امرئ القيس الحسن العجيب قوله:

كأنَّ عُيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا ... وَأَرْحُلِنَا الجَزْعُ الَّذِي لمْ يُثَقَّبِ

ومن التشبيه المصيب في رأي المبرد قول ذي الرمة:

بَيْضاءُ في دَعَجٍ صفراءُ في نَعَجٍ ... كأنَهَا فِضَّةٌ قدْ مسَّهَا ذهبُ

(١) الكامل ١/ ٢.

ومن أعجب التشبيهات عنده قول النابغة:

فإنَّــكَ كاللَّيْــلِ الــذي هــو مُــدْرِكِي   وإنْ خِلْـتُ أنَّ الـمُنْتَأَى عَنْـكَ وَاسـعُ[١]

كما تحدث المبرد عن الاستعارة حيث يقول معلقًا على قول الراعي:

يــا نُعْمَهَــا لَيْلَــةً حتــى تخَوَّنَهَــا   داعٍ دَعــا في فُــرُوعِ الـصُّبْحِ شَــحَّاجُ

و"شحاج إنما هو استعارة في شدة الصوت، وأصله للبغل والعرب تستعير من بعض لبعض"[٢]، فقد جعل "شحاج" استعارة على أنه صوت للبغل استعير للغراب، والحقيقة أنه صوت للبغل والجمل والحمار والغراب، قال ابن سيده: "والشحاج والتشحيج صوت البغل والحمـار والغراب إذا أسن"[٣].

وتحدث عن الكناية حيث قسم الكلام إلى ثلاثة أقسام: حقيقة وكناية ومثل، ثم جعل الكناية على ثلاثة أوجه، فهي إما للتعمية والتغطية، وإما للرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره، وإما للتعظيم والتفخيم، ومن أمثلتها عنده قول أبي قيس بن الأسلت الأنصاري:

تَنَــامُ عَــنْ كِــبَرِ شَــأْنها فَــإِذَا   قامَــتْ رُوَيْــدًا تكــادُ تَنْــصَرِفُ

تَمْــشِي الهُوَيْنَــا إذا مــشَتْ فَــضْلاً   كَأَنَهَــا عُــودُ بَانَــةٍ قَــصِفُ[٤]

وتحدث عن الالتفات إذ يقول: "والعرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد إلى المتكلم، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب، قال الله عز وجل: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [يونس: ٢٢] كانت المخاطبة للأمة ثم انصرفت إلى النبي ﷺ إخبارًا عنهم، وقال عنترة:

شَــطَّتْ مــزارُ العاشــقين فأصــبحتْ   عَــسِرًا عَــلَيَّ طِلاَبُــكِ ابنــةَ مخْــرَمِ

---

(١) الكامل ٣/ ٣٢.

(٢) الكامل ١/ ٢٨١.

(٣) انظر لسان العرب مادة شحج.

(٤) انظر الكامل ٢/ ٢٨٩.

ويروى البيت برواية أخرى وهي:

حَلَّتَ بأرض الزائرين فأصبحت عَسِرًا عَليَّ طِلابُكِ ابنةَ مَخْرَم[(١)]

فكان يحدث عنها ثم خاطبها:

ومثل ذلك قول جرير:

وتَرى العواذِلَ تبتدرنَ مَلامَتي فإذِا أردْنَ سِوَى هواكِ عُصِينَا[(٢)]

ونلاحظ أنه تحدث عن صورة واحدة من صورتي الالتفات وهي الانتقال من إحدى طرق التكلم إلى الأخرى، وتلك هي الصورة التي ذكرها أبو عبيدة، أما الصورة الأخرى التي ذكرها الأصمعي؛ فلم يشر إليها.

والمبرد هو أول من أشار إلى أضرب الخبر، فقد قال له الفيلسوف الكندي ذات يوم: "إني أجد في كلام العرب حشوًا، يقولون عبد الله قائم، وإن عبد الله قائم، وإن عبد الله لقائم، والمعنى واحد؛ فأجابه المبرد: بل المعاني مختلفة: "فعبد الله قائم" إخبار عن قيامه، و"إن عبد الله قائم" جواب عن سؤال سائل، و"إن عبد الله لقائم" جواب عن إنكار منكر"[(٣)]، وقد ألهمت هذه الإجابة البلاغيين الحديث عن أضرب الخبر. وسموا الخبر الأول ابتدائيًا ويخاطب به خالي الذهن والثاني طلبيًا ويخاطب به المتردد السائل والثالث إنكاريًا ويخاطب به المنكر.

كما تحدث عن التعقيد اللفظي في بيت الفرزدق:

وما مِثْلُهُ في الناسِ إلا مُمَلَّكًا أبو أُمِّهِ حيٌّ أبوهُ يُقَارِبُهُ

وعن التعقيد المعنوي في قول العباس بن الأحنف.

سأطلبُ بُعْدَ الدَّارِ عنكُمْ لِتَقْرُبُوا وتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لتجمُدَا[(٤)]

---

(١) والمراد بالزائرين: الأعداء، كأنهم يزأرون كما يزأر الأسد، شبه وعيدهم بالزئير، ومخرم اسم رجل.

(٢) الكامل ٣/ ٢٢.

(٣) انظر دلائل الإعجاز ٢٢٦.

(٤) انظر الكامل ١/ ١٨.

وتحدث عن الإفراط في الصفة أو الغلو إذ يقول معلقًا على بيت الأعشى:

فَلَـــوْ أَنَّ مَـــا أَبْقَـــيْنَ منِّـــي مُعَلَّـــقٌ بِعُـــودِ ثُـــمَامٍ مـــا تـــأَوَّدَ عُودُهَـــا

"إن هذا تجاوز، وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه وأحسن منه ما أصاب الحقيقة فيه"(١).

كما تحدث عن اللف والنشر وسماه هذه التسمية إذ يذكر قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: "ما أحسن الحسنات في آثار السيئات وأقبح السيئات في آثار الحسنات وأقبح من ذا وأحسن من ذاك السيئات في آثار السيئات، والحسنات في آثار الحسنات، ثم يقول معلقًا عليه: "والعرب تلف الخبرين المختلفين، ثم ترمي بتفسيرهما جملة ثقة بأن السامع يرد إلى كل خبره"(٢).

وتحدث عن التجريد إذ يقول في بيت أعشى باهلة:

أَخُـــو رَغَائِـــبَ يُعْطِيهَـــا وَيُـــسْأَلُهَا يَـــأْبَى الظُّلاَمَـــةَ مِنْـــهُ النَّوْفَـــلُ الزُّفَـــرُ(٣)

و "إنما يريده بعينه كقولك: لئن لقيت فلانًا ليلقينك منه الأسد.

ثم يسوق بيت الأعشى.

يـــا خَـــيْرَ مَـــنْ يَرْكَـــبُ الْـــمَطِيَّ ولا يَـــشْرَبُ كَأْسًـــا بكـــفِّ مَـــنْ بَخِـــلاَ

ويقول: "قال إنما تشرب بكفك ولست ببخيل"(٤).

إلى غير ذلك من المسائل البلاغية التي تجدها مبعثرة في كتاب "الكامل" وغيره من كتب المبرد.

---

(١) انظر رغبة الآمل ١/ ٣٩٣. وتأوّد العود: انثنى واعْوَجّ. والثمام: نبت صغير ضعيف، قصير لا يطول، وهو معروف بالبادية تأكله الأنعام إذا جهدت في الجدب.. لسان العرب مادة: ثمم.

(٢) الكامل ١/ ١٢٧.

(٣) النوفل من قولهم: فلان ذو فضل ونوافل والزفر: يطلق على السيد والرجل القوي الذي يزدفر بالأموال في الحمالات مطيقًا لها وقوله: "منه" مؤكدة لذلك... انظر لسان العرب مادة: زفر.

(٤) الكامل ١/ ٥٧.

ابن المعتز "ت ٢٩٦هـ"

هو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد، ولي الخلافة يومًا وليلة ثم مات مقتولاً، وقيل مخنوقًا سنة ٢٩٦ هـ، وكان شاعرًا مطبوعًا، حسن الإبداع، سهل اللفظ جيد القريحة بديع التشبيه، انظر إلى تشبيهاته التي أعجب بها عبد القاهر وعدها من التشبيهات الحسنة البديعة:

كأنَّ عُيُونَ النَّرْجِسِ الْغَضِّ حَوْلَنَا   مَدَاهِنُ دُرٍّ حَشْوُهُنَّ عَقِيقُ

***

سَعْيًا لِرَوْضَاتٍ لنَا   مِن كُلِّ نَوْرٍ حالِيَه
عيون آذَرْيُونهَا   للشمسِ فيهَا كالِيَه
مَدَاهِنُ من ذَهَبٍ   فيهَا بَقَايَا غالِيَه

***

وكأن البرقَ مُصْحَفُ قارٍ   فَانْطِبَاقًا مَرَّةً وانْفِتَاحَا

***

وأرَى الثُّرَيَّا في السماءِ كأنَّهَا   قدمٌ تَبَدَّتْ من ثِيَابِ حِدَادِ

تأمل مدى قدرة الشاعر على التصوير والإبداع، وغير خافٍ عليك الترف والنعيم وحياة القصور التي كان يحياها الشاعر والتي تبدو من خلال الأبيات.

كما كان ابن المعتز محبًا للعلماء والأدباء مخالطًا لهم معدودًا في جملتهم، وله بضعة عشر مؤلفًا في فنون شتى، وصل إلينا منها: ديوانه وطبقات الشعراء وكتاب البديع.

ويعد "كتاب البديع" أول كتاب يقوم بدراسة مسائل البلاغة وفنون البديع دراسة منهجية دقيقة منظمة، فقد كانت تلك الفنون مبعثرة في كتب السابقين. فقام ابن المعتز بجمعها ذاكرًا أنه لم يسبقه إلى هذا الجمع أحد ثم قسمها إلى قسمين:

١- فنون البديع وحصرها في خمسة: الاستعارة والجناس والطباق ورد الأعجاز على ما تقدمها والمذهب الكلامي.

٢- محاسن الكلام: وقد ذكر منها ثلاثة عشر فنًا، ثم قال: إنها أكثر من أن يحاط بها، ولعل سبب حصره فنون البديع في تلك الفنون الخمسة يرجع إلى شهرتها في عصره وإلى أنها كانت موضع الأخذ والرد بين البلاغيين والمتفلسفة ومن ينزعون نحو التجديد المسرف.

وكانت غاية ابن المعتز وغرضه من تأليف كتابه أن يثبت أن ما أكثر منه المحدثون وسموه بديعًا موجود من قديم في القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام الجاهليين والإسلاميين، وليس وليد العصر الحديث.

يقول: "قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله ﷺ، وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون "البديع" ليعلم أن بشارًا ومسلمًا وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكن كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه"(١).

ويقول في موضع آخر: "وإنما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع"(٢).

ولذا كان منهجه الذي سلكه أن يبدأ بتعريف الفن ثم يسوق له الشواهد الكثيرة من القرآن والحديث وكلام الصحابة وأشعار الجاهليين والإسلاميين وكلام المحدثين المنظوم والمنثور، وهو منهج دقيق محقق للغرض الذي من أجله ألف الكتاب، وقد بدأ بالاستعارة فعرفها بأنها "استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها"(٣) ثم ساق شواهدها من مختلف الكلام، معقبًا بذكر طائفة من

---

(١) البديع: ١.

(٢) البديع: ٣.

(٣) البديع ٥٧.

الاستعارات الرديئة، وبذا سن للبلاغيين بعده أن يتحدثوا عن عيوب الفنون البلاغية، وكان ابن المعتز معتدلاً في حكمه، فهو يستحسن حين ينبغي الاستحسان ويستهجن حين ينبغي الاستهجان، بغض النظر عن القدم والحداثة، فلم يتعصب للقدماء ضد المحدثين، وبعد أن يفرغ من الاستعارة ينتقل إلى الجناس فالطباق فرد الأعجاز على الصدور ثم المذهب الكلامي، وقد أراد به -كما أراد الجاحظ- طريقة المتكلمين العقلية في دقة الاستنباط والتعليل والكشف عن المعاني الخفية.

وبعد أن ينتهي من فنون البديع الخمسة يقول: "قد قدمنا أبواب البديع الخمسة وكمل عندنا وكأني بالمعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل قد قال: البديع أكثر من هذا أو قال: البديع باب أو بابان من الفنون الخمسة التي قدمناها.

والبديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو، وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد، ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام والشعر، ومحاسنها كثيرة، ولا ينبغي للعالم أن يدعي الإحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن علمه وذكره، وأحببنا لذلك أن تكثر فوائد كتابنا للمتأدبين، ويعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختيارًا من غير جهل بمحاسن الكلام، ولا ضيق في المعرفة، فمن أحب أن يقتدي بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئًا إلى البديع، فله اختياره"[١].

وكأنه كان يدرك أن البديع أكثر من هذه الفنون الخمسة فأضاف ما ذكره من محاسن الكلام وأباح لمن يأتي بعده أن يضيف منها أو من غيرها إلى فنون البديع ما يريد إضافته.

ويبدأ بعد ذلك حديثه عن محاسن الكلام فيذكر "الالتفات" ويشير إلى صورتيه التي عرضنا لهما عند أبي عبيدة والأصمعي والمبرد وينتقل إلى الاعتراض وهو اعتراض كلام في كلام لم يتم معناه كقول كثير:

---

(١) البديع: ٥٧.

لـــو انَّ البــاخلينَ – وأنـــتِ مِـــنْهُمْ رَأَوْكِ تَعَلَّمُـــوا مِنْــــكِ المِطَـــالاَ

ويستمر في عرض هذه المحاسن الثلاثة عشر وهي:

الرجوع، والخروج من معنى إلى معنى -وعرف فيها بعد بالاستطراد- وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتجاهل العارف والهزل يراد به الجد وحسن التضمين والتعريض والكناية والإفراد في الصفة -وسماه قدامة "المبالغة" وفرع منها الغلو وقد تبعه البلاغيون في ذلك- وحسن التشبيه و "إعنات الشاعر نفسه في القوافي وتكلفه من ذلك ما ليس له"، وقد سمي فيما بعد بلزوم ما لا يلزم نحو قول الشاعر:

يَقُولُـــون في الْبُـــسْتَان لِلْعَـــيْنِ لـــذةٌ وَفِي الْخَمْرِ والمـاءِ الـذي غـيرُ آســنِ

فـإن شـئتَ أن تلقَـى المحاسـنَ كُلَّهَـا ففي وجهِ مَنْ تهوىَ جميعُ المحاسنِ

فقد التزم السين قبل النون، والحسن الثالث عشر هو "حسن الابتداءات" وقد استشهد ابن المعتز لهذه المحاسن -كما ذكرت- من القديم والحديث ليثبت أنها ليست من اختراع المحدثين، ويلاحظ أن ابن المعتز لم يجمع في كتابه كل ما قيل قبله من مسائل البديع بل ترك كثيرًا منها كالسجع والازدواج وحسن التقسيم والاحتراس وأسلوب الحكيم والإرصاد والتجريد واللف والنشر(١) "وقد أقر هو ذلك حيث ذكر أنه لا يمكن الإحاطة بتلك الفنون.

بقي أن تعلم أن ابن المعتز لم يكن راضيًا عن الإكثار من البديع والإسراف في استخدام صوره، فقد عارض في شدة هؤلاء الذين أسرفوا في التجديد واستخدام البديع وذكر منهم أبا تمام وصالح بن عبد القدوس؛ حيث أسرف الأول في استخدام البديع وأسرف الثاني في بناء شعره جميعه على الحكم والأمثال.

يقول ابن المعتز: "لو أن صالحًا نثر أمثاله في شعره وجعل بينها فصولاً من كلامه لسبق أهل زمانه وغلب على مد ميدانه"(٢) ويقول: "إن بشارًا ومسلمًا وأبا

---

(١) انظر الصبغ البديعي ١٤١، وارجع إلى هذه الفنون فيما ذكرناه عند الجاحظ والمبرد.

(٢) البديع: ١.

نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه، ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شغف به حتى غلب عليه وتفرع فيه وأكثر منه، فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض، وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف"[(١)].

قدامة بن جعفر "ت ٣٣٧هـ"

يعد قدامة بن جعفر من أغزر أهل عصره علمًا وأوسعهم ثقافة، فقد أخذ بحظ وافر من علوم متنوعة، وبرز في اللغة والأدب والفقه والكلام والفلسفة والمنطق، كان نصرانيًا ثم أسلم في أواخر القرن الثالث الهجري على يد المكتفي بالله، وقد درس قدامة الفلسفة والمنطق وتأثر بهما تفكيرًا ومنهجًا في مؤلفاته التي بلغت أربعة عشر مؤلفًا في موضوعات مختلفة[(٢)].

والذي يهمنا من مؤلفاته، كتابه "نقد الشعر" فقد أسهم به بنصيب وافر في نمو البلاغة وتطور مسائلها وتأثر بمن سبقه وأثر فيمن بعده، ويخطئ كثير من الباحثين عندما يتحدثون عن تأثر قدامة بالفلسفة ومنطق أرسطو، فنراهم يسرفون ويغالون في هذا التأثير؛ إذ يتعقبون ما تحدث عنه قدامة من فنون ومسائل بلاغية محاولين رجوعه إلى منطق أرسطو وفلسفته[(٣)]، وهذا تعسف لا نرتضيه ولا نقبله، فقدامة شأنه شأن سلفه وخلفه من العلماء تأثر وأثر وهذا واضح عندما ننظر فيما عرض له من مسائل البلاغة؛ إذ نجد أن ما تحدث عنه قد سبقه به كثير من العلماء، ثم نرى له إضافات معينة تأثر بها من خلفه، وهذا هو شأن البحث والدراسة، نحن لا ننكر تأثر قدامة بالفلسفة والمنطق، فقد تاثر بهما في منهجه العام الذي سلكه، وفي طريقة بحثه وتفكيره، ثم في مواضع معينة ومحددة مثل حديثه عن تعريف الشعر إذ يقول: "الشعر قول موزون مقفى يدل على معنى" ثم يأخذ في ذكر محترزات

---

(١) البديع: ٣.

(٢) انظر في ترجمته معجم الأدباء ١٧/ ١٢، والفهرست: ١٣٠.

(٣) انظر البلاغة تطور وتاريخ ٧٨ وما بعدها.

التعريف بطريقة منطقية فلسفية[١]، ومثل حديثه عن الفضائل عندما تناول نعوت الجودة لأغراض الشعر؛ إذ قسمها إلى أربعة أصول كبرى هي العقل والشجاعة والعدل والعفة وفرع منها مفردة أو مركبة بعضها مع بعض فضائل كثيرة[٢].

مثل هذا لا ننكر تأثر قدامة فيه بالمنطق والفلسفة، بل لا يتأتى لدارس إنكاره، ولكن الذي ننكره هو التعسف والإسراف في إثبات هذا التأثر ورد كل ما تحدث عنه قدامة أو محاولة رده إلى منطق أرسطو وفلسفته.

فتعالوا ننظر في "نقد الشعر" لنعرف غاية قدامة من تأليفه ومنهجه الذي سلكه، وفنون البديع التي تحدث عنها وما أضافه إليها من جديد في ضوء ما عرفنا عند سابقيه من تلك الفنون.

تحدث قدامة عن غايته من تأليف الكتاب فقال: "ولم أجد أحدًا وضع في نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتابًا، وكان الكلام عندي في هذا القسم أولى بالشعر من سائر الأقسام المعدودة"[٣].

فهو يهدف -كما قال- إلى تمييز جيد الشعر من رديئه حيث نظر فوجد العلم بالشعر الذي ينقسم أقسامًا: قسم ينسب إلى علم عروضه ووزنه، وقسم ينسب إلى علم قوافيه ومقاطعه، وقسم ينسب إلى علم غريبه ولغته، وقسم ينسب إلى علم معانيه والمقصد منه، وقسم ينسب إلى علم جيده ورديئه وقد خاض الناس في هذه الأقسام ما عدا القسم الأخير فلم يجد فيه كتابًا[٤] ولهذا وضع "نقد الشعر" ليميز بين جيده ورديئه.

ونلاحظ أن ابن المعتز كان يتحدث في نهاية كل فن من فنون البديع عما ورد معيبًا منه، ويعرض طائفة من الشواهد الرديئة والمعيبة، وما من شك في أن قدامة قد أفاد من ذلك، وإن كان قد أغفله فلم يشر إليه.

---

(١) نقد الشعر ١٣.

(٢) انظر نقد الشعر ٥٥.

(٣) مقدمة "نقد الشعر".

(٤) انظر مقدمة "نقد الشعر".

منهجه الذي سلكه

وقد تأثر قدامة بالمنطق والفكر اليوناني في منهجه الذي سار عليه حيث قسم الكتاب إلى مقدمة وثلاثة فصول: تحدث في المقدمة عن أنواع العلم بالشعر والباعث له على تأليف الكتاب، ثم تحدث في الفصل الأول عن حد الشعر وبيان مراتبه وعن مقدمات تتعلق بالشعر، وعن المنهج الذي اختطه لنفسه، وتحدث في الفصل الثاني عن نعوت الجودة أما الفصل الثالث فقد خصه بعيوب الشعر ونعوت رداءته.

وكانت الطريقة التي مضى عليها في تجلية هذه النعوت، أن تناول عناصر الشعر الأربعة، وهي: اللفظ والوزن والقافية والمعنى فتحدث عن نعوت الجودة لكل عنصر منها وبعد ذلك يركب هذه العناصر ويتحدث عن نعوت جودة المركب، فتحدث عن نعوت الجودة لائتلاف اللفظ مع المعنى وائتلاف اللفظ مع الوزن، وائتلاف المعنى مع الوزن وائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت.

وما صنعه قدامة في الفصل الثاني مع نعوت الجودة، يصنع مثله في الفصل الثالث مع نعوت الرداءة، فيذكر بإزاء كل نعت جيد في الشعر النعت الرديء الذي يقابله وهو جانب يتصل بالنقد الأدبي، وقد تأثر فيه بابن المعتز حيث رأينا الأخير يذكر في نهاية حديثه عن كل فن من فنون البديع التي تناولها، ما ورد منه معيبًا، ويعرض لطائفة من تلك الشواهد الرديئة المعيبة.

أهم ما تضمنه الكتاب من فنون البديع

وعندما نتتبع قدامة في منهجه الذي اختطه لنفسه نجده في أثناء حديثه عن نعوت الجودة لعناصر الشعر مفردة أو مركبة يعرض لكثيرٍ من الفنون البديعية، وأهم ما قد تعرض له ما يلي:

١-التشبيه: تحدث عنه عندما تحدث عن نعوت جودة المعنى حيث جعله غرضا من أغراض الشعر، وهذا خطأ منهجي؛ لأن التشبيه ليس غرضًا من أغراض الشعر، بل فنًا من فنون البلاغة، وقد أضاف قدامة جديدًا إلى مبحث التشبيه فذكر أن التشبيه يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها، وأحسن التشبيهات ما وقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى

يدني بهما إلى حال الاتحاد، ويسوق أمثلة كثيرة للتشبيهات الحسنة، ثم يشير إلى أن التشبيهات تقع على أضرب منها أن تجمع في بيت واحد، أو ألفاظ يسيرة تشبيهات كثيرة، ومنها أن يشبه شيء واحد بأشياء، ومنها أن يشبه شيء في تصرف أحواله بأشياء تشبهه في تلك الأحوال، ويرى قدامة أن للشاعر أن يتصرف في تشبيهاته وأن يجدد في صوره بالخروج على مألوف الشعراء في تشبيهاتهم[١].

٢-الترصيع: وقد جعله من نعوت جودة الوزن، وعرفه بأن يتوخى في البيت تقطيع أجزائه إلى فقرات مسجوعة أو شبيهة بالمسجوعة.

كما في قول الشاعر:

سودٌ ذوائبُهَا بيضٌ ترائِبُهَا مَحْضٌ ضَرائِبُهَا صِيغَتْ على الكرمِ

ويذكر قدامة أن الترصيع يحسن إذا لم يتواتر في القصيدة أو المقطوعة، فإن تواتر كان معيبًا؛ لأنه عندئذ يدل على التكلف وعلى أن الشاعر يقصد إليه ويعمد، وقد أشار الجاحظ إلى هذا اللون وإن سماه بالسجع والازدواج وسماه قدامة بالترصيع؛ لأن قدامة كان مولعًا بتغيير المصطلحات وتبديل ما استقر عليه العلماء واتفقوا على تسميته، كما سترى في كثير من الفنون التي أشار إليها.

٣-**صحة التقسيم**: بعد أن فرغ قدامة من أغراض الشعر التي ذكر فيها التشبيه -كما أسلفنا- يشير إلى أن هذه الأغراض إنما هي وجوه من جملة معاني الشعر، أما ما يعم جميع تلك المعاني؛ فإنه سيعني بذكره وبيانه، ثم يأخذ في سرد تلك التي تعم جميع المعاني الشعرية فيذكر: صحة التقسيم وصحة المقابلات وصحة التفسير والتتميم والمبالغة والتكافؤ والالتفات.

يقول في تعريف صحة التقسيم: هي أن يبتدئ الشاعر فيضع أقسامًا، ثم يستوفيها ولا يغادر قسمًا منها.

كما في قول نصيب:

فقالَ فَرِيقُ الْقَوْمِ: لا وفريقُهُم نعمْ وفريقٌ قال: ويحَك ما نَدْرِي

---

(١) انظر نقد الشعر: ٦٥.

فليس في أقسام الإجابة عن مطلوب إذا سئل عنه غير هذه الأقسام، ويشير في نعوت الرداءة إلى فساد الأقسام في بيت جرير:

صارتْ حَنِيفَةٌ أثلاثًا فَثُلُثُهُمُ ... من العبيدِ وثُلُثٌ من مواليهَـ

فيقول: بلغني أن هذا الشعر أنشد في مجلس ورجل من بني حنيفة حاضر فقيل له: من أيهم أنت؟ فقال من الثلث الملغي ذكره[١]، وقد مر بك حديث الجاحظ، عن هذا اللون وإفاضته في إيضاحه وفي الاستشهاد له، فقدامة يستمد منه ويتأثر به.

٤-**صحة المقابلات**: وهي أن يرتب الشاعر معانيه ترتيبًا يوفق فيه بين طائفة منها ويخالف بين طائفة ثانية بحيث تتقابل في وضوح، أو يشرط شروطًا ويعدد أحوالاً في أحد المعنيين، فيجب أن يأتي فيما يوافقه بمثل الذي شرطه وعدده، وفيما يخالف بضد ذلك، ونلاحظ أنه يشير في هذا التعريف إلى مراعاة النظير وإلى المقابلة وهي لون من ألوان الطباق، وقد استمد السكاكي ما اشترطه في المقابلة من تعريف قدامة هذا.

ومما استشهد به قدامة قول الشاعر:

فَوَاعَجَبًا كيفَ اتَّفَقْنا فناصحٌ ... وَفِيٌّ ومَطْوِيٌّ على الْغِلِّ غَادِرُ

حيث قابل الشاعر النصح والوفاء بالغل والغدر...

ومن فاسد المقابلة قول امرئ القيس:

فلو أنهَا نفسٌ تموتُ سَوِيَّةً ... ولكنَّهَا نفسٌ تَسَاقَطُ أَنْفُسَا

ومعنى البيت: لو أنها نفس تموت موتة واحدة لهان الأمر ولكنها نفس تموت موتات "وتتساقط أنفسا" يقول قدامة: وللعدول عن هذا العيب غير الرواة هذا البيت، فأبدلوا في مكان: "سوية" "جميعة" لأنه في مقابلة" "تساقط أنفسا" أليق من سوية"[٢].

---

(١) انظر نقد الشعر ١٨٨.

(٢) انظر نقد الشعر ١١٨.

٥-**صحة التفسير**: وهي أن يذكر الشاعر في بيت معنيين في إجمال، ويفسرهما ويستوفي شرحهما إما في الشطر الثاني وإما في بيت لاحق.

كما في قول الفرزدق:

لقـدْ خُنْـتَ قومًـا لـو لجَـأْتَ إلَـيْهِمُ طريـدَ دمٍ أو حَـامِلاً ثِقْـلَ مَغْـرَمِ

لأَلْفَيْـتَ فِـيهِمْ مُعْطِيًـا أو مُطَاعِنًـا وَرَاءَكَ شَـزْرًا بالْوَشِـيجِ الْـمُقَوَّمِ(١)

حيث ذكر في البيت الأول معنيين وهما: "طريد دم وحاملاً ثقل مغرم" ثم فسرهما بقوله في البيت الثاني "معطيًا أو مطاعنًا".

وكما في قول سهل بن هارون.

فَوَاحَسْرَتَا حتى متَى القلبُ موجَعٌ بِفَقْـدِ حَبِيـبٍ أو تَعَـذُّرِ إفْـضَالِ

فِـرَاقُ حَبيـبٍ مِثْلُـهُ يُـورِثُ الأَسَـى وخُلَّـةُ حُـرٍّ لا يَقُـومُ بهَـا مَـالِي

فقد فسر بالبيت الثاني سبب إيجاع قلبه بفقدان الحبيب وتعذر الإفضال، ويذكر قدامة من فاسد هذا اللون قول أحدهم:

فَيَـا أَيُّهَـا الحـيرانُ في ظُلَـمِ الـدُّجَى ومَـنْ خـافَ أن يلقَـاهُ بَغـيٌ مـن العِـدَى

تعـالَ إليـهِ تلـقَ مـن نُـورِ وجهـهِ ضِـيَاءً ومـن كَفَّيْـهِ بحـرًا مـن النَّـدَى

حيث فسر: "ظلم الدجى" بقوله: "تلق من نور وجهه ضياء" وهذا صواب ثم فسر: "أن يلقاه بغي من العدى" بقوله: "ومن كفيه بحرًا من الندى" وهذا فاسد؛ لأنه ينبغي أن يأتي في جانب بغي العدى، بالنصرة أو بالعصمة أو بما يجانس ذلك مما يحتمي به الإنسان من أعدائه، لا بالكرم، لأن الكرم يذكر مع العدم أو الفقر(٢).

٦-**التتميم**: وهو أن يذكر الشاعر معنى ثم لا يدع شيئًا يتمم به صحته وجودته إلا أتى به إما بقصد المبالغة وإما بقصد الاحتياط.

---

(١) الثِّقْل: الحمل الثقيل، وألفيت: وجدت، والوشيج: شجر الرماح، والمقوم: المثقف، والشزر: مصدر شزره بمعنى: طعنه عن يمينه وشماله.

(٢) انظر نقد الشعر ١١٩.

فمن الأول قول نافع بن خليفة الغنوي:

رجـــالٌ إذا لمْ يُقْبَـــلِ الحـــقُّ مِـــنْهُمُ وَيُعْطَــوْهُ عـــاذُوا بالـــسيوفِ القواطـــعِ

فقد تم جودة المعنى بقوله: "ويعطوه" وابن المعتز -كما مر بك- قد سمي هذا بالاعتراض.

ومن الثاني قول طرفة:

فَـــسَقَى دِيَـــارَكَ -غَـــيْرَ مُفْـــسِدِهَا- صَـــوْبُ الرَّبيـــعِ ودِيمَـــةٌ تَهْمِـــي

وقد سمى الجاحظ هذا بإصابة المقدار، وسماه المتأخرون باسم الاحتراس أو التكميل.

٧-**المبالغة**: وقد جعلها في مرتبة أقل من الغلو الذي يبنى على الإفراط الشديد، فهو يفضل الغلو على المبالغة، وقد سمي ابن المعتز المبالغة باسم الإفراط في الصفة، وأكثر البلاغيين على تسمية قدامة.

ومن أمثلتها عنده قول عمير بن الأيهم التغلبي:

وَنُكْـــرِمُ جَارَنَـــا مَـــا دَامَ فِينَـــا وَنُتْبِعُـــهُ الكرامـــةَ حيـــثُ مـــالاَ

٨-**التكافؤ**: وهو الطباق عند ابن المعتز وغيره، فقد سماه قدامة بالتكافؤ، وأطلق الطباق على الجناس التام، وكأنه مولع -كما قلت- بتبديل وتغيير المصطلحات.

ومن شواهد التكافؤ قول الشاعر:

حُلْـــوُ الـــشَّمَائِلِ وَهُـــوَ مُـــرٌّ بَاسِـــلٌ يَحْمِـــي الـــذِّمَارَ صَـــبِيحَةَ الإِرْهَـــاقِ

٩-**الالتفات**: وقد أطلقه على صورة من صورتيه، وهو أن يفرغ الشاعر من المعنى ونظن أنه سينتقل إلى غيره فإذا به يعود إليه واصلاً كلامه به، وقد ذكر الأصمعي هذه الصورة مع الصورة الأخرى -كما رأيت- وتبعه في ذلك ابن المعتز، وجاء قدامة فذكر إحدى الصورتين دون الأخرى.

١٠-**المساواة**: وبعد أن فرغ قدامة من نعوت جودة المعنى انتقل إلى ائتلاف

اللفظ مع المعنى فذكر نعوت الجودة لهذا الائتلاف وهي: المساواة والإشارة والإرداف والتمثيل والمطابق.

فالمساواة: أن يكون اللفظ مساويًا المعنى حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، والإشارة: أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على معان كثيرة إيماء إليها أو لمحًا يدل عليها.

والإرداف: أن يريد الشاعر الدلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له، كقول ابن أبي ربيعة:

بعيدةُ مَهْوَى الْقُرْطِ إما لنَوْفَلِ أَبُوهَا وإمَّا عَبْدِ شَمْسٍ وهاشِمِ

وقد سمى الجاحظ هذا بالكناية وتبعه في هذه التسمية ابن المعتز كما رأيت... والتمثيل: وهو عنده يشمل الاستعارة التمثيلية وبعض صور الكناية، وقد عرفه قدامة: بأن يريد الشاعر الإشارة إلى معنى فيضع كلامًا يفهم منه معنى آخر، كقول ابن ميادة:

ألمْ تكُ في يُمنَى يَدَيْكَ جَعَلْتَنِي فلا تجْعَلَنِّي بَعْدَهَا في شِمَالِكَ

والمطابق: وقد أطلقه –كما ذكرت– على الجناس التام، كما في قول الأفوه الأودي:

وأَقْطَعُ الْهَوْجَلَ مُسْتَأْنِسًا بِهَوْجَلٍ عَيْرَانَةٍ عَنْتَرِيسْ

أما الجناس غير التام فقد أبقى على تسميته بالجناس أو المجانس كما في قول حيان بن ربيعة الطائي:

لقد عَلِمَ القبائلُ أن قَوْمِي لهم حدٌّ إذا لُبِسَ الْحَدِيدُ

وينتقل إلى ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت فيذكر من نعوت الجودة لهذا التآلف:

١ – التوشيح: وهو ما سماه عبد الله بن المعتز برد أعجاز الكلام على ما تقدمها، وقد عرفه قدامة بقوله: أن يكون أول البيت شاهدًا بقافيته ومعناها متعلقًا

به، حتى أن الذي يعرف قافية القصيدة التي منها البيت إذا سمع أول البيت عرف آخره، وبانت له قافيته.

٢- الإيغال: وقد استمده من الأصمعي على نحو ما مر بك عنده.

ومما يلاحظ أن قدامة لم يتحدث عن الاستعارة في نعوت الجودة بل تحدث عنها في نعوت الرداءة، على الرغم من أن ابن المعتز قد جعلها من فنون البديع الخمسة، وقد أطلق عليها قدامة أي على الاستعارة المعيبة اسم المعاظلة، وقال: المعاظلة هي فاحش الاستعارة، كما في تسمية بعض الشعراء رِجْل الإنسان حافرًا، ولا نوافقه على هذا الإطلاق، لأن المعروف أن المعاظلة هي ركوب الكلام بعضه بعضًا أو التعقيد اللفظي.

ومما أشار إليه قدامة أيضًا: "التصريع" وقد تحدث عنه في نعوت جودة القافية وعرفه بقوله: أن يقصد لتصيير مقطع المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها، وذكر أن فحول الشعراء يتوخون ذلك ولا يكادون يعدلون عنه وربما صرعوا أبياتًا أخرى من القصيدة بعد البيت الأول وذلك يدل على اقتدار الشاعر وسعة بحره.

تلك أهم فنون البديع في كتاب "نقد الشعر" وقد استمدها قدامة من كتابات السابقين، وكانت له إضافات جيدة، كما كان مولعًا بتغيير المصطلحات وتسمية الفنون بغير ما سماها به من سبقه وبخاصة عبد الله بن المعتز، أما تأثره بالفلسفة والمنطق فقد كان محدودًا على نحو ما بيناه، وليس إلى الحد الذي ذكره شوقي ضيف وغيره؛ حيث أسرفوا في قولهم بهذا التأثر وتكلفوا أشد التكلف في رد ما قاله قدامة إلى المنطق والفلسفة وهذا ما لا نقبله، ولا ننكر في ذات الوقت أن قدامة قد تأثر بالثقافات الأجنبية، وبخاصة الفلسفة والمنطق على نحو ما بينا.

كتاب "البرهان في وجوه البيان"

هذا الكتاب لإسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب، كانت أسرته تخدم في الدواوين العباسية منذ عصر المأمون وكان جده سليمان من جلة الكتاب وقد وزر إسحاق للخليفة المهتدي بالله والخليفة المعتمد على الله، وتوفي سنة ٣٧٢هـ، وهذا ما يؤكد أن إسحاق الذي سكتت المراجع عن التعريف به، كان يعيش في أوائل القرن الرابع الهجري فهو معاصر قدامة بن جعفر، وهذا ما يفسر لنا السبب في أن جزءًا من هذا الكتاب قد طبع باسم "نقد النثر" ونسب خطأ إلى قدامة، وقد شكك طه حسين في تلك النسبة، وذكر أنه في الغالب لكاتب شيعي ظاهر التشيع قد صنف كتبًا عدة في الفقه وعلوم الدين(١).

وظل التشكك قائمًا حتى حل محله اليقين بأن الكتاب ليس لقدامة وإنما هو لابن وهب، وذلك عندما نشر مقال في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م، يقول فيه ناشره: "إن هذا الكتاب الذي طبع باسم "نقد النثر" ونسب خطأ إلى قدامة إنما هو جزء من كتاب "البرهان في وجوه البيان" لإسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب، عثر عليه في بعض المكتبات الأوروبية(٢).

وفي خاتمة الكتاب ومقدمته ما يدل على أن اسمه الحقيقي: "البرهان في وجوه البيان" وليس نقد النثر؛ إذ يقول ناسخه في خاتمته: "كمل البيان بحمد الله تعالى وحسن عونه" ويقول مصنفه في مقدمته مبرزًا سبب تأليفه مخاطبًا أحد أصدقائه: "ذكرت لي وقوفك على كتاب عمرو بن بحر الجاحظ الذي سماه كتاب البيان والتبيين، وأنك وجدته إنما ذكر فيه أخبارًا منتحلة وخطبًا منتخبة، ولم يأت فيه بوصف البيان، ولا أتى على أقسامه في هذا اللسان، وكان عندما وقفت عليه غير مستحق لهذا الاسم الذي نسب إليه، وسألتني أن أذكر لك جملاً من أقسام البيان

---

(١) انظر مقدمة نقد النثر ص ١٩.

(٢) انظر مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد الرابع والعشرين ص ٧٣.

آتية على أكثر أصوله محيطة بجماهير فصوله، يعرف بها المبتدئ معانيه، ويستغني بها الناظر فيه، وأن أختصر لك ذلك لئلا يطول له الكتاب، وقد ذكرت في كتابي هذا جملا من أقسام البيان وفقرًا من آداب حكماء أهل هذا اللسان، لم أسبق المتقدمين إليها، ولكني شرحت في بعض قولي ما أجملوه واختصرت في بعض ذلك ما أطالوه وأوضحت في كثير منه ما أوعروه"[١].

وبهذا يتضح لك أن الكتاب لابن وهب وليس لقدامة وأن اسمه "البرهان في وجوه البيان" وليس "نقد النثر" ولعل السبب في نسبته إلى قدامة خطأ -كما ذكرت- يرجع إلى سكوت المراجع عن التعريف بالمؤلف الحقيقي للكتاب، ومعاصرة المؤلف "ابن وهب" لقدامة بالإضافة إلى تأثره بالفلسفة والمنطق، كما تأثر قدامة بهما، وبعد أن وضح لك اسم الكتاب ومؤلفه تعال ننظر في سبب تأليفه له وما تضمنه من فنون البديع...

يطالعنا المؤلف في المقدمة -كما أشرنا- بأنه ألفه معارضة لكتاب الجاحظ "البيان والتبيين"، وقد وصفه بأن مسائل البيان فيه تختلط ولا تتضح، فأراد أن يوضح وأن يشرح ما أجمل، وكأنه يريد أن يقول: إن البحث في البيان ليس من شأن المتكلمين من أمثال الجاحظ إنما هو من شأن المتفلسفة أمثاله...

ولا يعنينا ما في الكتاب من آرائه واعتقاداته المبنية على التشيع، وإنما يعنينا ما فيه من حديث عن فنون البلاغة ومسائل البيان، فقد أشار إلى أن العبارة تنقسم إلى خبر وطلب، وقد أفاد البلاغيون من ذلك فتحدثوا عن تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء، كما تحدث عن التشبيه وقسمه إلى تشبيه حسي وتشبيه معنوي وعن اللحن والرمز مستمدًا من كتابات الجاحظ، وقد أطال في ذلك وقسم الرمز إلى قسمين: رمز يراد به التعمية، ورمز يراد به كثرة الصور والأخيلة وهو الرمز الأدبي... وتحدث عن الوحي ويريد به ما سماه قدامة باسم الإشارة وهما يستمدان من الجاحظ الذي ذكر أن "مما مدحوا به الإيجاز والكلام الذي هو كالوحي والإشارة"

---

(١) نقد النثر: ٣.

كما تحدث عن الأمثال واللغز والحذف، وعن الالتفات وقد سماه باسم "الصرف" وعن المبالغة، وعن القطع والعطف، وربما هيأ ذلك لظهور مبحث الفصل والوصل عند البلاغيين المتأخرين... كما تحدث عن التقديم والتأخير وعن صحة المقابلات... إلى غير ذلك من فنون البلاغة... وكان أثر الفلسفة والمنطق -كما ذكرت- باديًا على المؤلف في أفكاره وعباراته، كما أن الكتاب مليء بالآراء والاعتقادات الشيعية التي ينبغي أن نضرب عنها صفحًا...

كتب الإعجاز القرآني

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري برزت مؤلفات عدة للمتكلمين الذين تحدثوا عن أوجه الإعجاز القرآني، وقد حوت تلك المؤلفات العديد من مسائل البلاغة وفنونها، ومن أهم هذه المؤلفات:

رسالة النكت في إعجاز القرآن للرماني ت"٣٨٦هـ"

والرماني هو علي بن عيسى الرماني، أحد أعلام المعتزلة في عصره، وله مصنفات كثيرة في التفسير واللغة والنحو وعلم الكلام، وقد ألف هذه الرسالة جوابًا لسؤال وجه إليه، طلب سائله من الرماني أن يجمل له نكات الإعجاز ويفسرها له بلا تطويل في الحجاج... وقد استهل الرماني الرسالة برد تلك النكت إلى سبع جهات هي: ترك المعارضة مع توافر الدواعي وشدة الحاجة، التحدي للكافة، الصرفة، البلاغة، الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة. نقض العادة، قياس القرآن بكل معجزة، ثم أخذ يفسر القول في كل جهة من هذه الجهات. ويعنينا منها البلاغة، وكان حديثه عنها على النحو التالي:

جعلها ثلاث طبقات: عليا ووسطى ودنيا؛ فالعليا هي بلاغة القرآن الكريم، والوسطى والدنيا تتفاوت فيهما بلاغات البشر علوا ودنوا، ثم يذكر أن البلاغة على عشرة أقسام هي: الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان، وأخذ يفصل القول في كل قسم من هذه الأقسام مبتدئًا بتعريفه ثم مصورًا شعبه، ممثلاً لها بآي الذكر الحكيم...

فيعرف الإيجاز بقوله. إنه تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، ثم يذكر أنه على وجهين: إيجاز بالحذف، وهو ما أسقطت فيه كلمة للاستغناء عنها بدلالة غيرها من الحال أو من فحوى الكلام، ويسوق الشواهد العديدة من الآيات الكريمة لأنواع الحذف المختلفة كحذف الأجوبة وحذف المضاف، وحذف الموصوف وحذف الصفة، وغير ذلك، والوجه الثاني: إيجاز القصر وهو بناء الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف، مثل ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، ثم مضى يفرق بين الإيجاز والإخلال والإطناب والتطويل وبهذا صور الرماني الإيجاز بنوعيه تصويرًا نهائيًا.

وانتقل إلى التشبيه فعرفه بأنه: "العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل، وبذلك قسم التشبيه إلى حسي وعقلي وسمي الحسي تشبيه حقيقة والعقلي تشبيه بلاغة، وأخذ يفصل القول في تشبيه البلاغة مبينًا طبقاته فذكر أنه يأتي على وجوه: منها إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه كتشبيه أعمال الكفار بالسراب في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]، ومنها إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة كتشبيه ارتفاع الجبل بارتفاع الظلة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١]، ومنها إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالديهة كقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]، ومنها إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة، كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤].

ويذكر الرماني أن حسن التشبيه يكمن في تقريبه بين الأمور المتباعدة، ويمتاز تشبيه البلاغة بأنه يقرن الأغمض بالأوضح فيبين وينكشف، إلى غير ذلك من التفصيلات التي ذكرها الرماني في التشبيه والتي انتفع بها البلاغيون بعده وبخاصة الإمام عبد القاهر الجرجاني.

ثم يمضي إلى الاستعارة فيعرفها بأنها تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة، فالفرق بينها وبين التشبيه أن الكلمات في التشبيه

تظل لها معانيها الحقيقية بخلاف الكلمات في الاستعارة؛ فإنها تدل على ما لم توضع له في اللغة. ثم يذكر أن كل استعارة لابد فيها من مستعار ومستعار له ومستعار منه، ويعرض أمثلة مختلفة يصور فيها فضل الاستعارة على الحقيقة، وأنها أبلغ منها في قوة البيان...

وهكذا يستمر الرماني في الحديث عن أقسام البلاغة العشرة، فيتحدث عن التلاؤم وهو يريد به حسن النظم وقوة السبك ويقسم الكلام إلى متنافر يستثقله اللسان وتمجه الآذان، ومتلائم في الطبقة الوسطى، وفيه تدخل بلاغة البلغاء، ومتلائم في الطبقة العليا وهو أسلوب القرآن الكريم، وهو هنا يستمد من الجاحظ وينقل كثيرًا من الشواهد التي عرضها لتنافر الحروف وتنافر الكلمات، ويتحدث عن الفواصل فيعرفها بأنها: حروف متشاكلة مع المقاطع توجب حسن إفهام المعاني، ويذكر أنها ترد على وجهين: وجه على الحروف المتجانسة كما في قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۝٣﴾[الطور: ١-٣] ووجه على الحروف المتقاربة، كما في قوله عز وجل: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾[ق: ١-٢].

ويفرق بين الفواصل في القرآن وبين الأسجاع، فيقول: "الفواصل بلاغة والأسجاع عيب، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع؛ فالمعاني تابعة لها، ولهذا فالأسجاع يتضح فيها التكلف والاستدعاء، بخلاف الفواصل فإنها تصير إلى قرارها وتنزل في مكانها.

ويتحدث عن التجانس فيذكر أن تجانس البلاغة هو بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللغة، ويجعله على نوعين مزاوجة، وقد عرفت فيما بعد بالمشاكلة كما في قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ومناسبة وأراد بها جناس الاشتقاق كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٧].

ويتحدث عن التصريف فيعرفه بأنه تصريف المعنى في الدلالات المختلفة، كتصريف الألفاظ المشتركة في أصل واحد... وقد أراد به القصص القرآني وورود

القصة بطرق مختلفة وفي مواضع متعددة لوجوه من الحكمة منها التصريف في وجوه البلاغة من غير نقصان عن أعلى مرتبة ومنها تمكين العظة والعبرة ومنها فَلُّ الشبهة في المعجزة.

ويتحدث عن التضمين فيقول: إنه حصول معنى في الكلام من غير ذكر له، وهو على وجهين ما يدل عليه الكلام دلالة إخبار كدلالة كلمة مكسور على "كاسر"، وما يدل عليه دلالة قياس كدلالة البسملة على تعظيم الله تعالى.

ويتحدث عن المبالغة فيعرفها بأنها: الدلالة على كبر المعنى على جهة التغيير عن أصل اللغة لتلك الإبانة، ويذكر أنها على وجوه: منها مبالغة عن طريق البنية كصيغ المبالغة مثل: غفار وغفور، وتواب، ومنها مبالغة بالتعميم كقولك: أتاني الناس والذي أتاك جماعة منهم، ومنها مبالغة بإخراج التعبير مخرج الشك، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]، ومنها مبالغة بحذف الأجوبة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧].

وتحدث عن البيان وهو القسم العاشر فعرفه بقوله: "الإحضار لما يظهر به تميز الشيء من غيره في الإدراك"(١).

فهو يريد به أنواع الدلالة على المعنى ويذكر أنها على أربعة أقسام: كلام وحال وإشارة وعلامة، وهو يستمد هنا من كلام الجاحظ الذي أفاض في الحديث عن أوجه الدلالة وبين أنها خمسة أوجه: اللفظ والإشارة والعقد والخط والحال(٢).

إعجاز القرآن للباقلاني
"ت ٤٠٣هـ"

هو أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، من أعلام الأشاعرة، وله مصنفات كثيرة، وهذا الكتاب "إعجاز القرآن" من أهم مصنفاته، وهو يرد فيه ردًا عنيفًا على الملاحدة والمشككين فيفند مطاعنهم ويدفع شبههم ويرفض رفضًا قويًا القول

(١) النكت- ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ص ١٠٦.

(٢) انظر البيان والتبيين ج ١ ص ٧٦.

بالصرفة راجعًا إعجاز القرآن الكريم إلى ثلاثة أوجه وهي: تضمنه الإخبار عن الغيب، القصص الديني وسير الأنبياء، بلاغته، وعندما تقرأ في إعجاز القرآن للباقلاني تدرك أنه ينقصه الدقة في التبويب والتنظيم، فهو غير دقيق في منهاجه؛ إذ تجده يخرج من فصل إلى فصل والمضمون الذي يتحدث عنه واحد... وقد عقد الباقلاني فصولاً عدة لبيان أن القرآن معجز وإيضاح أوجه إعجازه والرد على الملاحدة والمشككين، ونفي الشعر والسجع عن القرآن، ونراه يسوق طائفة من أحاديث الرسول ﷺ وأقوال الصحابة ليلمس القارئ فرق ما بينها وبين القرآن... ويدرس معلقة امرئ القيس:

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرَى حَبيبٍ ومَنْزِلِ   بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

ولامية البحتري:

أهلاً بذلكُمُ الخيالِ الْمُقْبِلِ   فَعَلَ الذي نَهْوَاهُ أمْ لمْ يفْعَلِ

ويبين ما فيهما من عوار وتكلف وحشو وخلل وتطويل ولفظ غريب، وكيف تتفاوت أبياتهما بين الجودة والرداءة، والغرابة والسلاسة ليبرز بذلك جمال النظم القرآني وأنه وحده الذي لا تفاوت فيه، بينما يتفاوت كلام البلغاء من الشعراء حتى في القصيدة الواحدة؛ فالقرآن بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز جميع الخلق عنه.

ويعقد فصلاً يتحدث فيه عن وجوه البديع وهل يمكن تعليل الإعجاز القرآني بها أو لا يمكن، فيتحدث فيه عن الاستعارة والإرداف والمماثلة والمطابقة والجناس والمبالغة والغلو والإيغال وصحة التقسيم والتتميم والترصيع وطباق السلب والكناية والتعريض والعكس والتبديل والالتفات والاعتراض والرجوع والتذييل، وغير ذلك من فنون البديع.

ويشير في كل ذلك إلى آراء السابقين وما بينهم من خلافات في تحديد هذه الفنون وتقرير مصطلحاتها، ثم يقول: "ووجوه البديع كثيرة جدًا، فاقتصرنا على ذكر بعضها ونبهنا بذلك على ما لم نذكر كراهة التطويل، فليس الغرض ذكر جميع

أبواب البديع، وقد قدر مقدرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن الكريم من هذه الأبواب التي نقلناها وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه، وليس كذلك عندنا، لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها"(١).

ثم يذكر أن الإعجاز القرآني مرده إلى نظمه العجيب الذي لا يمكن أن يحتذى، ويعقد فصلاً آخر بعنوان: "وصف وجوه البلاغة": فيلخص فيه الوجوه العشرة التي ذكرها الرماني. ثم يذكر أن بلاغة القرآن لا تقع بوجه من الوجوه التي عددها الرماني، بل هي تقع بها مقترنة في نسقه المحكم، بحيث لا يقال: إن التشبيه معجز أو التجنيس معجز، إنما يقال: إنهما معجزان بنظمهما وصوغهما الذي يسمو إلى الطبقة العليا من طبقات البلاغة الثلاث(٢).

وبهذا يتضح لنا رأي الباقلاني في وجوه البديع أتحقق الإعجاز أم لا؟ فهو يرى أن وجوه البديع إذا نظر إليها مجردة عن نظمها بعيدة عن سياقها، لا يقال إنها تحقق الإعجاز، لأنها مما يتعلم ويتوصل إليها بالتدرب والمران. أما إذا نظر إليها في سياقها ونظمها البديع العجيب الذي لا يدانيه نظم، فعندئذ يقال: إنها معجزة بنظمها وسياقها وصياغتها التي تسمو إلى الطبقة العليا من طبقات البلاغة الثلاث.

إعجاز القرآن
لعبد الجبار "ت ٤١٥"

هو القاضي أبو الحسن عبد الجبار الأسد آبادي قاضي قضاة الدولة البويهية بإيران أكبر أعلام المعتزلة في عصره، وإعجاز القرآن هذا هو الجزء السادس عشر من كتابه: "المغني في أبواب التوحيد والعدل" ويقع في ثمان وأربعين وثلاثمائة صحيفة، وقد عرض عبد الجبار في هذا الجزء رأيين في الإعجاز، أولهما لأستاذه أبي هاشم الجبائي وثانيهما رأيه هو، وكأنه أدرك في فكرة أستاذه نقصًا حيث لم يعتد بالنظم في القول بالإعجاز، وقد عرض عبد الجبار كل رأي منهما في فصل مستقل.

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص ١٦١.

(٢) انظر إعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٩٦.

يقول في أولهما: "وقال شيخنا أبو هاشم: إنما يكون الكلام فصيحًا لجزالة لفظه وحسن معناه، ولابد من اعتبار الأمرين؛ لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحًا" فإذا يجب أن يكون جامعًا لهذين الأمرين، وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص، لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر والنظم مختلف، إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة، وقد يكون النظم واحدًا وتقع المزية في الفصاحة، فالمعتبر ما ذكرناه، لأنه الذي يتبين في كل نظم وكل طريقة، وإنما يختص النظم بأن يقع لبعض الفصحاء يسبق إليه ثم يساويه فيه غيره من الفصحاء، فيساويه في ذلك النظم، ومن يفضل عليه يفضله في ذلك النظم"(١).

فهو لا يعتد بالنظم، ولا يقر بأنه يصلح مفسرًا للفصاحة والبلاغة، وكأنه يرد على الجاحظ وغيره من العلماء الذين يرجعون إعجاز القرآن إلى نظمه البديع العجيب، والمعول عليه عنده في فصاحة الكلام هو جزالة اللفظ، وحسن المعنى، وقد أدرك عبد الجبار ما في رأي أستاذه من قصور -كما قلنا- ومن خطأ إهمال النظم وعدم الاعتداد به فعقد فصلاً ثانيًا يصور فيه رأيه ويقر بالنظم مرجعًا للمزية والفصاحة، ثم أخذ يبين معنى النظم، وما ينبغي مراعاته واعتباره فيه من عوامل، وقد أفاد عبد القاهر من ذلك كثيرًا في تقرير نظرية النظم وإبرازها والكشف عن دقائقها وتحليل شواهدها -كما سنرى-.

يقول عبد الجبار: "واعلم أن الفصاحة لا تظهر في إفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع، ولأنه إما أن نعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو موقعها، ولابد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم لابد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض؛ لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها، فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها.

---

(١) إعجاز القرآن "المغني" جـ١٦ ص ١٩٧.

فإن قال قائل: فقد قلتم إن في جملة ما يدخل في الفصاحة حسن المعنى، فهلا اعتبرتموه؟ قيل له: إن المعاني وإن كان لابد منها فلا تظهر فيها المزية، ولذا نجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر والمعنى متفق على أنا نعلم أن المعاني لا يقع فيها تزايد، فإذًا يجب أن يكون الذي يعتبر التزايد عنده الألفاظ التي يعبر بها عنها، فإذا صحت هذه الجملة، فالذي تظهر به المزية ليس إلا الإبدال الذي به تختص الكلمات أو التقدم والتأخر الذي يختص الموقع أو الحركات التي تختص الإعراب، فبذلك تقع المباينة بين الكلام[(١)].

وواضح أنه هنا يناقض رأي أستاذه الذي ذكره آنفًا، ويقر بالتعويل على النظم الذي هو الضم على طريقة مخصوصة، فالكلمة لا تعد فصيحة في نفسها، بل لابد من ملاحظة صفات مختلفة لها، لابد من ملاحظة أبدالها ونظائرها، ولابد من ملاحظة حركاتها في الإعراب، ولابد من ملاحظة موقعها في التقديم والتأخير.

ويضيف عبد الجبار في شرح هذه النظرية وبيان ما للنظم من مزايا معتبرة فيقول: "ولا يمتنع في اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت في معنى تكون أفصح منها إذا استعملت في غيره، وكذلك فيها إذا تغيرت حركاتها، وكذلك القول في جملة من الكلام، وهذا يبين أن المعتبر في المزية ليس بنية اللفظة، وأن المعتبر فيها ما ذكرناه من الوجوه، فأما حسن النغم وعذوبة القول فمما يزيد الكلام حسنًا على السمع، لا أنه يوجد فضلاً في الفصاحة، ولا فضل فيما ذكرناه بين الحقيقة والمجاز، بل ربما كان المجاز أدخل في الفصاحة لأنه كالاستدلال في اللغة، وكذلك فلا معتبر بقصر الكلام وطوله وبسطه وإيجازه، لأن كل ضرب من ذلك ربما يكون أدخل في الفصاحة في بعض المواضع من صاحبه"[(٢)].

وقد أفاد عبد القاهر الجرجاني في تجليته لنظرية النظم، من كلام عبد الجبار هذا، وبين أن اللفظة المجردة لا يعتد بها، ودليل ذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر، وقد عرض لذلك الشواهد الكثيرة محللاً لها وموضحًا، كما بين أن الصور البيانية من

(١) المغني جـ١٦ ص ١٩٩.

(٢) المغني جـ١٦ ص ٢٠٠.

الاستعارة وغيرها لا دخل لها في النظم الذي عليه المعول في معرفة الإعجاز ومزايا الكلام. على نحو ما سنرى عند حديثنا عن أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز إن شاء الله.

***

كتب أدبية نقدية مبنية على أسس بلاغية

وبجانب هذه الكتب التي برزت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري وتناولت أوجه الإعجاز القرآني، وجدت مؤلفات أخرى أدبية دارت حول الشعر والشعراء، وأهم هذه المؤلفات: عيار الشعر لابن طباطبا، والموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي، والوساطة بين المتنبي وخصومه لعلي بن عبد العزيز الجرجاني.

فأنت تعلم أنه في القرن الثالث الهجري وجد مذهبان واضحان في الشعر، مذهب أبي تمام الذي أسرف في المحسنات البديعية إسرافًا شديدًا وتميز بالتعمق في المعاني والغوص وراءها، ومذهب البحتري الذي لم يسرف في البديع ولم يكن يأخذ نفسه بفلسفة ولا ثقافة، وكان لكل شاعر أنصار ومؤيدون، فجاء كتاب الموازنة لينظر في شعر الشاعرين ويوازن بين طريقتيهما...

وفي الوقت نفسه كان المتنبي قد ملأ الدنيا دويًا بشعره وما اتخذه من أسلوب التكلف الذي يؤدي المعاني الموروثة بطرق ملتوية جديدة وكان ذا بصيرة نافذة، كثير الترحال معتدًا بنفسه، ذا كبرياء وترفع فكثر خصومه في كل مكان، في حلب ومصر وبغداد ومدينة الري، وألفوا كتبًا ورسائل لبيان سرقاته والكشف عن مساوئه، فجاء كتاب الوساطة لينظر في شعر المتنبي متوسطًا بينه وبين خصومه ليحق الحق ويبطل الباطل في شعره، وكلام النقاد...

أما كتاب عيار الشعر فكتاب عام لا يختص بشاعر بعينه، وهذه الكتب الثلاثة كتب نقدية قامت على أسس بلاغية، وامتزجت فيها مباحث النقد بالبلاغة... فتعالوا ننظر فيها ونتجول في صفحاتها لنقف على ما بها من أسس بلاغية، ونعرف مدى إفادتهم من السلف، وإفادة الخلف مما أشاروا إليه وقرروه.

عيار الشعر لابن طَبَاطَبا

"ت ٣٢٢هـ"

مؤلف هذا الكتاب هو محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي الأصبهاني، كان من نقاد عصره وشعرائه، وكتاب عيار الشعر من أهم مؤلفاته، وهو كتاب ألفه في صناعة الشعر ومعرفة الميزان الذي به تقاس بلاغته... وقد تأثر كثيرًا بالجاحظ وكتاباته وبابن قتيبة؛ إذ نراه يتحدث عن الملاءمة بين الألفاظ والمعاني، وبين الكلام وأحوال المستمعين، وما ينبغي على الشاعر من إحكام العبارة وحسن النظم، وحسن التخلص من غرض إلى غرض، وينقل حديث ابن قتيبة عن اللفظ والمعنى، في مقدمة كتابه الشعر والشعراء، فيشير إلى تقسيم الشعر إلى ما حسن لفظه وجاد معناه، وما حسن لفظه دون معناه، أو معناه دون لفظه، وما تأخر لفظه ومعناه.

ومن أهم المباحث البلاغية التي عرض لها "مبحث التشبيه" فقد فصل فيه القول، وبخاصة في التشبيهات الحسية، وعرض لروائعه ورديئه، وتحدث عن طريقة العرب في التشبيه، فذكر أنهم ضمنوا أشعارهم من التشبيهات ما أدركه من ذلك عيانهم وحسهم إلى ما في طبائعهم وأنفسهم من محمود الأخلاق ومذمومها، وفصل القول في وجوه التشبيه وأقسامه، فأبرز أن الشيء قد يشبه بالشيء صورة وهيئة كما في قول امرئ القيس:

كـأنَّ عيـونَ الـوحشِ حَـوْلَ خِبائِنَـا　　　وأرحُلِنَـا الجـزعُ الـذي لمْ يُثَقَّـبِ

والجزع: خرز فيه بياض وسواد، وقد يشبه الشيء بالآخر لونًا وصورة كتشبيه الثغر بالأقحوان؛ إذ لونهما وصورتهما سواء، وقد يشبه الشيء بالشيء صورة ولونًا وحركة وهيئة كقولهم: الشمس كالمرآة في كف الأشل، وقد يشبه الشيء بالآخر حركة وهيئة، كقول الأعشى متغزلاً:

كَـأنَّ مِـشْيَتَها مـن بَيْـتِ جَارَتِهَـا　　　مـرُّ الـسَّحَابَةِ لاَ رَيْـثٌ ولا عَجَـلُ

وقد يشبه الشيء بالشيء معنى لا صورة، كتشبيه الجواد بالبحر والشجاع بالأسد، والماضي في الأمور بالسيف، وقد يشبه الشيء بالشيء حركة وبطئًا وسرعة، كقول امرئ [illegible] صف جواده:

مِكَــرٍّ مِفَــرٍّ مُقْبِــلٍ مُــدْبرٍ معًــا كَجُلْمُـودِ صَـخْرٍ حطَّـهُ السَّيْلُ مِنْ عَـلِ

وقد يشبه الشيء بالشيء لونًا، كتشبيه الخمر بدم الذبيح والليل بلون الغراب وقد يشبه الشيء بالشيء صوتًا، كتشبيه صوت النبل في الحروب بنواح الثكالى.

وبهذا يتضح لك اختلاف وجهة نظر ابن طباطبا إلى التشبيه، عن وجهة نظر الرماني فبينما اهتم الأخير بالتشبيه العقلي وسماه تشبيه البلاغة اهتم ابن طباطبا بالتشبيهات الحسية، وفصل فيها القول على نحو ما رأيت، وقد أشار إلى بعض أدوات التشبيه كالكاف وكأن ومثل وتراه وتخاله ويكاد، ونوه بالتشبيهات الغريبة البديعة، كقول مسلم بن الوليد:

وإنّي وإســماعيلَ يــومَ فِراقِــهِ لَكَالْغِمْـدِ يـومَ الـرَّوْعِ زايَلَـهُ النَّـصْلُ
فــإنْ أَغْــشَ قومًــا بَعْــدَهُ أو أَزُرْهُــمُ فكَالْوَحْشِ يُدْنِيهَا من الأَنَسِ الْمَحْلُ(١)

وتحدث عن التشبيهات المعيبة معللاً أسباب عيبها، فقد يكون العيب راجعًا لشدة الغلو فيها أو لنبو التشبيه عن الذوق أو لتشبيه كبير بصغير كتشبيه السهام بأعناق الظباء...

كما تحدث ابن طباطبا عن فنون بديعية كثيرة أشار إليها السابقون منها: رد الأعجاز على الصدور وما ينبغي على الشاعر من مراعاة تماسك المعاني، واتصال أول الكلام بما يليه، حتى لكأنه يستدعيه، ومنها الكناية، وقد سماها التعريض، وعن الغلو كما في قول أبي نواس.

وَأَخَفْــتَ أَهْــلَ الـشِّرْكِ حتَّـى إنَّــه لَتَخَافُــكَ النُّطَــفُ التـي لمْ تُخْلَــقِ

وتحدث عن السرقات الشعرية، فأشار إلى أن للشاعر أن يتناول المعاني الموروثة بشرط أن يتلطف في عرضها وأن يعمل الحيلة في تناولها فينقلها من غرض إلى غرض.

---

(١) يوم الروع: يوم الحرب. زايله: فارقه، المحل: الجدب.

ونبه الشعراء إلى ضرورة تخير الكلمات المعبرة الموحية والبعد عن الكلمات القلقة التي ينبو بها موضعها وتستكره فيه.

وتحدث عن براعة الاستهلال وحسن التخلص وما ينبغي على الشاعر من الملاءمة بين معاني الشعر ومبانيه، وأن يخلو في افتتاحياته مما يتشاءم به ويتطير وبخاصة في المديح.

وتحدث عن الوحدة العضوية فأشار إلى ضرورة أن تترابط أبيات القصيدة حتى تغدو بناء محكمًا متشاكلاً.

انظر إلى قوله: "أحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظامًا ينسق به أوله مع آخره على نحو ما ينسقه قائله، فإن قدم بيت على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نقص تأليفها، فإن الشعر إذا أسس تأسيس فصول الرسائل القائمة بأنفسها، وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها والأمثال باختصارها لم يحسن نظمه، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجًا وحسنًا وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معان وصواب تأليف، ويكون خروج الشاعر عن كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجًا لطيفًا على ما شرطناه في أول الكتاب حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغًا كالأشعار التي استشهدنا بها في الجودة والحسن واستواء النظم، لا تناقض في معانيها، ولا وهي في مبانيها ولا تكلف في نسجها تقتضي كل كلمة ما بعدها، ويكون ما بعدها متعلقًا بها مفتقرًا إليها"(١).

الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي "ت ٣٧١هـ"

مؤلف هذا الكتاب هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، له مؤلفات مختلفة في اللغة والشعر، وأهمها هذا الكتاب الذي نحن بصدد الحديث عنه "الموازنة" وقد ألفه ليوازن بين شعر الشاعرين الكبيرين: أبي تمام والبحتري -كما

(١) عيار الشعر ص ١٢٩.

أسلفنا- والذي يعنينا هنا ونحن نؤرخ للبلاغة، ما في الكتاب من أسس بلاغية قامت عليها تلك الموازنة، وأهمها ما يلي:

السرقات الشعرية: فقد تحدث عن سرقات الشاعرين: وذكر أن كثيرًا من المعاني عام فهو للشعراء جميعًا يشتركون فيه دون أن يقال إن أحدهما أخذ من الثاني، لأن حكمه فيه حكم صاحبه، فلا فضل لسابق على تال... أما الذي ينبغي أن يقال إنه مأخوذ أو مسروق فهو المعاني الخاصة والبديع الذي ليس للشعراء فيه اشتراك.

الاستعارة: وتحدث الآمدي عن الاستعارة فقال: "إنما استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يدانيه أو يشبهه في بعض أحواله أو كان سببًا من أسبابه، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه"(١).

ويعرض لطائفة من الاستعارات القبيحة عند أبي تمام كقوله:

يا دَهْرُ قَوِّمْ من أَخْدَعَيْكَ فقدْ ... أَضْجَجْتَ هذا الأنامَ من خُرُقِك

وقوله:

تروحُ علينَا كلَّ يومٍ وتَغْتَدِي ... خُطُوبٌ كأنَّ الدَّهرَ منهنَّ يُصرَعُ

وقوله في رثاء غلام:

أَنْزَلَتْهُ الأيامُ عن ظَهْرِهَا مِنْ ... بَعْدِ إِثْبَاتِ رِجْلِهِ في الرِّكَابِ

ويرجع الآمدي قبح هذه الاستعارات إلى بعد المشبه عن المشبه به وعدم وجود وجه شبه يجمع بينهما... ولنا أن ندافع عن أبي تمام فنقول: إن الاستعارة في الأبيات من قبيل الاستعارة المكنية التي تبنى -غالبًا- على التشخيص والتجسيد ونقل عناصر الطبيعة والمعنويات من عالمها إلى العالم المتحرك، بغض النظر عن التدقيق ومحاولة التماس وجه شبه، أو إدناء وتقريب المستعار له من المستعار منه(٢).

---

(١) الموازنة ص ١٢٤.

(٢) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٠.

الجناس والطباق: وتحدث عن الجناس والطباق مبرزًا أخطاء الشاعرين وإساءتهما في استخدام هذين اللونين، ومشيرًا إلى إفراط أبي تمام وإسرافه في استخدامهما... ويلوم قدامة في مخالفته لابن المعتز وتسميته الطباق باسم التكافؤ، والجناس التام باسم المطابق.

التعقيد اللفظي: وتحدث عن سوء نظم أبي تمام وتعقيد ألفاظه وما يجري في شعره من غريب، وأشار إلى أن قدامة قد أخطأ في فهم معنى المعاظلة؛ حيث أطلقها على فاحش الاستعارة، وإنما المراد بها سوء النظم وتداخل أجزاء الكلام وركوب بعضه بعضًا، أي: التعقيد اللفظي المخل بالفصاحة.

حسن الابتداء: كما تحدث عن حسن الابتداءات، فنوه كثيرًا بابتداءات البحتري، وأزرى بكثير من ابتداءات أبي تمام.

الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني «ت ٣٩٢هـ»

مؤلف هذا الكتاب -كما أشرنا- هو علي بن عبد العزيز الجرجاني "ت ٣٩٢هـ"، وكان يتولى القضاء للدولة البويهية في إيران، وقد أراد بهذا الكتاب أن يتوسط بين المتنبي وخصومه، وأن يحكم بينهما بالقسطاس المستقيم، وقد بدأ بالحديث عن أخطاء الشعراء قدماء ومحدثين في ألفاظهم ومعانيهم ثم أشار إلى أن أبا تمام يتفاوت شعره بين السهولة والإغراب اللفظي، بينما يمتاز البحتري بالسهل الممتنع والسمح المنقاد...

ومضى يتحدث عن البديع ووجوهه وصوره، فذكر أنها كانت تأتي قليلة وبدون تعمد ولا تكلف في أشعار الجاهليين والإسلاميين، فلما أفضى الشعر إلى المحدثين من العباسيين أكثروا منها إكثارًا... والذي يهمنا هو ما في الكتاب من فنون البديع ومسائل البلاغة... وأهم ما نجده:

التشبيه والاستعارة: تحدث الجرجاني عن التشبيه وأغراضه وعن الاستعارة ومعناها، والفرق بينها وبين التشبيه البليغ، فنراه يذكر بيت المتنبي:

بُليتُ بِلَى الأطلالِ إنْ لمْ أَقِفْ بِهَا ... وُقُوفَ شَحِيحٍ ضاعَ في التُّرْبِ خاتمُهُ

ثم يعلق عليه قائلاً: "إن التشبيه والتمثيل قد يقع تارة بالصورة والصفة وأخرى بالحال والطريقة، فإذا قال الشاعر وهو يريد إطالة وقوفه: إني أقف وقوف شحيح ضاع خاتمه، لم يرد التسوية بين الوقوفين في القدر والزمان والصورة، وإنما يريد: لأقفن وقوفًا زائدًا على القدر المعتاد خارجًا عن حد الاعتدال، كما أن وقوف الشحيح يزيد على ما يعرف في أمثاله، وعلى ما جرت به العادة في أضرابه، وإنما هو كقول الشاعر:

رُبَّ لَيْلٍ أَمَدَّ من نَفَسِ الْعَا ... شِقِ طُولاً قَطَعْتُهُ بانْتِحَابِ

ونحن نعلم أن نفس العاشق بالغًا ما بلغ لا يمتد امتداد أقصر أجزاء الليل، وأن الساعة الواحدة من ساعاته لا تنقضي إلا عن أنفاس لا تحصى، كائنة ما كانت في امتدادها وطولها، وإنما مراد الشاعر أن الليل زائد في الطول على مقادير الليالي، كزيادة نفس العاشق على الأنفاس[1].

وهذه ملاحظة دقيقة في تفهم مراد الشاعر وفقه الصورة التشبيهية، وما يكمن وراءها من دلالات وإيحاءات...

ويتحدث عن أغراض التشبيه فيقول: "للشعراء في التشبيه أغراض، فإذا شبهوا بالشمس في موضع الوصف بالحسن أرادوا به البهاء والرونق والضياء ونصوع اللون والتمام، وإذا ذكروه في الوصف بالنباهة والشهرة أرادوا به عموم مطلعها وانتشار شعاعها، واشتراك الخاص والعام في معرفتها وتعظيمها، وإذا قرنوه بالجلال والرفعة، أرادوا به أنوارها وارتفاع محلها، وإذا ذكروه في باب النفع والإرفاق، قصدوا به تأثيرها في النشوء والنماء والتحليل والتصفية، ولكل واحد من هذه الوجوه باب مفرد وطريق متميز، فقد يكون المشبه بالشمس في العلو والنباهة والنفع والجلالة أسود، وقد يكون منير الفعال كمد اللون واضح الأخلاق كاسف المنظر"[2].

---

(١) الوساطة ٤٧١.

(٢) الوساطة: ٤٧٤.

وتلك نظرة دقيقة في تحديد وجه الشبه، فقد يكون المشبه به واحدًا ويختلف وجه الشبه باختلاف الغرض من التشبيه، وقد أفاد البلاغيون من هذه النظرة في بيان وجه الشبه وتحديد أغراض التشبيه...

ويفرق بين الاستعارة والتشبيه البليغ فيقول: "وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعًا من الاستعارة عد فيها قول أبي نواس:

وَالْحُبُّ ظهرٌ أنتَ راكبُهُ فإذا صَرَفْتَ عِنَانَهُ انْصَرَفَا

ولست أدري هذا وما أشبهه استعارة، وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه، فهو إما ضرب مثل أو تشبيه شيء بشيء... وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها... وملاكها تقريب الشبه ومناسبة المستعار له للمستعار منه، وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر..."(١).

فهو هنا يفرق بين التشبيه البليغ والاستعارة ويشير إلى خطأ بعضهم في الخلط بينهما ويجعل الاستعارة مبنية على النقل كما صنع الجاحظ وابن المعتز والرماني قبله، ثم نراه متأثرًا بالآمدي يشير إلى ضرورة وجود الشبه والمناسبة والامتزاج وعدم التنافر بين المستعار له والمستعار منه...

وقد تأثر عبد القاهر بالقاضي وأفاد منه كثيرًا من مباحثه في الاستعارة والتشبيه؛ إذ نراه يستمد منه، ويصرح باسمه كثيرًا... انظر إلى قوله: "اعلم أن الوجه الذي يقتضيه القياس وعليه يدل كلام القاضي في الوساطة، ألا تطلق الاستعارة على نحو قولنا: زيد أسد وهند بدر، ولكن تقول هو تشبيه، فإذا قال قائل هو أسد لم تقل استعار له اسم الأسد، ولكن تقول: شبهه بالأسد"(٢).

---

(١) الوساطة: ٤١.

(٢) أسرار البلاغة ص ٢٩٨.

التجنيس: وينتقل القاضي إلى التجنيس فيقسمه أقسامًا ويطلق على كل قسم مصطلحًا وقد رأيت ابن المعتز يذكر شواهد مختلفة لأقسام الجناس، ولكنه لم يسمها كما سماها القاضي، وكأن القاضي قد استمد من تلك الشواهد، وأطلق عليها هذه المصطلحات التي تناقلها البلاغيون بعده.

فمن هذه الأقسام المطلق، وقد سماه بعض البلاغيين باسم: جناس الاشتقاق كما في قول أبي تمام:

تُطِلُّ الطُّلُولُ الدَّمْعَ في كلِّ مَوْقِفٍ ... وَتمْثُلُ بالصَّبْرِ الدِّيَارُ المواثِلُ

ومنه المستوفي وهو الجناس الكامل الذي أطلق عليه قدامة في كتابه: «نقد الشعر» المطابق، كقول أبي تمام:

ما ماتَ من كَرَمِ الزَّمَانِ فإنَّهُ ... يحيا لدى يحْيَى بْنِ عبدِ اللهِ

ومنه الناقص، كقول الأخنس بن شهاب:

وحامِي لواءٍ قدْ قتلْنا وحاملٍ ... لواءً مَنَعْنَا والسُّيُوفُ شوارعٌ

ومنه التجنيس المضاف كقول البحتري:

أَيَا قَمَرَ التِّمَامِ أَعَنْتَ ظُلْمًا ... عَلَيَّ تطَاوُلَ اللَّيْلِ التِّمَامِ

وذلك أن معنى التمام واحد في الموضعين، ولو انفرد لم يعد تجنيسًا، ولكن أحدهما صار موصولاً بالقمر والآخر بالليل، فكانا كالمختلفين.

ومنه التصحيف كقول البحتري في المعتز بالله وبعض الخارجين عليه.

ولمْ يكُنِ الْمُغْتَرُّ باللهِ إذْ سَرَى ... لِيُعْجِزَ والمُعْتَزُّ باللهِ طَالِبُهُ

فجانس بين "المغتر والمعتز" جناس تصحيف(١).

المطابقة: وتحدث القاضي عن المطابقة فأورد كثيرًا من شواهدها وذكر أن لها شعبًا خفية، وأشار إلى طباق السلب، كقول البحتري:

---

(١) انظر الوساطة ص ٤١، وما بعدها.

يُقَيِّضُ لي من حيثُ لا أعلمُ الهوَى وَيَسْرِي إليَّ الشوقُ من حيثُ أعلمُ

وقد أشار إلى ذلك الباقلاني -كما مر في الحديث عنه- في كتابه: إعجاز القرآن...

السرقات الشعرية: وتحدث عن السرقات الشعرية ففصل فيها القول وذكر أنها أنواع مختلفة، واضعًا لكل نوع منها اسمًا، وقد اقتدى به البلاغيون فتناقلوا هذه التسميات، يقول القاضي في ذلك: "هذا باب لا ينهض به إلا الناقد البصير والعالم المبرز وليس كل من تعرض له أدركه، ولا كل من أدركه استوفاه واستكمله، ولست تعد من جهابذة الكلام ونقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه، وتحيط علمًا برتبه ومنازله فتفصل بين السرق والغصب وبين الإغارة والاختلاس، وتعرف الإلمام من الملاحظة، وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز ادعاء السرق فيه والمبتذل الذي ليس أحد أولى به، وبين المختص الذي حازه المبتدئ فملكه، وأحياه السابق فاقتطعه، فصار المعتدي مختلسًا سارقًا والمشارك له محتذيًا تابعًا، وتعرف اللفظ الذي يجوز أن يقال فيه: أخذ ونقل، والكلمة التي يصح أن يقال فيها هي لفلان دون فلان"(١).

وأخذ القاضي يعرض الأمثلة للأقسام التي ذكرها من الغصب والإغارة والاختلاس والإلمام والملاحظة، ومن طريف ما وقف عنده تبادل المعاني والأغراض، وهو يدخل في الاختلاس، كما في قول جرير متغزلاً:

بَعَثْنَ الْهَوَى ثم ارْتمَيْنَ قُلُوبَنَا بأَسْهُمِ أَعْداءٍ وَهُنَّ صَدِيقُ

فقد نقله أبو نواس إلى ذم الدنيا والزهد فيها فقال:

إذا امتحنَ الدُّنَيا لَبيبٌ تكشَّفَتْ لهُ عن عَدُوٍّ في ثِيَابِ صَدِيقِ

ومن ذلك أيضًا ما يجيء به الشعراء على وجه القلب والنقض مما يدخل في الإلمام والملاحظة، كقول أبي الشيص.

أَجِدُ الملامةَ في هواكِ لذيذةً حُبًّا لِذِكْرِكِ فلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ

---

(١) الوساطة ١٨٣.

فقد نقضه المتنبي بقوله:

أأحِبُّهُ وأُحِبُّ فيهِ مَلامَةً إنَّ الملامَةَ فيهِ مِن أعدائِهِ

إلى غير ذلك من الفنون البلاغية التي عرض لها القاضي، كصحة الأقسام وبراعة الاستهلال وحسن التخلص والخاتمة، والمبالغة والغلو.

يقول في الغلو: "أما الإفراط فمذهب عام في المحدثين، وموجود كثيرًا في الأوائل، والناس فيه مختلفون فمستحسن قابل ومستقبح راد، وله رسوم متى وقف الشاعر عندها، ولم يتجاوز الوصف حدها جمع بين القصد والاستيفاء وسلم من النقص والاعتداء، فإذا تجاوزها اتسعت له الغاية؛ وأدته الحال إلى الإحالة وإنما الإحالة نتيجة الإفراط، وشعبة من الإغراق، والباب واحد ولكن له درج ومراتب..."(١).

كتاب الصناعتين للعسكري "ت ٣٩٥هـ"

هو أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري له مؤلفات كثيرة زادت على العشرين مؤلفًا، ما زال معظمها مخطوطًا، وأهم هذه المؤلفات: كتاب الصناعتين، ويريد بالصناعتين: صناعتي الكتابة والشعر، وليس هو أول من سمى الأدب: صناعة، بل سبقه إلى ذلك بشر بن المعتمر، -كما رأينا في صحيفته-، وقدامة الذي ذكر أن الشعر صناعة وكل صناعة لها طرفان: غاية في الجودة، وغاية في الرداءة وبينهما وسائط...

ويفتتح أبو هلال كتابه بمقدمة ينوه فيها بشأن البلاغة، وضرورة معرفتها والإلمام بمسائلها، ذاكرًا أهميتها بين العلوم الأخرى، فهي ضرورية لفهم إعجاز القرآن الكريم، وللتمييز بين جيد الكلام ورديئه، والوقوف على ما ينبغي استخدامه من أساليب اللغة الرفيعة وألفاظها الجيدة.

---

(١) الوساطة ٤٢٠.

ثم يخبر عن الغاية من تأليفه الكتاب فيقول: "فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل، ومكانه من الشرف والنبل، ووجدت إليه الحاجة ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة، وكان أكبرها وأشهرها كتاب "البيان والتبيين" لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو لعمري كثير الفوائد، جم المنافع لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة، وغير ذلك من فنونه المختارة ونعوته المستحسنة، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومنتشرة في أثنائه فهي ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير، فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملاً على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام نثره ونظمه، ويستعمل في محلوله ومعقوده من غير تقصير وإخلال، وإسهاب وإهذار..."(١).

ثم يذكر أنه لم يؤلفه على طريقة المتكلمين، وإنما ألفه على طريقة صناع الكلام من الشعراء والكتاب، وهو كذلك فقد مضى فيه على طريقة ابن المعتز يكثر من الأمثلة والشواهد من القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام الصحابة والعرب وأشعار المتقدمين والمحدثين، وقد احتوى الكتاب على عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلاً:

الباب الأول: للإبانة عن موضوع البلاغة ويتكون من ثلاثة فصول، وقد تحدث فيه عن البلاغة في أصل اللغة، وما جاء فيها من أقوال السابقين في ذكر حدودها وشرح وجودها، وما يجري معها من تصرف لفظها، وضرب لذلك الأمثلة والشواهد.

الباب الثاني: في معرفة الكلام وتمييز جيده من رديئه ومحموده من مذمومه وقد تكون من فصل واحد.

---

(١) الصناعتين ١٠، ١١.

الباب الثالث: في معرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ ويتكون من فصلين.

الباب الرابع: في الحديث عن حسن السبك وجودة الرصف ويتكون من فصل واحد.

الباب الخامس: في ذكر الإيجاز والإطناب ويتكون من فصلين، وقد جعل بينهما المساواة، فالكلام عنده إيجاز أو إطناب أو مساواة.

الباب السادس: في السرقات ويتكون من فصلين تحدث فيهما عن حسن الأخذ وقبحه وعن جودته ورداءته.

الباب السابع: في التشبيه ويتكون من فصلين.

الباب الثامن: في ذكر السجع والازدواج وهو فصلان.

الباب التاسع: في شرح البديع والإبانة عن وجوهه وحصر أبوابه وفنونه ويتكون من خمسة وثلاثين فصلاً.

الباب العاشر: في ذكر مقاطع الكلام ومباديه والقول في الإساءة في ذلك والإحسان فيه، ويتكون من ثلاثة فصول.

وقد تأثر أبو هلال في تناوله لهذه الأبواب بمن سبقه من العلماء واستمد كثيرًا من أقوالهم، تأثر بالجاحظ في حديثه عن حسن السبك وجودة النظم وتمييز جيد الكلام من رديئه، وتأثر بالرماني في حديثه عن التشبيه ونقل أقواله فيه وكذا بابن طباطبا، كما تأثر بالرماني في حديثه عن السجع والازدواج وأدخل فيهما فواصل القرآن الكريم مخالفًا له، وكذا في حديثه عن الإيجاز وتقسيمه إلى إيجاز قصر وإيجاز حذف، واقتدى بقدامة في القول بالمساواة وبابن المقفع في ذكر الإطناب، وكذا بالجاحظ، وتأثر بالآمدي والقاضي في حديثه عن السرقات الشعرية وحسن الأخذ وقبحه، وكان شديد التأثر بأستاذه وخاله "أبي أحمد العسكري" وعندما ينقل عنه تراه يقول: "أخبرني" ونحو ذلك مما يدل على السماع والمشافهة وقد كانوا يقدمون السماع على النقل من الكتب.

هذا ونلاحظ أن الأبواب من الخامس إلى الثامن، وكذا الباب العاشر يمكن

إدماجها في الباب التاسع الذي تحدث فيه عن فنون البديع، لأنه يتناول فيها فنونًا بديعية، الإيجاز والإطناب والسرقات، والتشبيه والسجع والازدواج وحسن الابتداء وحسن التخلص، وكلها تدخل أي: يمكن تناولها في الباب التاسع الذي خصصه لفنون البديع...

وعندما ننظر في فنون البديع التي ذكرها في الباب التاسع نجدها خمسة وثلاثين، يذكر أبو هلال أنه زاد فيها على ما أورده سابقوه ستة فنون، فهو يلتقي معهم في تسعة وعشرين فنًا نقلها عن سابقيه وعن خاله: أبي أحمد العسكري، وهذه الفنون هي: الاستعارة- التطبيق- التجنيس- المقابلة- صحة التقسيم- صحة التفسير- الإشارة- الإرداف والتوابع- المماثلة- الغلو- المبالغة- الكناية- والتعريض- العكس- التذييل- الترصيع- الإيغال- التوشيح- رد الأعجاز على الصدور- التتميم والتكميل والالتفات- الاعتراض- الرجوع- تجاهل العارف- الاستطراد ويعرفه بقوله: "هو أن يأخذ المتكلم في معنى فبينما يمر فيه يأخذ في معنى آخر، وقد جعل الأول سببًا إليه"(١)، وقد سماه ابن المعتز "الخروج"، ومما أنشد له أبو هلال قول حسان بن ثابت:

إنْ كنتِ كَاذِبَةَ الذي حَدَّثْتِني   فنجوتِ منجَى الحَارِثِ بْنِ هِشَامِ
تركَ الأحِبَّةَ أنْ يُقَاتِلَ دُونَهُمْ   ونجَا بِرَأسِ طِمِرَّةٍ وَلِجَام

جمع المؤتلف والمختلف ويعرفه بقوله: "هو أن يجمع في كلام قصير أشياء كثيرة مختلفة أو مؤتلفة كقوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ﴾ [النحل: ٩٠]، وساق شواهد كثيرة ترجع جميعها إلى ما سمي فيما بعد بمراعاة النظير(٢).

---

(١) الصناعتين ٤١٤.

(٢) انظر الصناعتين: ٤١٧.

والسلب والإيجاب -الاستثناء: وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم -المذهب الكلامي- التعطف وهو نوع من الجناس وقد عرفه بقوله: "أن تذكر اللفظ ثم تكرره والمعنى مختلف"(١).

أما الفنون الستة التي ذكر أنه زادها على ما ذكره السابقون فهي:

١-التشطير: ويريد به أن يستغني كل مصراع عن صاحبه في معناه؛ إذ يعرفه بقوله: "وهو أن يتوازن المصراعان والجزءان وتتعادل أقسامهما مع قيام كل واحد منهما بنفسه واستغنائه عن صاحبه" فمثاله من النثر قول بعضهم: "من عتب على الزمان طالت معتبته، ومن رضي عن الزمان طابت معيشته" ومن الشعر قول الشاعر:

فأَمَّا الذي يُحْصِيهِمُ فمُكَثِّرُ ... وأمَّا الذي يُطْرِيهِمُ فمُقَلِّلُ

وقول زهير:

ومَنْ يغْتَرِبْ يَحْسَبْ عدوًّا صديقَهُ ... ومَنْ لا يُكَرِّمْ نفسَهُ لا يُكَرَّمِ

وليس هذا اللون من اختراع أبي هلال -كما ذكر- بل سبقه إليه ثعلب في كتابه: "قواعد الشعر" وسماه "بالمعدل" حيث قال: "أبلغ الشعر ما اعتدل شطراه وتكافأت حاشيتاه" كقول الشاعر:

اللهُ أنجحُ ما طلبتُ بهِ ... وَالْبِرُّ خَيْرُ حَقِيقَةِ الرَّجُلِ(٢)

والذي أضافه أبو هلال أنه غير تسميته من "المعدل" إلى "التشطير".

٢-المجاورة: ويعرفها بقوله: "تردد لفظتين في البيت ووقوع كل واحدة منهما بجنب الأخرى أو قريبًا منها من غير أن تكون إحداهما لغوًا لا يحتاج إليها".

كقول علقمة:

وُمطْعَمُ الْغُنْمِ يومَ الغُنْمِ مُطْعَمُهُ ... أَنَّى توجَّهَ والمحرومُ محرومُ

(١) الصناعتين ٤٢٨.

(٢) قواعد الشعر: ٦٣.

فقوله: "الغنم يوم الغنم" مجاورة، وكذا: "المحروم محروم"، ومنه قولهم: "إنما يغفر العظيم العظيم" وقد سمي هذا اللون فيما بعد باسم الترديد، وأراه قريبًا من الجناس التام، أو ما سماه أبو هلال باسم: "التعطف"، نقلاً عن خاله: أبي أحمد العسكري.

٣-الاستشهاد والاحتجاج: ويعرفه بقوله: "أن تأتي بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول والحجة على صحته".

كقول بشار:

وَلاَ تجْعَلِ الشُّورَى عليكَ غضاضَةً ... فإنَّ الخوافِيَ قوةٌ للقوادِمِ

ويرجع هذا اللون إلى ما عرف عند الجاحظ وابن المعتز بالمذهب الكلامي.

٤-المضاعفة: وهي أن يتضمن الكلام معنيين، معنى مصرح به، ومعنى كالمشار إليه.

ومثاله قول الأخطل:

قومٌ إذا اسْتَنْبَحَ الأَضْيَافُ كَلْبَهُمُ ... قَالُوا لأُمِّهِمُ بُولِي على النَّار

فقد دل بإطفاء نارهم القليلة على بخلهم.

ومنه قول المتنبي:

نَهَبْتَ مِنَ الأَعْمَارِ ما لو حَوَيْتَهُ ... لَهُنِّئَتِ الدُّنْيَا بأَنَّكَ خَالِدُ

وبعض شواهد هذا الفن ترجع إلى الكناية كالبيت الأول، والبعض الآخر استشهد به المتأخرون لما عرف عندهم باسم الاستتباع كبيت المتنبي.

٥-التطريز: وهو أن يقع في أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن، فتكون فيها كالطراز في الثوب.

ومنه قول أحمد بن أبي طاهر:

إذَا أبو قَاسمٍ جادَتْ لنَا يَدُهُ ... لمْ يحْمَدِ الأجودَانِ: البحرُ والمطرُ

وإنْ أضاءَتْ لنَا أنوارُ غُرَّتِهِ ... تضاءَلَ الأنورَانِ: الشمسُ والقمرُ

وإنْ مضَى رَأْيُهُ أوْ حَدَّ عَزْمَتَهُ ... تَأَخَّرَ الماضيانِ: السيفُ والقدرُ

مَـنْ لمَ يكُـنْ حَـذِرًا مـن حـدِّ صَـوْلَتِهِ   لمْ يَدْرِ ما المزعِجَانِ: الخوفُ والحذرُ

٦-التلطف: وهو أن تتلطف للمعنى الحسن حتى تهجنه والمعنى الهجين حتى تحسنه، فمن ذلك أن يحيى بن خالد البرمكي قال لعبد الملك بن صالح: "أنت حقود" فقال: إن كان الحقد عندك بقاء الخير والشر فإنهما عندي لباقيان"، فقال يحيى: ما رأيت أحدًا غيرك احتج للحقد حتى حسنه.

ثم يقول أبو هلال: وقد عرض لي بعد نظم هذه الأنواع نوع آخر لم يذكره أحد وسميته: المشتق وهو أن يشتق لفظ من لفظ أو معنى من لفظ، لتحسين شيء، أو تقبيحه، كما في قول أحد الشعراء في العالم اللغوي المشهور: "نفطويه":

لـوْ أُوحِـيَ النَّحْـوُ إلى نِفْطَوَيْـهِ   مـا كَـانَ هـذا النحـوُ يُقـرَا عَلَيْـهِ
أَحْرَقَـهُ اللهُ بنـصفِ اسـمِهِ   وصـيَّرَ البـاقِي صُراخًـا عَلَيْـهِ

تلك هي الألوان التي عرض لها العسكري في الصناعتين، وقد وضح لك مدى تأثره بمن سبقه، وأنه قد أكثر من الاستشهاد لهذه الفنون التي جمعها واستقصاها، كما عني بشرحها وتحليلها، فجاء كتابه كما صرح، على طريقة صناع الكلام من الشعراء والكتاب.

كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق "ت ٤٦٣هـ"

مؤلف هذا الكتاب هو الحسن بن رشيق القيرواني، أحد بلغاء القيروان وشعرائها، ولد سنة ٣٩٠هـ، واختلفت الروايات في سنة وفاته، فقيل: توفي سنة ٤٥٦هـ، وقيل: سنة ٤٦٤هـ، وأرجح الروايات أنه توفي سنة ٤٦٣هـ.

ويحدثنا ابن رشيق عن سبب تأليفه لهذا الكتاب، والغاية منه فيقول: " قد وجدت الشعر أكبر علوم العرب، وأوفر حظوظ الأدب، وأحرى أن تقبل شهادته، وتمتثل إرادته، ووجدت الناس مختلفين فيه، متخلفين عن كثير منه، يقدمون ويؤخرون، ويقلون ويكثرون، قد بوبوه أبوابًا مبهمة، ولقبوه ألقابًا متهمة، وكل واحد منهم قد ضرب في جهة، وانتحل مذهبًا هو فيه إمام نفسه، وشاهد دعواه،

فجمعت أحسن ما قاله كل واحد منهم في كتاب، ليكون العمدة في محاسن الشعر وآدابه، إن شاء الله تعالى"[١].

ويقع الكتاب في جزءين يتضمنان ستة ومائة باب تناولت في مقدماتها محاسن الشعر من: بيان فضله، والرد على من يكرهه وشعر الخلفاء والقضاة والفقهاء، ومن رفعه الشعر ومن وضعه، ومن قضى له الشعر ومن قضى عليه، وفأل الشعر وطيرته ومنافعه ومضاره، والتكسب بالشعر والأنفة منه.

وبعد هذه المقدمات تحدث عن حد الشعر وعناصره مفيدًا في ذلك مما كتبه قدامة والسابقون، ثم فتح فصلاً للحديث عن اللفظ والمعنى، فذكر أنهما متلازمان؛ إذ اللفظ جسم روحه المعنى، فما يوصف به أحدهما يعد وصفًا للآخر، فإذا وصف اللفظ بالغرابة أو بالابتذال، كان ذلك وصفًا للمعنى الجاثم وراءه، وكذلك الشأن في المعنى إن وصف بالوضوح أو الغموض، كان ذلك وصفًا للفظ الذي يعرضه ويجلوه، فليس اللفظ والمعنى شيئين منفصلين كالكوب وما يكون فيه من شراب، بل هما مترابطان ترابط الثوب بمادته.

وهذه النظرة تختلف عن نظرة ابن قتيبة والتي تبعه فيها ابن طباطبا؛ حيث قسما الشعر إلى ما حسن لفظه ومعناه، وما ساء لفظه ومعناه، وما حسن لفظه دون معناه، وما حسن معناه دون لفظه.

ثم يذكر القيرواني أن للشعراء ألفاظًا معروفة وأمثلة مألوفة لا ينبغي للشاعر أن يعدوها ولا أن يستعمل غيرها، كما أن الكتاب اصطلحوا على ألفاظ بأعيانها سموها الكتابية لا يتجاوزونها إلى سواها.

ولعله يقصد بذلك ما أشار إليه الجاحظ من أن لكل أديب شاعرًا كان أو ناثرًا معجمه اللغوي الخاص الذي يردده في كلامه ويتميز به أسلوبه.

إلى غير ذلك مما تناوله الكتاب من حديث عن أوزان الشعر وقوافيه وأغراضه، وهي المطبوع من الشعر والمصنوع فيه، وعن البديهة والارتجال.

---

(١) العمدة جـ ١ ص ١٦.

والذي يعنينا هو حديثه عن البديع وفنونه، وأول ما نلاحظه أن القيرواني قد فصل بعض فنون البديع، وتحدث عنها في أبواب مستقلة، كما فعل أبو هلال، فتراه يفرد بابا للحديث عن المبادئ والمخارج والنهايات، وبابًا آخر للحديث عن الإيجاز. كما تلاحظ أنه أطلق كلمة: "الحلي" على ألوان البديع؛ إذ يقول في باب الاستعارة: "الاستعارة أفضل المجاز وأول أبواب البديع، وليس في حلي الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها، ونزلت موضعها"[(١)].

ويقول في أثناء حديثه عن المثل السائر: "وهذه الأشياء في الشعر إنما هي نبذ تستحسن، ونكت تستظرف مع القلة وفي الندرة فأما إذا كثرت فهي دالة على الكلفة... ولا ينبغي للشعر أن يكون أيضًا خاليًا مغسولاً من هذه الحلي فارغًا"[(٢)]، تراه هنا يطلق كلمة: "حلي" على فنون البديع، كما تراه ينبه إلى أن الإكثار من تلك الفنون يدل على التكلف الذي لا يرغب فيه أحد، فهي إنما تستحسن مع القلة وفي الندرة، وعندما تأتي عفوًا بلا تكلف.

وليس القيرواني أول من أطلق لفظ "الحلي" على فنون البديع، بل سبقه إلى ذلك القاضي صاحب الوساطة؛ حيث يقول: "وقد تمنع بعض الأدباء من تسمية بعض ما ذكرناه بديعًا، ولكنه أحد أبواب الصنعة ومعدود في حلي الشعر"[(٣)].

ومن قبلهما أطلق ابن المعتز على بعض هذه الفنون: "محاسن الكلام" ولعل هذا ما أغرى المتأخرين من البلاغيين أن يجعلوا فنون البديع محسنات تأتي بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ووضوح الدلالة، ولكن هؤلاء الأعلام: القاضي والقيرواني وابن المعتز، لم يقصدوا إلى ما فهمه المتأخرون، بل الحلية عندهم أمر ذاتي، وليست ترفًا يمكن الاستغناء عنه، فهي حلية يقتضيها المقام، ويتم الغرض من الأسلوب إن وجدت، وينعدم إن لم توجد[(٤)].

---

(١) العمدة ١/ ٢٨٦.

(٢) العمدة: ١/ ٢٨٥.

(٣) الصناعتين ٤٣٨.

(٤) الصناعتين ٤٣٨.

وابن رشيق لم يقف أمام الفنون البديعية التي ورثها عن سابقيه مكتوف اليدين جامدًا، بل فكر ووضح وغير وبدل وضم وفرق وهذب ونقح، تجده قد ضم الشبيه إلى شبيهه، كعده الترصيع في التقسيم، وعده الكناية واللغز وما شاكلهما من أقسام الإشارة وفرق بين الألوان المتقاربة، كتفريقه بين الاستطراد والالتفاف، والتتميم والإيغال، وقد امتاز تناوله لذلك بحسن اختيار الشواهد، وإيضاحها وتحليلها تحليلاً دقيقًا... وإليك أهم الألوان البديعية التي حواها العمدة.

عقد ابن رشيق بابًا للتفرقة بين المخترع والبديع، فذكر أن المخترع من الشعر هو ما لم يسبق إليه قائله، ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره، أو ما يقرب منه، كقول امرئ القيس:

سَمَوْتُ إليهَا بعدَ ما نامَ أهلُهَا سُمُوَّ حُبَابِ الماءِ حالاً على حال

فإنه أول من طرق هذا المعنى وابتكره، فلم ينازعه فيه أحد وله اختراعات كثيرة، والفرق بين الاختراع والإبداع، وإن كان معناهما في العربية واحدًا، أن الاختراع خلق المعاني التي لم يسبق إليها، والإتيان بما لم يكن منها قط، والإبداع: إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف الذي لم تجر العادة بمثله، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع: وإن كثر وتكرر، فصار الاختراع للمعنى والإبداع للفظ، فإذا تم للشاعر أن يأتي بمعنى مخترع في لفظ بديع فقد استولى على الأمد وحاز قصب السبق.

ثم يذكر أن البديع ضروب كثيرة وأنواع مختلفة، وأن عبد الله بن المعتز هو أول من جمع البديع وألف فيه كتابًا، ولعله يقصد بالتأليف: التأليف على طريقة منهجية واضحة، وإلا فهناك كتب عديدة قبل كتاب البديع -كما رأيت- تناولت فنون البديع... وبعد ذلك يأخذ في بيان فنون البديع؛ حيث يبدؤها بالمجاز فينبه على كثرته في كلام العرب، وينقل كلام ابن قتيبة في الرد على من ذهب إلى أن المجاز كذب، ثم يؤكد أن المجاز أبلغ من الحقيقة، ويحدد مفهومه عند البلاغيين:

وهو أن يسمى الشيء باسم ما قاربه أو كان منه بسبب، وينشد من أمثلته قول الشاعر:

إذا سقطَ السَّماءُ بأرضِ قومٍ رَعَيْنَاهُ وإنْ كانُوا غِضَابَا

وقوله عز وجل: ﴿ واسئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾، وقولهم: عين ساهرة، وبهذا يتضح لك أن القيرواني لم يفرق بين أنواع المجاز فهو يطلقه على المجاز المرسل والمجاز العقلي، ومجاز الحذف والاستعارة كما يدخل فيه بعض أمثلة التشبيه والكناية.

ويعقد فصلاً للاستعارة، فيبين أنها أفضل أنواع المجاز وأول أبواب البديع، وليس من حلي الشعر أعجب منها إذا وقعت موقعها، ويعرض شواهد عديدة لصور من الاستعارة التصريحية والمكنية دون أن يفرق بينهما...

من ذلك قول لبيد:

وَغَدَاةِ ريحٍ قدْ كَفَفْتُ وقِرَّةٍ إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشِّمَالِ زِمَامُهَا

وقول ذي الرمة:

أقامَتْ به حتى ذوَى العودُ والْتَوَى وساقَ الثُّرَيَّا في مَلاءتِهِ الْفَجْرُ

ثم ذكر أن جلة العلماء يستحسنون الاستعارة القريبة ويستهجنون الاستعارة البعيدة، واختار هو من الاستعارات أوساطها ألا تكون بعيدة جدًا ولا قريبة جدًا، ثم يسوق أمثلة للاستعارة الحسنة والأخرى القبيحة، وهكذا يستمر ابن رشيق في عرض فنون البديع؛ فيتحدث عن التمثيل ويجعله من ضروب الاستعارة، وعن المثل السائر فيشير إلى كثرته في كلام العرب شعرًا ونثرًا، وعن التشبيه، فيعرفه ويبين أنه هو والاستعارة يخرجان الأغمض إلى الأوضح، ويقربان البعيد، ويعرض لما قاله الرماني وقدامة وغيرهما، وقد أفاض في عرض الشواهد والأمثلة وتحليلها، ويشير إلى طائفة من التشبيهات البعيدة فيسميها بالتشبيهات العقم، ويتحدث عن الإشارة فيدخل فيها الإيماء واللغز والرمز والتعريض والكناية والتلويح واللحن، وعن التجنيس فيذكر أقسامه عند القاضي الجرجاني، مضيفًا إليها أقسامًا جديدة

وعن المطابقة والمقابلة والتقسيم والالتفات والاستطراد والاستثناء والمبالغة والغلو، إلى غير ذلك مما عرضه من فنون جمعها من كتب السابقين، كما كانت له إضافات أهمها:

الاطراد: وهو أن تطرد الأسماء من غير كلفة ولا حشو فارغ، فإنها إذا اطردت دلت على قوة طبع الشاعر كقول الأعشى:

أَقَيْسَ بْنَ مَسْعُودِ بْنِ قَيْسِ بْنِ خالدٍ وأنتَ امرؤٌ ترجُو شبابَك وائِلُ

ونفي الشيء بإيجابه: كقول زهير:

بأرضٍ خلاءٍ لا يُسدُّ وصيدُها عليَّ ومعروفِي بهَا غيرُ مُنْكَرِ (١)

فأثبت لها في اللفظ وصيدا، وإنما أراد: ليس لها وصيد فيسد علي... ومثله قولهم: "سرت على طريق لا يهتدى بمناره" يريدون: لا منار ولا اهتداء.

والاتساع: وهو أن يكون في البيت من الامتداد في معناه ما يجعله يؤول تأويلات مختلفة، فكلما تأمل فيه ناقد أو شارح استنبط منه معنًى جديدًا.

والتتبع: وهو أن يريد الشاعر ذكر الشيء فيتجاوزه، ويذكر ما يتبعه في الصفة وينوب عنه في الدلالة، وقد ساق له أمثلة ترجع جميعها إلى الكناية.

والاشتراك والتغاير: وهما ضربان من ضروب السرقات المستحسنة، وعلى هذا النحو درس ابن رشيق الصور البديعية في كتابه العمدة، ولا ترجع أهمية الكتاب إلى ما أضافه من فنون بديعية فحسب، بل إلى أن مؤلفه قد استوفى قراءة أكثر ما سبق من مصنفات، ونص في مواضع كثيرة على المصنفات التي استمد منها، وقارن بين الآراء المختلفة، وأشار إلى الاختلاف في ألقاب بعض المصطلحات، وأكثر من عرض الشواهد وتحليلها وإيضاحها.

---

(١) الوصيد: الفناء. قال تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف:١٨].

كتاب "سر الفصاحة" لابن سنان "ت ٤٦٦هـ"

مؤلف هذا الكتاب هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي وكان معاصرًا لابن رشيق القيرواني، وعلى الرغم من تلك المعاصرة فإنك تجد تباينا بينهما في عرض المسائل وطريقة الدراسة، ولم يشر أحدهما إلى الآخر في مؤلفه، وربما رجع ذلك إلى بعد الشقة بينهما، فهذا في المشرق وذلك في المغرب، وكان ابن سنان شاعرًا ومتأدبًا تتلمذ على أبي العلاء المعري، وكثيرًا ما كان ينقل من شعره ويدعوه شيخه، كما تتلمذ على غيره من العلماء والشعراء.

وقد استعان في كتابه "سر الفصاحة" بمؤلفات كثيرة أبرزها نقد الشعر لقدامة، والموازنة للآمدي، والوساطة للجرجاني والنكت للرماني، والبيان والتبيين للجاحظ والبديع لابن المعتز، وغير ذلك، وكثيرًا ما يصرح بأسماء هذه المؤلفات عندما يأخذ منها؛ وكان معتدًا بنفسه واسع الاطلاع، امتاز بحرية الرأي والمناقشة والبعد عن التقليد... وقد وُلِّيَ ابن سنان الخفاجي قلعة "عزاز" من أعمال حلب وتوفي بها سنة ٤٦٦هـ، وترك ديوان شعر، وهذا الكتاب "سر الفصاحة" الذي نحن بصدد الحديث عنه.

ما الغاية من تأليف الكتاب؟

قصد ابن سنان من تأليفه هذا الكتاب إلى توضيح حقيقة الفصاحة والكشف عن سرها، ولذا يقول في مقدمته: "أما بعد فإني لما رأيت الناس مختلفين في ماهية الفصاحة وحقيقتها، أودعت كتابي هذا طرفًا من شأنها، وجملة من بيانها، وقربت ذلك على الناظر، وأوضحته للمتأمل، ولم أمل بالاختصار إلى الإخلال ولا مع الإسهاب إلى الإملال[(١)]...

فهو يرمي إلى تجلية الفصاحة والكشف عن أسرارها، ومن هنا تدرك مدى الصلة بينه وبين المعتزلة، فهو أولاً يتجه إلى تفسير الفصاحة وما يطوى فيها من

---

(١) سر الفصاحة: ١٣.

فنون بديعية، وقد مر بك أن أبا هاشم الجبائي وأضرابه من المعتزلة، يردون إلى الفصاحة وجوه التفاضل في القول، ويرجعون إليها المزية، وهو ثانيًا ممن يقولون بالصرفة، وقد صرح بذلك في أكثر من موضع، انظر إلى قوله: "وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن هو صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك"(١)، وقوله: "الصحيح أن وجه الإعجاز في القرآن هو صرف العرب عن معارضته، وأن فصاحته قد كانت في مقدورهم لولا الصرف، وهذا هو المذهب الذي يعول عليه أهل هذه الصناعة وأرباب هذا العلم وقد سطر عليه من الأدلة ما ليس هذا موضع ذكره"(٢).

وقد مضى يتحدث عن الفصاحة، فذكر نبذًا من أحكام الأصوات ومخارج الحروف وتأليفها، وكيف نشأت اللغة، أتوقيف هي أم تواضع؟ وبين أن في كلام العرب مهملاً ومستعملاً، وقد أفاض في كل ذلك مما جعله هدفًا لنقد النقاد كابن الأثير وغيره.

ثم تحدث بعد ذلك عن فصاحة الكلمة المفردة، فبدأ ببيان الفرق بين الفصاحة والبلاغة جاعلاً الفصاحة خاصة بالألفاظ والبلاغة عامة في الألفاظ والمعاني، فكل بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغًا، وقد شاع ذلك عند المتأخرين، ويعرف البلاغة تعريفات متعددة، استمدها من أقوال السابقين وبخاصة من البيان والتبيين للجاحظ... ثم يرجع فصاحة الكلمة إلى ثمانية أمور:

١ - أن تؤلف من حروف متباعدة المخارج حتى لا تثقل على اللسان.

٢ - أن تحسن في السمع ويكون لها مزية على غيرها.

٣ - أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية.

٤ - أن تكون غير ساقطة عامية.

---

(١) سر الفصاحة ٩٣.

(٢) سر الفصاحة ٢١٤.

٥- أن تكون جارية على العرف العربي الصحيح في التصريف والاستعمال.

٦- ألا تكون قد هجر معناها اللغوي القديم، وأصبحت تدل على شيء آخر يكره ذكره ككلمة "الدلو" في قول أبي تمام:

متفجــــرٌ نادمتُــــهُ فكــــأنَّني لِلـــدَّلْوِ أو لِلْمِــرْزَمَينِ نــديمُ[1]

٧- أن تكون معتدلة غير كثيرة الحروف، ككلمة "مغناطيسهن" في قول ابن نباتة:

فإيــاكُمُ أنْ تَكْــشِفُوا عــن رُءُوسِــكُم ألاَ إنّ مَغْنَاطِيــسَهُنَّ الــذَّوَائِبُ

٨- أن تكون مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو ما يجري مجرى ذلك.

وهذه الشروط قد استقاها من كلام السابقين وبخاصة الجاحظ الذي تحدث عن التنافر ورجعه إلى شدة قرب المخارج أو شدة بعضها وشبهه بمشي المقيد والطفر، وقد أفاد متأخرو البلاغيين من هذه الأمور ووضعوها شروطًا ينبغي توفرها حتى تكون الكلمة فصيحة...

وينتقل الخفاجي من فصاحة الكلمة إلى فصاحة الكلام، فيذكر أنه لابد لفصاحته من فصاحة مفرداته، ثم يناقش الرماني في تقسيمه الكلام إلى متنافر ومتلائم في الطبقة الوسطى ومتلائم في الطبقة العليا، فيذكر أن هذا فاسد وأن الصواب جعل الكلام قسمين اثنين: متنافر ومتلائم، ويكرر هنا قوله بالصرفة فيذكر أن في كلام العرب متلائمًا كالقرآن وأن الإعجاز الحقيقي يرجع إلى صرف الله عز وجل لهم عن معارضته، ثم يذكر لفصاحة الكلام بالإضافة لتوفر فصاحة مفرداته الأمور الآتية:

١- أن يتجنب في نظمه تكرار الكلمات ذات الحروف المتقاربة.

---

(١) فالدلو في البيت المراد به أحد الأبراج ولا يختار لموافقته اسم الدلو المعروف... والمرزمان: نجمان من نجوم المطر.

كما في قول المتنبي.

وَلا الضِّعْفُ حتَّى يَتْبَعَ الضِّعْفُ ضِعْفَهُ   ولا ضِعْفُ ضِعْفِ الضِّعْفِ بَلْ مِثْلُهُ أَلْفُ

٢- أن يكون التأليف جاريًا على قواعد النحو، لأنه لا يرتضي اختيار الكلام العربي والشهادة بحسنه، وهو يخالف ما نطقت به العرب وتواضعت عليه.

٣- ألا يتكرر التصغير والنداء والعطف والتوكيد ونحو ذلك من الظواهر الأسلوبية، لأن الإسهاب في إيرادها معدود في جملة التكرار المعيب، فينبغي التوسط فيها، فإن لكل شيء حدًا ومقدارًا لا يحسن تجاوزه ولا يحمد تعديه.

٤- ألا يكون في الكلام تقديم وتأخير يؤدي إلى اللبس وفساد المعنى، ولا يخفى عليك مدى إفادة متأخري البلاغيين من حديث الخفاجي في وضع الشروط التي ينبغي توافرها لفصاحة الكلام.

ويمضي ابن سنان في الحديث عن تأليف الكلام أو نظمه فيتحدث عما يختص بالتأليف من الأصول والمقومات، وعن المناسبة بين الألفاظ إما من طريقة الصنعة وإما عن طريق المعنى. ثم يتحدث عن المعاني المفردة، وينتقل منها إلى آراء النقاد في الشعر وفي القدماء والمحدثين، ويعرض في أثناء ذلك لمسائل بلاغية أهمها ما يلي:

١- **حسن الاستعارة**: فصل القول في الاستعارة ونقل عن الرماني وناقش الآمدي وصاحب الوساطة والصولي في تحليلاتهم لكثير من الاستعارات، وبين أن الحقيقة أصل وأن الاستعارة فرع عنها، وفرق بين الاستعارة والتشبيه، وتحدث عن قرب الاستعارة وبعدها، وعن أسباب البعد، وقد ساق أمثلة وشواهد كثيرة تكشف عن وجوه الحسن في الاستعارة، ثم ساق أمثلة أخرى تكشف عن رديئها المسترذل متأثرًا في ذلك بما صنعه ابن المعتز وقدامة والعسكري وابن رشيق وغيرهم.

٢- **الحشو**: ذكر أن من وضع الألفاظ موضعها ألا تقع الكلمة حشوًا، ثم حدد مفهومه، ونوعه إلى مفيد وغير مفيد، وأدخل في المفيد: الإيغال والتتميم والاعتراض، ووشح ذلك بالأمثلة والشواهد، وقد استفاد البلاغيون المتأخرون من تنويعه الحشو إلى مفيد وغير مفيد، فجعلوا الحشو قسمين: حشوًا يفسد المعنى وحشوا لا يفسد.

٣- **المعاظلة**: يذكر أن من الوضع الصحيح للألفاظ ألا يكون بها معاظلة وهي تراكب الكلام وتداخل بعضه في بعض، ثم يشير إلى خطأ قدامة في فهم معناها، وتبيين الآمدي لخطئه وفي أثناء ذلك يعرض لما عرف باسم التوشيح أو التسهيم[١].

٤- **حسن الكناية**: جعلها من وضع الألفاظ موضعها فقال: "ومن هذا الجنس حسن الكناية عما يجب أن يكنى عنه في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح، وذلك أصل من أصول الفصاحة، وشرط من شروط البلاغة"[٢]، وقد ساق لها الأمثلة والشواهد العديدة.

وهكذا يستمر الخفاجي في عرض مسائل البلاغة فيتحدث عن السجع والازدواج والترصيع والجناس والطباق والإيجاز وحذف فضول الكلام والتمثيل وصحة التقسيم وحسن التشبيه، وصحة المقابلة وحسن التخلص والمبالغة في المعنى والغلو وصحة التفسير، والاستدلال بالتعليل ورد الأعجاز على الصدور وعما عرف باسم اللف والنشر، وقد سماه: "الترتيب" وعن اللغز في الكلام والإرداف والتتبيع، وفي كل ذلك يشرح ويحلل ويناقش السابقين ويعرض إلى خلافاتهم في بعض المصطلحات ويرجح ما يراه أولى بالترجيح، ويعرض الكثير من الشواهد والأمثلة.

وبهذا نرى أن كتاب "سر الفصاحة" إذا ما نحينا عنه رأي الخفاجي من القول بالصرفة، وما يتبعه من القول بأن الآيات القرآنية بعضها أفصح من بعض، إذا ما نحي عنه هذا وأمثاله، فإنه يعد من المراجع البلاغية المهمة مناقشة وتحليلاً وجمعًا لأقوال السابقين وعرضًا للشواهد والأمثلة وإضافة لما ينبغي إضافته من شرح وإيضاح وتبيين وترجيح.

---

(١) هو أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروي ويسمى أيضًا بالإرصاد والتبيين والتوأم.

(٢) سر الفصاحة ١٥٦.

عبد القاهر الجرجاني
"ت ٤٧١هـ"

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، ولد بجرجان إحدى المدن المشهورة بين خراسان وطبرستان، فانتسب إليها وظل بها لم يفارقها حتى توفي بها سنة ٤٧١هـ، وكان فقيهًا شافعيًّا ومتكلمًا أشعريًّا، وقد درس النحو على أبي الحسن محمد بن الحسن الفارسي، ابن أخت أبي علي الفارسي، وكان يعد إمام النحاة بعده، وله مؤلفات عديدة منها: العوامل المائة في النحو، والشافية في إعجاز القرآن، ولكنه اشتهر بكتابيه: "أسرار البلاغة" و "دلائل الإعجاز" فقد استطاع عبد القاهر أن يفيد من المؤلفات السابقة وأن يبرز في هذين الكتابين مسائل البلاغة بالشرح والتحليل والإكثار من الشواهد والأمثلة.

وأول ما نلاحظه أن كتاب "أسرار البلاغة" قد تضمن مسائل البيان وبعض فنون البديع وأن كتاب "دلائل الإعجاز" قد تناول مسائل المعاني، وهذا لا يعني أن عبد القاهر قد قسم علوم البلاغة، إن تقسيم البلاغة إلى علوم ثلاثة: معان وبيان وبديع، لم يتم إلا في عهد السكاكي، أما عبد القاهر وسابقوه، فقد كانت البلاغة عندهم علمًا واحدًا يتناول مسائل البديع وفنونه.

وارجع إلى الكتابين فستجد كلمة البيان ترد مقرونة بكلمة الفصاحة والبلاغة، والبديع، وستجده يورد الاستعارة والتشبيه والمجاز في "دلائل الإعجاز" مبرزا أثرهما في النظم والصياغة وبناء الجمل وأغلب الظن أن عبد القاهر قد ألف كتابه "دلائل الإعجاز" بعد تأليفه "أسرار البلاغة"؛ إذ كثيرًا ما يعد في الأسرار باستيفاء موضوعات، فإذا فتشت عنها لتحقق ذلك الوعد وجدتها في الدلائل[1].

فتعالوا ننظر في هذين الكتابين لنرى مدى إفادة عبد القاهر من سابقيه، وكيف أبرز مسائل البلاغة بالشرح والتحليل والإكثار من الشواهد والحث على تأملها وتذوقها.

---

(١) انظر الصبغ البديعي: ٢٣٥.

دلائل الإعجاز

بدأ عبد القاهر كتابه "دلائل الإعجاز" بالحديث عن نظرية النظم مفيدًا من كتابات الجاحظ، ومن حديث القاضي عبد الجبار، فذكر أن الناظم يبدأ فيرتب المعاني في نفسه ويبذل جهدًا في ترتيبها ثم يعمد إلى الألفاظ التي يعبر بها عن تلك المعاني، فيرتبها وفق ترتيب المعاني في نفسه.

يقول عبد القاهر: "وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك؛ لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق"[١].

وقد عقد قبل ذلك فصولاً تحدث فيها عن الشعر وروايته وحفظه، ورد على من زهد فيه، وتحدث عن النحو وعن مدى الحاجة إليه، ثم تحدث عن الفصاحة والبلاغة، فبين أن السبيل إلى معرفتها هو معرفة النظم وأسراره، وإذا كان الأمر كذلك؛ فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلام إخبارًا أو أمرًا أو نهيًا أو استخبارًا أو تعجبًا، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظه على لفظه[٢]؛ أي أن على الناظم بعد أن يرتب المعاني في نفسه أن ينتقي ويتخير الكلمات التي يعبر بها عنها، وأن يحسن ضم بعضها إلى بعض على وفق المعاني القائمة في نفسه.

ويستمر عبد القاهر في إبراز مزايا النظم، وتقرير أنه مرجع الفصاحة فيقول: "وهل تجد أحدًا يقول: هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها؟ وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافة قلقة ونابية ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن

---

(١) دلائل الإعجاز: ٩٣.

(٢) انظر دلائل الإعجاز: ٨٧.

حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقًا للتالية في مؤداها[١].

ثم يتبع ذلك بسيل من الشواهد فيبدأ بقوله عز وجل: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [هود: ٤٤]، ويبرز عبد القاهر ما في الآية الكريمة من إعجاز مبينًا أن مرده إلى النظم فيقول: "هل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ ...﴾ الآية. فتجلى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع، أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لـم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة؟ وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها، وأن الفضل تناتج ما بينها وحصل من مجموعها، إن شككت فتأمل، هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي مكانها من الآية؟

قل ﴿ٱبۡلَعِي﴾ واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، وكذا فاعتبر سائر ما يليها، وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم في أن كان النداء "بيا" دون "أي" نحو: يا أيتها الأرض، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال: ابلعي الماء، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو شأنها، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل: "وغيض الماء" فجاء الفعل على صيغة "فُعِلَ" الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آخر، وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ ثم ذكر ما فائدة هذه الأمور وهو: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾، ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ثم مقابلة: (**قيل**) في الخاتمة (**بقيل**) في الفاتحة.

أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقًا باللفظ من حيث هو صوت مسموت

---

(١) دلائل الإعجاز: ٨٨.

وحروف تتوالى في النطق أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟[١].

ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر، كلفظ "الأخدع" في بيت الحماسة:

تَلَفَّتُّ نحوَ الحيِّ حتى وَجَدْتُني وَجِعْتُ من الإصغاءِ لِيتًا وأَخْدَعَا

وبيت البحتري:

وإنيّ وإنْ بَلَّغْتَنِي شَرَفَ الْغِنَى وأَعْتَقْتَ من رقِّ المطامعِ أَخْدَعِي

فإن لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن، ثم إنك تتأملها -أي كلمة: «الأخدع»- في بيت أبي تمام:

يا دهرُ قَوِّمْ من أَخْدَعَيْكَ فقدْ أضْجَجْتَ هذا الأنامَ من خُرُقِكَ

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما تجد لها هناك من الخفة والإيناس.

وانظر إلى كلمة "شيء" في قول عمر بن أبي ربيعة:

ومِنْ مالِئٍ عَيْنَيْهِ من شيءِ غَيْرِهِ إذا راحَ نحوَ الْجَمْرَةِ البيضِ كالدُّمَى

وقول أبي حية النميري:

إذا مَا تقاضَى المرءَ يومٌ ولَيْلَةٌ تقاضَاهُ شيءٌ لاَ يَمَلُّ التَّقاضِيَا

فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول.

ثم انظر إليها في بيت المتنبي.

لَوِ الفَلَكُ الدوَّارُ أَبْغَضْتَ سَعْيَهُ لَعَوَّقَهُ شيءٌ عن الدَّوَرَانِ

فإنك تراها تثقل وتكره بمقدار ما حسنت هناك وخفت[٢]...

---

(١) دلائل الإعجاز: ٩٠.

(٢) ارجع إلى دلائل الإعجاز ص ٩٠-٩٢.

ويستمر عبد القاهر في عرض الشواهد مبرزًا أن المعول عليه في رجوع المزية هو التلاؤم اللفظي واستقرار الكلمات حتى لا يتلاقى في النطق حروف تثقل على اللسان كالذي أنشده الجاحظ من قول الشاعر:

وقَــبرُ حَــربٍ بمكــانٍ قَفْــرٍ ولــيسَ قُــرْبَ قَــبْرِ حَــربٍ قَــبْرُ

ويعرض بعد ذلك للمجاز والاستعارة والتشبيه والتمثيل، فيذكر أن لها فضلاً ومزية ويكشف عن ذلك ويجليه أتم تجلية، ثم يبين أن المزية والحسن والفصاحة والرونق لا يرجع إلى ذات هذه الفنون، بل إلى نظمها الذي سيقت فيه: "ترى المزية أبدًا في ذلك تقع في طريق إثبات المعنى نفسه"، فإذا سمعتهم يقولون: إن من شأن هذه الأجناس أن تكسب المعاني نبلاً وفضلاً، وتوجب لها شرفًا، وأن تفخمها في نفوس السامعين وترفع أقدارها عند المخاطبين، فإنهم لا يريدون الشجاعة والقرى وأشباه ذلك من معاني الكلم المفردة، وإنما يعنون إثبات معاني هذه الكلم لمن تثبت له ويخبر بها عنه، هذا ما ينبغي للعاقل أن يجعله على ذكر منه أبدًا، وأن يعلم أن ليس لنا إذا نحن تكلمنا في البلاغة، والفصاحة مع معاني الكلم المفردة شغل، ولا هي منا بسبيل، وإنما نعمد إلى الأحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب(١).

وإذا كانت المزية لا ترجع إلى الألفاظ المجردة، ولا إلى المعاني اللغوية للكلمات، فإلى أي شيء ترجع؟ إنها ترجع إلى النظم الذي يعرفه عبد القاهر بقوله: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها"(٢).

ثم يشرح مراده بعلم النحو وما يقتضيه فيقول: "وذلك أنا لا نعلم شيئًا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق وزيد ينطلق وينطلق زيد ومنطلق زيد وزيد المنطلق والمنطلق زيد وزيد هو المنطلق وزيد هو منطلق، وفي الشرط والجزاء

(١) دلائل الإعجاز: ١١٠.

(٢) دلائل الإعجاز: ١١٧.

إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت وإن تخرج فأنا خارج وأنا خارج إن خرجت، وأنا إن خرجت خارج، وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: جاءني زيد مسرعًا وجاءني يسرع وجاءني وهو يسرع أو وهو مسرع وجاءني قد أسرع وجاءني وقد أسرع، فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي له، وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك في خاص معناه، نحو: أن يجيء "بما" في نفي الحال، "وبلا" إذا أراد نفي الاستقبال، "وبإن" فيما يترجح بين أن يكون أو ألا يكون "وبإذا" فيما علم أنه كائن، وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء، وموضع الفاء من ثم، وموضع أو من موضع أم وموضع لكن من موضع بل، ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام كله وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار، فيضع كلا من ذلك في مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له(١).

فعبد القاهر يريد بعلم النحو وقوانينه: العلاقات بين المفردات والجمل وما يكمن وراء التعبيرات من دقائق وأسرار، ومجيء الأبنية والصيغ على وفق ترتيب المعاني في النفس ثم أخذ يوضح ذلك بالشواهد والأمثلة، فبدأ بالنظم الفاسد من نحو قول الفرزدق:

ومَا مِثْلُهُ في النَّاسِ إلا مُمَلَّكًا ... أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ

وقول المتنبي:

ولِذا اسمُ أَغْطِيَةِ العُيُونِ جُفُونُهَا ... مِن أنَّهَا عَمَلَ السيوفِ عَوَامِلُ

وقول أبي تمام:

ثانِيهِ في كبدِ السماءِ ولمْ يكُنْ ... كاثنينِ ثانٍ إذ هُمَا في الغارِ

وذكر أن فساده راجع إلى سوء نظمه وتأليفه، وما صنع فيه من تقديم

---

(١) دلائل الإعجاز: ١١٨.

أو تأخير أو حذف أو إضمار لا يسوغ ولا يصح على أصول علم النحو، فأدى إلى التعقيد واللبس، وأتبع ذلك بشواهد من النظم الجيد من نحو قول البحتري:

بلونَا ضرائبَ مَنْ قدْ نرَى   فما إنْ رأيْنَا لفتحٍ ضريبًا
هو المرءُ أبدَتْ لهُ الحادثَاتُ   عزمًا وشيكًا ورأيًا صليبًا
تَنَقَّلُ في خُلُقَيْ سُؤْدَدٍ   سَمَاحًا مُرَجًّى وبأسًا مهيبًا
فكالسيفِ إن جئتَهُ صَارخًا   وكالبحرِ إنْ جئْتَهُ مُستثِيبًا

فيذكر أن سبب حسنه وبهائه ورونقه وجماله، ليس إلا أنه قدم وأخر وعرف ونكر وحذف وأضمر وأعاد وكرر وتوخى على الجملة وجهًا من الوجوه التي يقتضيها علم النحو، فأصاب في ذلك كله، ثم لطف موضع صوابه...

ويتساءل عبد القاهر: أفلا ترى أن أول شيء يروقك منها قوله: "هو المرء أبدت له الحادثات"، ثم قوله: "تنقل في خلقي سؤدد"، بتنكير السؤدد وإضافة الخلقين إليه، ثم قوله: "فكالسيف" وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ، لأن المعنى لا محالة هو كالسيف، ثم تكريره الكاف في قوله: "وكالبحر" ثم قرن إلى كل واحد من التشبيهين شرطًا جوابه فيه. ثم أن أخرج من كل واحد من الشرطين حالاً على مثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله: "صارخًا" هناك و"مستثيبًا" ههنا.

وقول إبراهيم بن العباس:

فلو إذْ نَبَا دهرٌ وأُنْكِرَ صاحِبٌ   وسُلِّطَ أعداءٌ وغابَ نصيرُ
تكونُ عن الأهوازِ دارِي بنجوةٍ   ولكن مقاديرٌ جرَتْ وأمورُ
وإنِّي لأرجُو بعد هذا محمَّدًا   لأفضَلِ ما يُرجَى أخٌ ووزيرُ

فإنك لو تفقدت سبب الرونق والطلاوة والحسن والحلاوة فستجده إنما كان من أجل تقديمه الظرف الذي هو "إذ نبا" على عامله الذي هو "تكون" وأن لم يقل: "فلو تكون عن الأهواز داري بنجوة إذ نبا دهر". ثم قال: "تكون" ولم يقل "كان" ثم أن نكر الدهر ولم يقل "فلو إذ نبا الدهر" ثم أن ساق هذا التنكير في جميع ما أتى به من بعد. ثم أن قال: "وأنكر صاحب"، ولم يقل: "وأنكرت صاحبًا".

ويستمر عبد القاهر في عرض الشواهد وإبراز ما فيها من حسن وجمال مردهما إلى النظم، وفي أثناء ذلك يتحدث عرضًا عن فنون بلاغية كالمزاوجة في قول البحتري:

إذا ما نَهَى الناهِي فلجَّ بيَ الهوَى أصاخَتْ إلى الواشِي فلجَّ بهَا الهُجْرُ

وقوله:

إذا احتربتَ يومًا ففاضَتْ دماؤُهَا تذكَّرَتِ الْقُرْبَى ففاضَتْ دموعُهَا

وكالتشبيه في قول كثير:

وإنِّي وتَهْيَامِي بِعَزَّةَ بعدمَا تخَلَّيْتُ مِمَّا بَيْنَنَا وتخلَّتِ

لَكَالمُرْتجِي ظِلَّ الغَمَامَةِ كُلَّمَا تَبَوَّأ منهَا للْمَقِيلِ اضْمَحلَّتِ

وقول امرئ القيس:

كأنَّ قلوبَ الطيرِ رطبًا ويابسًا لَدَى وكْرِهَا العُنَّابُ والحشَفُ البالِي

وقول الفرزدق:

والشيبُ ينهضُ في الشبابِ كأنَّهُ ليلٌ يصيحُ بجانِبَيْهِ نَهَارُ

وقول بشار:

كأنَّ مُثارَ النَّقْعِ فوقَ رءُوسِنَا وأَسْيافَنَا ليلٌ تهاوَى كَوَاكِبُهُ

وقول زياد الأعجم:

وإنَّا ومَا تُلْقِي لنَا إن هجوْتَنَا كالبحرِ مهمَا تُلْقِ في البحرِ يَغْرَقِ

وكالتقسيم يصاحبه الجمع في قول حسان:

قومٌ إذا حاربُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ أو حاولُوا النَّفْعَ في أشياعِهِمْ نَفَعُوا

سَجِيَّةٌ تلك فيهِم غيرُ مُحْدَثَةٍ إن الخلائقَ فاعْلَمْ شَرُّهَا الْبِدَعُ

وكالاستعارة في قوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾[(١)]، وفي قول ابن المعتز:

سَالتْ عَلَيْهِ شِعَابُ الحيِّ حِينَ دعَا أنصارَهُ بوجوهٍ كالدنانيرِ

إلى غير ذلك من شواهد، فقد حللها وأبرز ما فيها من حسن وجمال منبهًا إلى أن ذلك الحسن قد تم عن طريق النظم.

انظر إلى قوله معلقًا على بيت ابن المعتز السابق ذكره:

"فإنك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها إنما تم لها الحسن وانتهى إلى حيث انتهى، بما توخى في وضع الكلام من التقديم والتأخير، وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها، وإن شككت فاعمد إلى الجار والمجرور والظرف، فأزل كلاً منهما عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه، فقل: سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره ثم انظر كيف يكون وكيف يذهب الحسن والحلاوة، وكيف تعدم أريحيتك التي كانت، وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها"[(٢)].

ومما ينبغي التنبيه له أن عبد القاهر قد جعل لمعاني التشبيه والاستعارة والتمثيل والكتابة وغيرها من فنون البلاغة حسنًا ومزية، وأن حسنها ومزيتها وجمالها ورونقها إنما يتم بالنظم، كما أنه لم يهمل التنبيه إلى ما للألفاظ وحذاقة حروفها وسلامتها مما يثقل على اللسان من حسن يوجب لها الفضيلة والمزية، ولكن الذي أنكره وكرر إنكاره في مواضع كثيرة من كتابه، أن يكون لهذه المعاني وما يثبت لها من حسن أو لتلك الألفاظ وما وجب لها من مزية، أساس في تحقيق الإعجاز، ومنهما يكن من أمر فإن الإعجاز يتأكد بمثل هذه الأمور، ولا يكون بها وحدها... ويتضح ذلك من أقواله: "وجملة الأمر أن ههنا كلامًا حسنه للفظ دون النظم، وآخر حسنه للنظم دون اللفظ وثالثها قري الحسن من الجهتين ووجبت له المزية بكلا الأمرين والإشكال في هذا الثالث وهو الذي لا تزال ترى الغلط قد عارضك فيه، وتراك قد عفت فيه على النظم فتركته، وطمحت ببصرك إلى اللفظ، وقدرت في

(١) دلائل الإعجاز: ٨٨.

(٢) دلائل الإعجاز: ٨٨.

حسن كان به وباللفظ أنه للفظ خاصة، وهذا هو الذي أردت حين قلت لك: إن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلَّا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته...

اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم قسمين: قسم يعزى ذلك فيه إلى النظم، وقسم تعزى المزية والحسن فيه إلى اللفظ، فالقسم الأول: الكناية والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الاستعارة وكل ما كان فيه على الجملة مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر فما من ضرب من هذه الضروب إلا وهو إذا وقع على الصواب وعلى ما ينبغي أوجب الفضل والمزية....

واعلم أنا لا نأبى أن تكون حذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلاً فيما يوجب الفضيلة، وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز، وإنما الذي ننكره وننفي رأي من يذهب إليه أن يجعله معجزًا به وحده ويجعله الأصل والعمدة فيخرج إلى ما ذكرنا من الشناعات، ثم إن العجب كل العجب ممن يجعل كل الفضيلة في شيء هو إذا انفرد لم يجب به فضل ألبتة، ولم يدخل في اعتداد بحال، وذلك أنه لا يخفى على عاقل أنه لا يكون بسهولة الألفاظ وسلامتها مما يثقل على اللسان اعتداد حتى يكون قد ألف منها كلام ثم كان ذلك الكلام صحيحًا في نظمه والغرض الذي أريد به، ولأنه لو عمد عامد إلى ألفاظ فجمعها من غير أن يراعي فيها ويؤلف منها كلامًا، لم تر عاقلاً يعتد السهولة فيه فضيلة، لأن الألفاظ لا تراد لأنفسها وإنما تراد لتجعل أدلة على المعاني، فإذا عدمت الذي له تراد أو اختل أمرها فيه لم يعتد بالأوصاف التي تكون في أنفسها عليها، وكانت السهولة وغير السهولة فيها واحدة"(١).

وقد مر بك رأي الباقلاني في أن الفنون البلاغية لا تعد معجزة إلا إذا نظر لها من خلال النظم. كما مر بك حديث الجاحظ عن اللفظ والمعنى، وقد أوضحنا هناك أنه لا يعتد باللفظ المجرد ولا بالمعاني اللغوية والمعاني العامة، وإنما يعتد بالصياغة وجودة السبك، وحسن النظم كما مر بك أيضًا حديث القاضي عبد الجبار عن النظم وتفسيره له، وحديث ابن رشيق عن تلازم اللفظ والمعنى ووجوب الحسن لأحدهما

(١) ارجع إلى دلائل الإعجاز ص ١٣٢، ص ٣٨٩، ص ٤٥٥.

إذا ثبت للآخر، وقد أفاد عبد القاهر من حديثهم واستطاع أن يبرز هذه النظرية، وحسبه أنه هو الذي شرح وحلل واستشهد وفصل وأعاد وكرر حتى رسخت نظرية النظم وقرت في أذهان الدارسين...

وقد عقد فصولاً عدة شرح فيها الأسس التي تنبني عليها نظرية النظم. بدأها بفصل تحدث فيه عن التقديم وأثره في المعنى فأنكر أن يفسر التقديم بالتوسعة على الشاعر والناثر، أو يعلل بالعناية والاهتمام بالمقدم دون إبراز مغزى هذا الاهتمام وتلك العناية، ثم تحدث عن أثر التقديم بعد همزة الاستفهام، والنفي والخبر المثبت، وتقديم النكرة ومثل وغير وألفاظ العموم، فذكر أن المستفهَم عنه يتحتم إيلاؤه همزة الاستفهام، -عندما تكون للتصور- فيقال في السؤال عن الفاعل: أأنت؟ وعن الفعل: أفعلت وعن المفعول: أزيدًا أكرمت وعن الظرف: أفي الدار زيد؟، وينبغي على البليغ أن يراعي هذا وألا يبني عباراته وجمله بناءً متناقضًا، فمن الخطأ أن يقول: أأنت فعلت أم لم تفعل؟ أفعلت هذا أم زيد؟ أزيدًا أكرمت أم أهنت؟ أفي الدار زيد أم عمرو؟ وقد مر بك تجويز سيبويه واستحسانه لنحو قولك: أعندك زيد أم عمرو؟ وعرفت كيف توفق بين الرأيين.

وأما التقديم بعد النفي فذكر عبد القاهر، أن قولك: "ما فعلت"، يفيد شيئًا واحدًا وهو نفي الفعل عنك، أما قولك: "ما أنا فعلت" فيفيد ثلاثة أمور: نفي الفعل عنك... إثبات نفس الفعل الذي نفي عنك... وجود فاعل آخر فعل هذا الفعل، ولذا كان من الخطأ أن تقول: ما أنا فعلت هذا ولا أحد من الناس. ما أنا فعلت شيئًا، ما أنا أكرمت إلا زيدًا...

وتقديم المفعول أو الظرف مثل تقديم المسند إليه يفيد الاختصاص المذكور، ولذا لا يقال: ما زيدًا أكرمت ولا أهنت... ما زيدًا أكرمت بل أهنت... ما بهذا أمرتك ولا بغيره، وأما التقديم في الإثبات نحو: "أنا فعلت وهم فعلوا" فيفيد إما التأكيد وتقوية الحكم وإما الاختصاص بحسب السياق وما تقتضيه قرائن الأحوال، وتقديم النكرة في ذلك كتقديم المعرفة... وأما مثل وغير فإذا أريد بهما الكناية عما أضيفتا إليه كان تقديمها كالواجب نحو: مثلك يفعل هذا وغيري يأكل المعروف سحتًا... ومثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب، فإن لم يرد بهما الكناية فتقديمهما وتأخيرهما سواء.

كما في قول الشاعر:

غـيرِي جَنَـى وأنـا المُعَاقَـبُ فـيكُمُ   فكـأنّني سَـبَّابَةُ المتنـدِّم

وقول الآخر:

تـشابَهَ دمعِـي إذ جـرَى ومُـدَامَتِي   فمِنْ مثـلِ مـا في الكـأسِ عينِي تـسكُبُ

ويتحدث في موضع آخر عن تقديم "كل" وغيرها من ألفاظ العموم فيذكر أنها إذا قدمت على النفي كان المعنى على عموم النفي وشموله جميع الأفراد نحو: كل ذلك لم يكن، كله لم أصنع، وإن وقعت في حيز النفي كان المعنى على نفي البعض دون البعض الآخر كقولك: لم يأتني القوم كلهم، ما كل رأى الفتى يدعو إلى رشد، ما كل ما يتمنى المرء يدركه...

وقد عرض عبد القاهر لذلك الشواهد العديدة وحلل وفصل، ووضح وبين، وكثيرًا ما يحيل على الذوق ويطلب من المخاطب أن يتأمل وينظر وكأنه يريد منه أن يصل إلى ما وصل إليه، وأن يدرك ما أدركه ويشعر بما شعر هو به من حسن وجمال.

ويعقد فصلاً للحذف فيقول: "هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانًا إذا لم تبن، وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر وتدفعها حتى تنظر، وأنا أكتب لك بديئًا أمثلة مما عرض فيه الحذف، ثم أنبهك على صحة ما أشرت إليه، وأقيم الحجة من ذلك عليه..."(١).

ثم يعرض لحذف المبتدأ؛ فيذكر أنه قد كثر عند ذكر الديار والأطلال كقوله:

اعتـادَ قلبَـكَ مـن لـيلى عَوَائِـدُهُ   وهـاجَ أهـواءكَ المكنونـةَ الطَّلَـلُ

ربـعٌ قـوادٌ أذاعَ المُعْـصِرَاتُ بـهِ   وكـلُّ حَـيْرانَ سـارٍ مـاؤُهُ خَـضِلُ

---

(١) دلائل الإعجاز: ١٧٠.

وكذا عند القطع والاستئناف حيث يبدأون بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره ثم يدعون الكلام الأول ويستأنفون كلامًا آخر وإذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ، كقوله:

هُمُ حلُّوا من الشرفِ المُعَلَّى ومن حَسَبِ الْعَشِيرةِ حيثُ شاءُوا

بناةُ مكارمٍ وَأُسَاةُ كَلْمٍ دماؤُهُمُ من الكَلَبِ الشفاءُ

ويشير إشارة إلى حذف الفعل في بيت ذي الرمة:

دِيَارَ ميَّةَ إِذْ مَيٌّ تُسَاعِفُنَا ولا يُرَى مِثْلُهَا عُجْمٌ ولا عَرَبُ

ويفصل القول في حذف المفعول وما يكمن وراء حذفه من أسرار ودقائق، وتلك طريقته في البحث والدراسة، تراه ينقب عن المزايا ويبحث عن الأسرار ويفتش عن الدقائق واللطائف.

تأمل أقواله في التفرقة بين الحذف وتقدير المحذوف، وكيف أن التقدير يفسد المعنى ويذهب برونق الحذف ويضيع البهجة الكامنة وراءه: "ترى نصبة الكلام وهيئته تروم منك أن تنسى هذا المبتدأ وتباعده عن وهمك وتجتهد ألا يدور في خلدك ولا يعرض لخاطرك وتراك كأنك تتوقاه توقي الشيء يكره مكانه والثقيل يخشى هجومه... ترى النفس كيف تتفادى من إظهار المحذوف، وكيف تأنس إلى إضماره وترى الملاحة كيف تذهب إن أنت رمت التكلم به... تكلف أن ترد ما حذف الشاعر وأن تخرجه إلى لفظك وتوقعه إلى سمعك، فإنك تعلم أن الذي قلت كما قلت، وأن رب حذف هو قلادة الجيد وقاعدة التجويد..."(١).

وعلى هذا المنوال استمر عبد القاهر في شرح الأسس التي يقوم عليها النظم، فتحدث عن الفصل والوصل وعن فروق في الخبر والحال وعن أضرب الخبر والمجاز العقلي كما تحدث عن الاستعارة وفرق بينها وبين التشبيه البليغ، وتحدث عن الكناية وعن الجناس والسجع والمزاوجة والتقسيم والجمع، وغير ذلك من ألوان بلاغية، وهو يقصد من وراء ذلك إلى إيضاح نظرية النظم وإبراز الأسس التي تقوم عليها.

---

(١) دلائل الإعجاز: ١٧٤، ١٧٥.

يقول في حديثه عن الجناس وأثره في المعنى: "وإذا نظرت إلى تجنيس أبي تمام: أمذهب أم مذهب، فاستضعفته وإلى تجنيس القائل: "حتى نجا من خوفه وما نجا".

وقول المحدث:

نَاظِرَاهُ فِيمَا جنَى نَاظِرَاهُ   أَوْدَعَانِي أمتُ بِمَا أَوْدَعَانِي

فاستحسنته، لم تشك بحال أن ذلك لم يكن لأمر يرجع إلى اللفظ، ولكن لأنك رأيت الفائدة ضعفت في الأول وقويت في الثاني، وذلك أنك رأيت أبا تمام لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفًا مكررة لا تجد لها فائدة -إن وجدت- إلا متكلفة متمحلة، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة، وقد أعطاها ويوهمك أنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها"(١).

وقد استمد السكاكي- وتبعه البلاغيون- مباحث علم المعاني من تلك الأسس التي بنى عليها عبد القاهر نظرية النظم في كتابه: "دلائل الإعجاز".

أسرار البلاغة

أما كتاب "أسرار البلاغة"، فيتناول فيه التشبيه والتمثيل والاستعارة بصورة مفصلة مبينة، كما عرض فيه للمجاز العقلي مفرقًا بينه وبين المجاز اللغوي، وقد بدأه بالحديث عن التجنيس والسجع مبرزًا أثرهما في المعنى ومبينًا أنهما ليس لمجرد الزينة والتزويق، ولم يشر عبد القاهر أي إشارة تدل على أنه يسمى مباحث التمثيل والتشبيه والمجاز "علم البيان"، بل إنه يطلق على تلك المباحث: "البديع"، كما صنع سابقوه؛ إذ يقول: "وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع فلا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعاني خاصة من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب"(٢)، وأما تقسيم البلاغة إلى علومها الثلاثة: المعاني والبيان والبديع، فلم يتم إلا بعد عبد القاهر، كما ذكرت لك.

---

(١) دلائل الإعجاز: ٤٥٧.

(٢) أسرار البلاغة ص: ٢٨.

ويستهل عبد القاهر مباحثه في الكتاب بالحديث عن الجناس والسجع فيقول: "أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين، إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعًا حميدًا، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدًا، أتراك استضعفت تجنيس أبي تمام في قوله:

ذَهبتْ بِمُذْهَبِهِ السَّمَاحَةُ فالْتَوَتْ   فيهِ الظُّنُونُ أَمَذْهبٌ أم مُذْهَبُ

واستحسنت تجنيس القائل: "حتى نجا من خوفه وما نجا".

وقول المحدث:

نَاظِرَاهُ فِيمَا جنَى نَاظِرَاهُ   أَوْ دَعَانِي أمُتْ بِمَا أَوْدَعَانِي

لأمر يرجع إلى اللفظ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت في الثاني؟ ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفًا مكررة تروم لها فائدة؛ فلا تجدها إلا مجهولة منكرة، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة، وقد أعطاها، ويوهمك أنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها، فبهذه السريرة صار التجنيس –وخصوصًا المستوفى منه المتفق في الصورة– من حلي الشعر ومذكورًا في أقسام البديع"(١).

وقد مر بك هذا القول له في كتابه: "دلائل الإعجاز"، ولا يخفى عليك رجوعه جمال الجناس وحسنه إلى المعنى، وما يحدثه في النفس من أثر غير مرتقب، وينفي أن يكون الحسن راجعًا إلى اللفظ وجرس الحروف فحسنه حسن ذاتي وليس عرضيًا.

ويمضي عبد القاهر في الحديث عن الجناس والسجع فيذكر أن مثل هذه الفنون تستحسن وتحمد إذا جاءت عفو الخاطر وبلا تكلف، أما إذا تكلفت وقصدت فإنها تذم ولا تقبل.

"وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسًا مقبولاً ولا سجعًا حسنًا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه، وحتى تجده، لا تبتغي به بدلاً ولا تجد عنه

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٠.

حولا، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحق بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه، وتأهب لطلبه"...

وإذا كان في الدلائل قد ذكر الجناس التام فقط وأبرز حسنه فإنك تراه ههنا في الأسرار يمضي إلى الجناس غير التام فيتحدث عما له من جمال وحسن إذ يقول: "واعلم أن النكتة التي ذكرتها في التجنيس وجعلتها العلة في استيجابه الفضيلة وهي حسن الإفادة مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة وإن كانت لا تظهر الظهور التام الذي لا يمكن دفعه إلا في المستوفى المتفق الصورة منه.

كقوله:

مَا مَاتَ من كَرمِ الزَّمَانِ فَإنَّهُ ... يحيَا لدَى يحْيَى بْنِ عبدالله

أو المرفو الجاري هذا المجرى كقوله: "أو دعاني أمت بما أودعاني" فقد يتصور في ذلك من أقسامه أيضًا، فمما يظهر ذلك فيه ما كان نحو قول أبي تمام:

يَمُدُّونَ من أيدٍ عواصٍ عواصِمِ ... تصولُ بأسيافٍ قَوَاضٍ قواضِبِ

وقول البحتري:

لئنْ صَدَفَتْ عنَّا فَرُبَّتَ أَنْفُسٍ ... صوادٍ إلى تلكَ الوُجُوهِ الصَّوَادِفِ

وذلك أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة، كالميم في من عواصم والباء من قواضب، أنها هي التي مضت، وقد أرادت أن تجيئك ثانية وتعود إليك مؤكدة، حتى إذا تمكن في نفسك تمامها، ووعى سمعك آخرها انصرفت عن ظنك الأول، وزلت عن الذي سبق من التخييل، وفي ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها، وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال...."[1].

ويستمر عبد القاهر فيتحدث عن الحشو ويقسمه إلى مفيد وغير مفيد، ويشير إلى الطباق فيذكر أن الحسن والقبح يعترض الكلام به وبالاستعارة من جهة المعاني

---

(١) أسرار البلاغة ص: ٢٠.

خاصة من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الاستعارة فيذكر أن المعاني تتفق وتختلف وتجتمع وتفترق ولكي نقف على الشريف منها ونعرف غير الشريف، لابد من مقدمات تقدم وأصول تمهد، وأشياء حقها أن تجمع وضروب من القول ينبغي أن تقطع:

"وأول ذلك وأولاه وأحقه بأن يستوفيه النظر ويتقصاه، القول على التشبيه والتمثيل والاستعارة؛ فإن هذه أصول كثيرة كانت جل محاسن الكلام -إن لم نقل كلها- متفرعة عنها وراجعة إليها، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها، وأقطار تحيط بها من جهاتها ولا يقنع طالب التحقيق أن يقتصر فيها على أمثلة تذكر ونظائر تعد نحو أن يقال: الاستعارة مثل قولهم: "الفكرة مخ العمل"، وقوله: "وعري أفراس الصبا ورواحله"، وقوله: "السفر ميزان القوم"، وقول الأعرابي: "كانوا إذا اصطفوا سفرت بينهم السهام، وإذا تصافحوا بالسيوف فَغَر الْحِمَامُ"، والتمثيل كقوله: "فإنك كالليل الذي هو مدركي"[١].

ويمضي في حديثه عن الاستعارة فيقول: "اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع معروفًا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقل إليه نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعارية"[٢].

ثم يقسمها إلى مفيدة وغير مفيدة، جاعلاً غير المفيدة قصيرة الباع قليلة الاتساع، ممثلاً لها بنحو إطلاقهم مشفر البعير على شفة الإنسان دون ملاحظة المبالغة في وصف الشفة بالغلظ والتدلي مثلاً، وقد عرف ذلك فيما بعد باسم المجاز

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣٤، والمثال الثاني من بيت لزهير أبي سلمى وتمامه:

صَحَا الْقَلْبُ عن سَلْمَى وأَقْصِرَ بَاطِلُهُ ... وعُرِّي أَفْراسُ الصِّبَا ورَوَاحِلُه

والمثال الأخير من بيت للنابغة الذبياني وتمامه:

فإنَّكَ كاللَّيْلِ الذي هو مُدْرِكِي ... وإنْ خِلْتُ أنَّ المُنْتَأَى عَنْكَ واسِعُ

(٢) أسرار البلاغة ص: ٣٦.

المرسل، أما المفيدة فهي التي يقصد بها قصدًا إلى المبالغة نحو: "كلمت بحرًا"، والمفيدة هي الجديرة باسم الاستعارة، لأنها أمد ميدانًا وأشد افتنانًا وأكثر جريانًا وأعجب حسنًا وإحسانًا وأوسع سعة وأبعد غورًا، ومتى كانت الاستعارة على هذا الوصف فهي من حلي الشعر، ومعدودة ضمن ألوان البديع.

وهكذا يمضي عبد القاهر مفصلاً القول في الاستعارة تفصيلاً لم نعهده عند أحد من سابقيه، فقد تحدث عما تحدثه في النفس من أنس وما تجلبه من متعة ولذة، وبين أقسامها فقال: إنها تجري في الأسماء وتجري في الأفعال، والتي تجري في الأسماء إما محققة وإما مرموزًا لها، وقد أفاد البلاغيون من ذلك فيما بعد فنوعوا الاستعارة إلى تبعية وأصلية، والأصلية إلى تصريحية ومكنية.

وأفاض عبد القاهر في التفرقة بين التصريحية والمكنية، أو كما سماها: "المحققة والمرموز إليها"، فقال: "اعلم أن كل لفظة دخلتها الاستعارة المفيدة، فإنها لا تخلو من أن تكون اسمًا أو فعلاً، فإذا كانت اسمًا فإنه يقع مستعارًا على قسمين: أحدهما: أن تنقله عن مسماه الأصلي إلى شيء آخر ثابت معلوم، فتجريه عليه وتجعله متناولاً له تناول الصفة مثلاً للموصوف، وذلك قولك: رأيت أسدًا وأنت تعني رجلاً شجاعًا، ورنت له ظبية، وأنت تعني امرأة، وأبديت نورًا تعني هدى وبيانًا وحجة، وما شاكل ذلك، فالاسم في هذا كله، كما تراه متناولاً شيئًا معلومًا يمكن أن ينص عليه فيقال:

إنه عني بالاسم وكنى به عنه، ونقل عن مسماه الأصلي فجعل اسمًا له على سبيل الاستعارة والمبالغة في التشبيه، والثاني: أن يؤخذ الاسم عن حقيقته ويوضع موضعًا لا يبين فيه شيء يشار إليه فيقال: هذا هو المراد بالاسم، والذي استعير له وجعل خليفة لاسمه الأصلي ونائبه منابه، ومثاله قول لبيد:

وَغَدَاةِ ريحٍ قد كَشَفْتُ وقِرَّةٍ إذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشِّمَالِ زِمَامُها

وذلك أنه جعل للشمال يدًا ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه يمكن أن تجرى اليد عليه كإجراء الأسد والسيف على الرجل في قولك: انبرى لي أسد يزأر، وسللت

سيفا على العدو لا يفل، والظباء على النساء في قوله: "من الظباء الغيد"[١]، والنور على الهدى والبيان في قولك: أبديت نورًا ساطعًا[٢].

ويضيف: "وطريقة أخرى في بيان الفرق بين القسمين وهو أن الشبه في القسم الأول الذي هو نحو: رأيت أسدًا، تريد رجلاً شجاعًا، وصف موجود في الشيء الذي له استعرت واليد ليست توصف بالشبه ولكنه صفة تكسبها اليد صاحبها وتحصل له بها وهي التصرف على وجه مخصوص"[٣].

ويمضي إلى الاستعارة في الفعل فيبين أن الاستعارة في الأفعال تجري فيها تبعًا لجريانها في مصادرها، ويفصل القول في الجامع بين طرفي الاستعارة ثم ينتقل إلى التشبيه والتمثيل فيفرق بينهما ويفصل القول في التشبيهات المفردة والمركبة والتشبيهات الحسية والعقلية والقريبة المبتذلة والبعيدة الغريبة وأدوات التشبيه، ويفيض في بيان التشبيه التمثيلي وتحليل شواهده، والكشف عن أسراره ومواطن حسنه وجماله، ويفرق بين التشبيه البليغ والاستعارة ويعرض للمجاز العقلي فيشرح ويفصل ويبين ويحدد مفرقًا بين التجوز في الإسناد والتجوز في الكلمة...

ويعرض للتخييل فيبين أنواعه المختلفة مستشهدًا لها ومحللاً وشارحًا، فمنه ما يجيء مصنوعًا قد تلطف فيه حتى أعطي شبهًا من الحق وغشي رونقًا من الصدق: كما في قول أبي تمام:

لا تُنْكِرِي عُطْلَ الكَرِيمِ مِن الغِنَى ... فالسَّيْلُ حربٌ للمكانِ الْعَالِي

ومنه ما يبنى على حسن التعليل بأن يدعى في الصفة الثابتة للشيء أنه إنما كان لعلة يضعها الشاعر ويختلقها إما لأمر يرجع إلى تعظيم الممدوح، أو تعظيم أمر من الأمور، كما في قول المتنبي:

ما بِهِ قتلُ أعادِيهِ ولكنْ ... يَتَّقِي إخلافَ ما ترجُو الذِّئَابُ

---

(١) من بيت البحتري وهو ضمن قصيدة يمدح فيها المعتز بالله.

من عذيري من الظباءِ الغيدِ ... ومجيري من ظلمهنَّ العتيدِ

(٢) أسرار البلاغة ٤٨/ ٤٩.

(٣) أسرار البلاغة: ٥٣.

ومن التخييل ما يبنى على تناسي التشبيه وصرف النفس عن توهمه، كما في قول أبي تمام:

ويصعدُ حتَّى يَظُنَّ الْجَهُولُ   بأنَّ لهُ حاجَةً في السماءِ

وفي أثناء حديثه عن الفروق بين الاستعارة والتشبيه البليغ يعرض للتجريد وإن لم يسمه بهذه التسمية، كما في قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ﴾ [فصلت: ٢٨]، وقولك: لقيت به أسدًا ورأيت به لثيمًا، وقول الأعشى:

يا خَيْرَ من يرْكَبُ المطِيَّ ولا   يَشْرَبُ كأسًا بكفِّ مَنْ بَخِلاَ

ويختتم عبد القاهر كتابه: "أسرار البلاغة" بالحديث عن مجاز الحذف وهو ما لا يجري فيه نقل الكلمة عن معناها الأصلي إلى معنى جديد، وإنما يجري فيه تغير الحكم الإعرابي بسبب ما يدخله من الحذف كما في قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢]، فقد نصبت "القرية" وكانت قبل الحذف مجرورة.

هذا وما ذكرته هنا عن كتابي: "دلائل الإعجاز"، و"أسرار البلاغة" نزر يسير من تفصيل كثير لا غنى لدارس البلاغة من الوقوف عليه والإحاطة به، فعليك أن ترجع إلى الكتابين وتقف على صنيع عبد القاهر ليتضح لك أنه قد أفاد من سابقيه واستطاع بحسه المرهف ونفاذ بصيرته، أن يكشف عن خصائص الصيغ والتراكيب وأن يجلي الأسرار والدقائق الكامنة وراء الصور البيانية من خلال ما يعرضه من آي الذكر الحكيم والحديث الشريف ومن التعبيرات الجيدة ونماذج الشعر العربي وفرائده، فماذا بعد عبد القاهر؟ ... كيف سار البحث البلاغي بعده؟

☆☆☆

مسار البحث البلاغي بعد عبد القاهر

تغير البحث البلاغي بعد عبد القاهر وسار في اتجاهات مختلفة، فقد رأينا تطبيقات الزمخشري "ت ٥٣٨هـ" في كتابه "الكشاف"؛ حيث استطاع أن يستوعب كل ما كتبه السابقون وبخاصة ما كتبه الإمام عبد القاهر في كتابيه "أسرار البلاغة" و "دلائل الإعجاز" ومضى يطبقه تطبيقًا دقيقًا على آي الذكر الحكيم، ولم يدع رأيًا من الآراء ولا مسألة من المسائل إلا وساق لها الشواهد من الآيات الكريمة حتى تتضح وتجلى، ولم يقف عند هذا الحد، بل مضى يتمم تلك الآراء ويستكمل تلك المسائل مضيفًا إليها إضافات تنم عن فكر ثاقب وحس مرهف.

الاتجاه الفلسفي

وكان هناك اتجاه فلسفي منطقي، مال بالبلاغة نحو القواعد والتلخيص، وقد تمثل هذا الاتجاه في كتاب "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن علي الرازي "ت ٦٠٦هـ" الذي لخص كتابي عبد القاهر "الدلائل" و "الأسرار" فكان بعمله هذا أول من قعد علوم البلاغة ورتب مسائلها في تقنين علمي هو الأول من نوعه، وبذلك قضى على الروح الأدبية التي شاهدناها في كتابي الجرجاني، ومال بل وانحرف نحو الضبط والحصر المنطقي بذكر الحدود وبيان القيود وإخراج المحترزات.

وتلاه السكاكي "ت ٦٢٦هـ" بكتابه مفتاح العلوم الذي خص الجزء الثالث منه بعلمي المعاني والبيان، ملحقًا بهما دراسة المحسنات المعنوية واللفظية، فهو أول من قسم البلاغة إلى علمين: "المعاني" ويتناول المباحث التي تعرض لصياغة الجمل وبناء التراكيب والتي تحدث عنها عبد القاهر في "دلائل الإعجاز" و"البيان" ويتناول مباحث الصورة من تشبيه ومجاز وكناية والتي عرض لها عبد القاهر في "أسرار البلاغة" ولم يجعل البديع علمًا ثالثًا مستقلاً عن علمي المعاني والبيان، بل جعله لاحقًا بهما إذ يقول عنه: "وهناك وجوه مخصوصة كثيرًا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها. وهي قسمان: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ[1].

(١) مفتاح العلوم ٢٢٤.

وعلى القسم الثالث من مفتاح العلوم، قامت الشروح ودونت التلخيصات، فألف بدر الدين ابن مالك: "ت٦٨٦هـ" كتابه "المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع"، وقد سار فيه على نهج السكاكي وتقسيماته، وعلى الرغم من اعترافه بأن المحسنات من توابع العلمين "المعاني والبيان" إلا أنه جعلها علمًا مستقلاً سماه: "علم البديع" وبذلك صارت البلاغة متضمنة ثلاثة علوم.

ثم جاء الخطيب القزويني: "ت ٧٣٩هـ" فوضع تلخيصه وهو تلخيص للجزء الثالث من مفتاح العلوم، وسماه: "تلخيص المفتاح" وقد شعر العلماء بأنه مختصر شديد الاختصار لا يشفي غليل الدارس، فوضعوا عليه شروحًا عدة عرفت باسم: "شروح التلخيص وأهمها: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح "لبهاء الدين السبكي": "ت ٧٧٣هـ"، و"المطول والمختصر" لسعد الدين التفتازاني: "ت ٧٩١هـ" والأطول لعصام الدين بن عربشاه الأسفراييني الذي توفي بسمرقند في منتصف القرن العاشر الهجري، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي: "ت ١١١٠هـ" و"الجمان" لجلال الدين السيوطي: "ت ٩١١هـ" وهو أرجوزة تختصر متن التلخيص، وقد وضع عليها شرحًا سماه: "عقود الجمان".

وعلى المطول وضعت حاشيتا السيد الشريف الجرجاني: "ت ٨١٦هـ" وعبد الحكيم السيالكوتي الهندي: "ت١٠٦٧هـ" وعلى المختصر وضع الشيخ محمد الدسوقي المصري: "ت ١٢٣٠هـ" حاشية...

وكأن الخطيب نفسه قد شعر بما في التلخيص من شدة اختصار فأتبعه بكتاب سماه "الإيضاح لتلخيص المفتاح"، وهو فيه أقرب إلى روح عبد القاهر؛ إذ نراه يحلل ويوضح ويكثر من الشواهد والأمثلة مبرزًا ما فيها من أسرار ودقائق، وقد جمعت الشروح الثلاثة: مختصر سعد الدين، ومواهب الفتاح، وعروس الأفراح في كتاب وضع بهامشه: كتاب الإيضاح للقزويني، وحاشية الدسوقي على "المختصر" وعرف هذا الكتاب باسم: "شروح التلخيص" ويقع في أربع مجلدات.

الاتجاه الأدبي

وبالإضافة إلى الاتجاه الفلسفي الذي ظهر في المفتاح وتلخيصه وشروحه، وإلى تطبيقات الزمخشري في الكشاف، وجد اتجاه أدبي تمثل في كتاب "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" لابن الأثير: "ت ٦٣٧هـ" وكتابي: "تحرير التحبير" و"بديع القرآن" لابن أبي الإصبع المصري: "ت ٦٥٤هـ" وكتاب "الطراز" ليحيى بن حمزة العلوي: "ت ٧٠٩هـ" وقد تناولت هذه الكتب دراسة مسائل البلاغة بطريقة أدبية تذوقية، تعتمد على تحليل النصوص والشواهد، والكشف عما فيها من مواطن البلاغة والجمال دون احتفال بالتعاريف والخلافات والأقيسة المنطقية.

البديع والبديعيات

وفي القرن السابع الهجري ظهرت البديعيات في الشعر العربي، وهي قصائد يشتمل كل بيت منها على لون أو أكثر من ألوان البديع، إما تمثيلاً فقط، وإما جمعًا بين التمثيل والتورية باسم الفن الممثل له، فهي منظومات في البديع تشبه منظومات العلوم كألفية ابن مالك في النحو، وكالشاطبية في القراءات، وأول من سبق إلى هذه البديعيات هو الشاعر المصري: علي بن عثمان بن علي بن سليمان الأربلي، وهو شاعر صوفي توفي سنة ٦٧٠هـ، وقد اشتملت بديعيته على ستة وثلاثين بيتًا يتضمن كل بيت منها لونًا من ألوان البديع كتب إلى جانبه، وقد بدأها الأربلي بالغزل ثم خلص منه إلى مدح شخص غير معروف، ومنها قوله:

بعـــضُ هـــذا الـــدَّلالِ والإدلالِ حـــال بالـــهجرِ والتجنُّـــبِ حـــالي

الجناس اللفظي

ثم تلاه صفي الدين الحلي "ت ٧٥٠هـ" فنظم بديعيته في مدح المصطفى ﷺ معارضًا بها بردة البوصيري وقد عرفت باسم "نهج البردة"، فهي على وزنها ورويها وغرضها وزادت عليها في الاحتفال بالبديع، إذ بلغ عدد أبياتها خمسة وأربعين ومائة بيت، اشتملت على مائة وخمسين لونًا من ألوان البديع، ولم يفصل الحلي بين علوم البلاغة، بل تناول مسائلها تحت اسم البديع، وقد أشار إلى أنه استعان بسبعين كتابًا

في تأليف تلك البديعية، ومنها قوله:

إنْ جئتَ سَلَعًا فسلْ عن جِيرَةِ العَلَم   وَاقْرَا السَّلاَم على عُرْبٍ بذي سَلَم[١]

براعة المطلع والتجنيس

فقدْ ضَمِنتَ وجودَ الدَّمْعِ مِنْ عَدَمِ   لهمْ ولمْ أستطعْ مع ذاكَ مَنْعَ دمِي

تجنيس التلفيق

ومن البديعيات بديعية ابن جابر الأندلسي، وكان معاصرًا للحلي، وقد نشأ في بلاد الأندلس، ثم رحل إلى مصر، ونظم تلك البديعية التي سماها "الحلة السيرافي مدح خير الورى"[٢]، وشرحها صاحبه ومعاصره أبو جعفر الغرناطي شرحًا سماه: "طراز الحلة وشفاء الغلة"، وتختلف هذه البديعية عن غيرها من البديعيات بأن ناظمها قد اقتصر على ألوان البديع التي عرفت عند الخطيب كما فصل بين ألوان البديع المعنوية واللفظية فلم يخلط بينها، وتقع البديعية في مائة وسبعة وعشرين بيتًا، منها:

بِطَيْبَةَ انزِلْ وَيَمِّمْ سيِّدَ الأُمَمِ   وانْثُرْ لَهُ المدحَ وانشُرْ أَطْيَبَ الكَلِمِ

براعة استهلال

وَابْذُلْ دُمُوعَكَ واعْذِلْ كلَّ مصطبرٍ   والحَقْ بَمَنْ سارَ والْحَظْ ما علَى القَلَمِ

الجناس اللاحق

ومنها بديعية عز الدين الموصلي: "ت ٧٨٩هـ" وعدد أبياتها خمسة وأربعون ومائة بيت، وهو أول من شرع للبديعيات التقيد بالتزام التورية باسم اللون البديعي فزادها هذا الالتزام ثقلاً على ثقل، يقول في مطلعها مشيرًا إلى براعة الاستهلال:

براعةٌ تستهِلُّ الدمعَ في العلمِ   عبارةٌ عن نداءِ المفردِ العَلَمِ

ومنها بديعية ابن حجة الحموي: "ت ٨٢٧هـ" التي نظمها على طريقة شيخه

---

(١) سلع: جبل في المدينة والعلم: الجبل، وذو سلم: جبل شرقي المدينة.

(٢) السيراء: المخططة أو التي يخالطها حرير.

عز الدين الموصلي، وتقع في مائة واثنين وأربعين بيتًا، يشتمل كل بيت على لون من ألوان البديع... يقول في مطلعها عن براعة الاستهلال:

لي فيِ ابْتِدَا مدْحِكُمْ يا عُرْبَ ذي سَلَمِ   براعــةٌ تــستهِلُّ الــدمعَ في العلَــمِ

ومنها قوله مشيرًا إلى الطباق:

بوحــشةٍ بــدَّلُوا أُنــسِي وقــدْ خفــضُوا   قَــدْرِي وزادُوا عُلُــوًّا في طِبَــاقِهِمْ

وقوله مشيرًا إلى التمثيل:

وقلــتُ رِدْفُــكَ مَــوْجٌ كَــيْ أُمَثِّلَــهُ   بِالْــمَوجِ قَــالَ: قَــدِ اسْتَــسْمَنْتَ ذَا ورَمِ

واستمرت البديعيات، فرأينا بديعية عائشة الباعونية الدمشقية: "ت ٩٢٢هـ" وبديعية صدر الدين بن معصوم الحسيني المدني: "ت ١١١٧هـ" وقد ألف عليها شرحًا سماه "أنوار الربيع في أنواع البديع"، ولعبد الغني النابلسي: "ت ١١٤٣هـ" بديعيتان، أولاهما على غرار بديعية الحلي والباعونية، أي أن أبياتها لا تتضمن أسماء المحسنات البديعية، وقد سماها "نسمات الأسحار في مدح النبي المختار"، وثانيتهما على غرار بديعية الموصلي والحموي، أي أن أبياتها تتضمن أسماء المحسنات البديعية، ولمحمود صفوت الساعاتي المصري: "ت ١٢٩٨هـ" بديعية اشتملت على مائة وخمسين لونًا من ألوان البديع في مائة واثنين وأربعين بيتًا، معارضًا بها بديعية ابن حجة ملتزمًا ما التزمه من التورية باسم اللون البديعي، ومنها قوله مشيرًا إلى براعة الاستهلال:

سَفْحُ الــدُّمُوعِ لــذكرِ الــسَّفْحِ والعلــمِ   أُبْــدِي البراعــةَ في اســتهلالِهِ بــدمِ

ومنها قوله في التورية:

وكــمْ بكيــتُ عقيقًــا والبكــاءُ عــلي   بَــدرٍ وتــوريتِي كانَــتْ لبــدْرِهِمِ

إلى غير ذلك من البديعيات التي استبدت بالشعر منذ أواسط القرن السابع الهجري، والتي نستطيع أن نقول عنها: إنها صناعة من العبث، أضعفت الشعر وجردته من روائعه وهوت به إلى هاوية الإسفاف، كما جنت على البديع وفنونه

وذهبت به مذاهب التشعيب، فعد منه ما لا يصح أن يكون منه، حتى كانت الكثرة التي بلغت حد الإملال فضلاً عن أن تلك البديعيات مالت إلى التلخيص الشديد الذي احتاج إلى الشروح وتوضيح الشروح، فلم تعد على البديع بدراسة غنية مفيدة، ولم يجن منها سوى الإفراط والتفريط في تصنع ألوانه وتكلف مسمياته.

البديع بين الذاتية والعرضية

ظلت فنون البلاغة منذ أن كتب فيها العلماء وألفت المؤلفات وحتى عصر الزمخشري لا تعرف تقسيمًا ولا تمييزًا، فكانت تدرس تلك الفنون على أن حسنها حسن ذاتي يقتضيه المقام ويستدعيه الكلام، وقد مر بك حديث عبد القاهر عن بعض فنون البديع كالجناس والسجع والمزاوجة والتقسيم وحسن التعليل، ورأيت كيف يبرز المزايا البلاغية لتلك الفنون ويبين أن الحسن الكامن وراءها حسن ذاتي يرجع إلى المعنى وما يقتضيه المقام.

وبعد الزمخشري رأينا السكاكي يحصر البلاغة في علمي المعاني والبيان، جاعلاً فنون البديع وجوهًا يصار إليه لقصد تحسين الكلام، ثم قسم هذه الوجوه إلى قسمين: قسم يرجع إلى المعنى وقسم يرجع إلى اللفظ.

وجاء بدر الدين بن مالك؛ فأطلق على تلك الوجوه: علم البديع، وبهذا صارت البلاغة ثلاثة علوم، ولما جاء الخطيب ولخص المفتاح ثم وضع التلخيص، فصل البديع فصلاً كاملاً عن أخويه البيان والمعاني، وصارت البلاغة عند الخطيب ومن تبعه محصورة في علمي المعاني والبيان، أما البديع فصار علم تحسين وتزيين... وعرفه الخطيب بقوله: "هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ووضوح الدلالة"(١).

وقد جعل هذه المحسنات البديعية نوعين:

١-محسنات لفظية: وهي التي يكون التحسين فيها راجعًا إلى اللفظ أولاً وبالذات ويتبعه تحسين المعنى ثانيًا وبالعرض، وعلامته أنك لو غيرت أحد اللفظين

---

(١) تلخيص المفتاح ٣١٥.

بما يرادفه لزال ذلك المحسن، ففي قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم: ٥٥]، جناس تام بين "ساعة" و "الساعة" فهو محسن لفظي وعلامة كونه لفظيًا أنك لو غيرت كلمة "الساعة" بمرادفها فقلت: ويوم تقوم القيامة، لزال الحسن الذي خلعه الجناس على الكلام.

٢-محسنات معنوية: وهي التي يكون التحسين فيها راجعًا إلى المعنى أولاً وبالذات، ويتبعه تحسين اللفظ ثانيًا وبالعرض ويميز هذا النوع عن الأول، أنك لو غيرت اللفظ بما يرادفه لبقي المحسن كما كان قبل التغيير، ففي قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾ [النجم: ٤٣، ٤٤]، طباق بين ﴿ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ وبين ﴿ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾، والطباق محسن معنوي وعلامة كونه معنويًا أنك لو غيرت اللفظ بمرادفه فقلت في غير القرآن "أسر وأحزن" مثلاً، بقي المحسن وظل الجمال الذي خلعه الطباق على الكلام موجودًا وهذا التقسيم تقسيم غير موفق، لأن فيه فصلاً للروح عن الجسد؛ إذ الألفاظ أجساد للمعاني، ولا يظهر للألفاظ مزية إلا من خلال النظم والتركيب، ولذا ستجدنا عند دراسة ألوان البديع في القسم الثاني، لن نعتد بهذا التقسيم ولن نقيم له وزنًا.

هذا ونظرة المتأخرين -الخطيب وأتباعه- إلى فنون البديع على أنها مجرد محسنات حسنها حسن عرضي يأتي بعد تمام المطابقة ووضوح الدلالة، نظرة غير سديدة، ولا تتمشى مع نظرة المتقدمين الذين جعلوا الحسن في تلك الفنون حسنًا ذاتيًا يقتضيه المقام ويدعو إليه الحال، ولذا وجدنا غير واحد من المتأخرين يخالف الخطيب معلنًا أن تحسين "البديع" تحسين ذاتي، وليس عرضيًا، ومن هؤلاء بهاء الدين السبكي، صاحب عروس الأفراح وأبو جعفر الغرناطي في مقدمة شرحه لبديعية ابن جابر الأندلسي والشيخ أحمد موسى في كتابه "الصبغ البديعي".

يقول السبكي معلقًا على تعريف الخطيب السابق: "يحتمل أن يراد بعد معرفة رعاية تطبيقه ووضوح الدلالة، ويكون المراد: هو قواعد يعرف بها وجوه التحسين ووجوه التطبيق، ومعرفة التطبيق والوضوح سابقان على معرفة التحسين فيكون

المعاني والبياني جزءين للبديع، ويحتمل أنه قواعد يعرف بها بعد معرفة التطبيق والوضوح وجوه التحسين فلا يكون المعاني والبيان جزئين للبديع، بل مقدمتين له، وقد صرحوا بأن المراد هو الأول، وفي استخراجه من منطوق عبارة المصنف عسر؛ لأنك إذا قلت: عرفت زيدًا بعد معرفتي لعمرو، فالمخبر به معرفة زيد مقيدة بسبق معرفة عمرو. لا معرفة زيد وعمرو"(١).

ويقول في موضع آخر: "والحق الذي لا ينازع فيه منصف أن البديع لا يشترط فيه التطبيق ولا وضوح الدلالة، وأن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال، ومن الإيراد بطرق مختلفة، ومن وجوه التحسين قد يوجد دون الآخرين، وأدل برهان على ذلك أنك لا تجدهم في شيء من أمثلة البيان يتعرضون إلى بيان اشتمال شيء منها على التطبيق، ولا تجدهم في شيء من أمثلة البديع يتعرضون لاشتماله على التطبيق والإيراد، بل تجد كثيرًا منها خاليًا عن التشبيه والاستعارة والكناية التي هي طرق علم البيان، هذا هو الإنصاف وإن كان مخالفًا لكلام الأكثرين"(٢).

ويقول أبو جعفر الغرناطي في تعريف البلاغة: "هي بلوغ المتكلم في تأدية المقصود الغاية من رعاية حسن اللفظ وتوفية المعنى بحسب اقتضاء المقام".

ثم يذكر أنها راجعة إلى ثلاثة أشياء... إلى ما يحترز به عن الخطأ في خواص التراكيب وهو علم المعاني... فالبلاغة إذًا لا تحصل إلا لمن استكمل العلوم الثلاثة(٣).

ويقول الشيخ أحمد موسى: إن تعريف بلاغة الكلام الذي ذكره الخطيب بقوله: "هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، شامل لهذه الأصباغ مع التوسع في مفهوم الحال بجعله أعم مما ذكروه حتى ينطبق على أحوال البديع؛ فإذا اقتضى الحال طباقا أو تقسيمًا أو مزاوجة أو غير ذلك كان الكلام المشتمل عليها مطابقًا لمقتضى

---

(١) عروس الأفراح ٤/ ٢٨٣.

(٢) شروح التلخيص ٤/ ٢٨٤.

(٣) انظر مقدمة طراز الحلة وشفاء الغلة.

الحال، وخلوه منها غير مطابق فيكون في الأول بليغًا، وفي الثاني على خلافه وذلك أمر تقره الفطرة، ويساعد عليه ما سردناه من شواهد"[١].

وبهذا يتضح لك أن الحسن الناجم عن فنون البديع حسن ذاتي له مكانته في البلاغة ويقتضيه المقام، وهذا ما سنبرزه لك عن دراستنا لكل فن من تلك الفنون البديعية في القسم الثاني... أما نظرة الخطيب ومن لف لفه إلى كون هذه الفنون لمجرد الزينة والتذويق وكون حسنها حسنًا عرضيًا، فهي نظرة بعيدة عن الصواب تتنافى مع ما تضفيه تلك الفنون على المعاني من جمال ومزايا.

أصالة البلاغة العربية

وكنت على أن أترك هذا القسم مكتفيًا بما قلته، لأنتقل إلى القسم الثاني؛ فأتناول فنون البديع ومسائله في دراسة فنية وتحليلية لتلك المسائل كشفًا عن دقائقها وتجلية لأسرارها ولطائفها؛ لولا أنني وجدت لزامًا عليَّ- خاصة وأن الدارس قد وقف الآن على صورة بينة لنشأة هذه الفنون وتطورها- أن أقف أمام هذه القضية لأجليها للدارس، فهي قضية تستلزم الوقوف وجديرة بالتأمل والنظر والمراجعة... ألا وهي أصالة البلاغة العربية.

لقد كثر الكلام وطالت المناقشات حول هذه القضية قديمًا وحديثًا، وحلا لمن حلا له أن يحط من شأن البلاغة العربية وأن يجعلها صورة وفنونًا وعبارة، مستمدة من بلاغة اليونان وغيرهم من الأمم الأجنبية، فالبعض يجعل من أرسو المعلم الأول للمسلمين ليس فقط في الفلسفة والمنطق بل أيضًا في البلاغة والبيان، والبعض يغالي ويسرف في رد الفنون البلاغية التي تحدث عنها العلماء العرب إلى منطق أرسطو وفلسفته...

وانبهار هؤلاء بالثقافات الأجنبية وحبهم لها وشغفهم بها وجريهم وراءها، ليس فقط في عصرنا الحديث، بل هو قديم، وقد تصدى العلماء لأمثال هؤلاء نصحًا وإرشادًا وإبرازًا لفضل العرب وبيانهم وثقافتهم التي فاقت ما عند غيرهم من ثقافات.

---

(١) الصبغ البديعي ٥٠٧.

فتعالوا ننظر في هذه القضية وما أثير حولها من تساؤلات ومناقشات قديمًا وحديثا.

ففي القديم نرى الجاحظ يشيد بفضل العرب ولغتهم وثقافتهم ويجعل البديع مقصورًا عليهم حيث يقول: "والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان، وكذلك الخطابة فإنها عندهم بديهة وارتجال وكأنها إلهام، وهي عند غيرهم كلم معد وقول مزود، أي عن مشاورة ومعاونة وعن طول الفكر"(١).

فنراه يشيد بفضل العرب وتفوقهم في ميدان الفصاحة والبيان ويشير إلى سبب هذا التفوق وهو كثرة البديع في لغتهم إلى حد أن صار ما في اللغات الأخرى منه لا يعتد به لقلته فيها وكثرته في لغة العرب، وهو ينظر في ذلك إلى عصره الذي كثرت فيه الصور البديعية وتفنن فيها الشعراء...

وإذا كان الجاحظ يشيد بفضل العرب وتفوقهم، فإننا نجد ابن قتيبة ينزل تلك الثقافات الوافدة في منزلتها التي ينبغي أن تكون فيها فأين هي من دقائق الكلام في الدين والفقه والفرائض والنحو؟ يقول ابن قتيبة: "ولو أن مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقه والفرائض والنحو، لعد نفسه من البكم أو يسمع كلام رسول الله ﷺ وصحابته لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب"(٢).

ويمضي ابن قتيبة فيحث هؤلاء الذين أغرموا بتلك الثقافات الوافدة على تأمل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والنظر في أخبار الصحابة وفي علوم الدين ولغة العرب وآدابها، والإقلاع عن تلك الثقافات الوافدة، فإنها ترجمة تروق بلا معنى، واسم يهول بلا جسم، فأولى لهم وأجدر أن ينشغلوا بالدراسات العربية الأصيلة فهي واضحة المعالم ودانية الثمار...

ومن ابن قتيبة إلى عبد القاهر الذي نراه يثبت الفضل للعربية والسبق للعرب

---

(١) البيان والتبيين ٤/ ٥٥.

(٢) مقدمة أدب الكاتب.

فهم القدوة في ميدان الكلام والبيان ومن عداهم تابع لهم وقاصر عنهم، يقول الجرجاني: "معلوم أن سبيل الكلام سبيل ما يدخله الفاضل وأن للمتفاضل فيه غايات ينأى بعضها عن بعض ومنازل يعلو بعضها بعضًا، وأن علم ذلك علم يخص أهله، وأن الأصل والقدوة فيه للعرب، ومن عداهم تابع لهم وقاصر فيه عنهم..."(١).

ومن عبد القاهر إلى ابن الأثير لنراه ثائرًا على الثقافات الأجنبية منكرًا أن يكون لها أي أثر في كتَّاب العرب وعلماء البيان حتى في أولئك الذين انحدروا من أصل أعجمي وتصدوا للكتابة والإنشاء... فالعربي البدوي ما كان يعرف جزئيات المنطق ولا تفريعات الفلسفة، وما كان يخطر بباله شيء منها، وعلى الرغم من ذلك كله كان يأتي بالسحر الحلال إن قال شعرًا أو تكلم نثرًا...

وتجد في "المثل السائر" هذه المحاورات التي دارت بينه وبين محبي الثقافات الوافدة والمولعين بها، وذلك حين وجه إليه سؤال بأن هذا الذي قاله كان في العرب القدماء فطرة طبعوا عليها وخلقوا فيها كما طبع غيرهم من بني آدم على فطر مختلفة فالتركي فطر على حسن الرمي، والصيني على إتقان الصنعة والمغربي على الشجاعة وهكذا...

ويجيب ابن الأثير بقوله: "إن سلمت إليك أن الشعر والخطابة كانا للعرب بالطبع والفطرة؛ فماذا تقول فيمن جاء بعدهم من شاعر وخطيب تحضروا وسكنوا البلاد ولم يروا البادية ولا خلقوا فيها وقد أجادوا في تأليف النثر والشعر وجاءوا بمعان كثيرة ما جاءت في شعر غير العرب، ولا نطقوا بها؟.

ورد بأن أولئك المحدثين قد وقفوا على ما ذكره علماء اليونان وتعلموا منهم، ولكنه يجيب بأن هذا شيء لم يكن ولا علم أبو نواس شيئًا منه ولا أبو تمام ولا البحتري ولا أبو الطيب المتنبي ولا غيرهم، وكذلك جرى الحكم في أهل الكتابة كعبد الحميد وابن العميد والصابي وغيرهم... فقيل له: وما يدريك أن هؤلاء الذين ذكرتهم لم يتعلموا من كتب اليونان؟

---

(١) الشافية: ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ١١٧.

فيضرب المثل بنفسه ويستشهد بذاته قائلاً: هذا باطل بي أنا، فإني لم أعلم شيئًا مما ذكره حكماء اليونان ولا عرفته ومع هذا فانظر في كلامي، فقد أوردت لك نبذًا منه في هذا الكتاب، وإذا وقفت على رسائلي ومكاتباتي وهي عدة مجلدات، وعرفت أني لم أتعرض لشيء مما ذكره حكماء اليونان في حصر المعاني، علمت حينئذ أن صاحب هذا العلم من النظم والنثر بنجوة من ذلك كله، وأنه لا يحتاج إليه أبدًا، وفي كتابي هذا ما يغنيك وهو كافٍ..."(١).

وبهذا يتضح لك أن علماء السلف قد تصدوا لهؤلاء الذين انساقوا وراء الثقافات الأجنبية، مبطلين ما رددوه من تأثر الشعراء والكتاب والبيان العربي بتلك الثقافات، فالعرب هم القدوة... هم أصحاب البيان وأرباب الفصاحة... ومن عداهم تابع لهم وقاصر عنهم... العرب لغتهم فاقت كل لغة ولسانهم أربى على كل لسان.

فإذا ما تركنا القدماء وانتقلنا إلى العصر الحديث وجدنا جدالاً يقوى، ونقاشًا يثار ويشتد حول البلاغة ومدى تأثرها بالفلسفة والمنطق والثقافات الوافدة، فقد أنكرت فئة من الباحثين أصالة البلاغة العربية، وزعموا أنها مستمدة من الثقافات الأجنبية، وتزعم هذه الفئة الدكتور طه حسين، ودار في فلكه كثيرون منهم: إبراهيم سلامة، وأمين الخولي وشوقي ضيف وسلامة موسى، وغيرهم... وسنعرض عليك الآن ما ردده هؤلاء وأثاروه، ثم نعقب بما يبين لك وجه الصحة والصواب في تلك القضية.

يرى الدكتور طه حسين أن أرسطو هو المعلم الأول للمسلمين في علم البيان، كما كان معلمهم في الفلسفة والمنطق، وقد أعلن ذلك في بحثه الذي طلع به على العالم الإسلامي في مؤتمر المستشرقين المنعقد في الثاني عشر من سبتمبر سنة ١٩٣١ م بمدينة "ليدن" بعنوان: "البيان من الجاحظ إلى عبد القاهر... وفي هذا البحث نرى حملته على الجاحظ، إذ يقرر أنه تعصب للعرب ضد الأمم الأخرى وخاصة اليونان والفرس؛ حيث قصر البديع على العرب، وهذا يدل على أنه لم يعرف شيئًا عن كتاب

---

(١) ارجع إلى تلك المحاورة في المثل السائر ٢/ ٣ وما بعدها.

الخطابة لأرسطو، ثم يذكر أنه يناقض نفسه حينما يثبت للعرب وحدهم كل الشأن في البلاغة، ثم يعود فيشرك معهم غيرهم من الفرس والهند والروم في البيان، ويقول إن قارئ كتاب الجاحظ يخرج بنتائج ثلاث:

١- أنه كان للعرب نقد في العصر الجاهلي دونوه، وأن هذا النقد كان سليمًا مبنيًا على الذوق أولاً، ثم انتهى إلى كشف بعض العيوب وإلى استخلاص بعض نصائح قدموها للكتاب والخطباء.

٢- أن أخلاطًا كثيرة كانت تعيش في البصرة والكوفة خدموا الثقافة العربية عن طريق النقل.

٣- أن طبقة الكتاب التي ظهرت في بلاط الخلفاء في نهاية القرن الثاني الهجري، وكان أغلبهم من الأعاجم، قد وضعوا معالم يسير عليها الكتاب، وينسجون على منوالها، ولذا؛ فإن البيان العربي إلى منتصف القرن الثالث الهجري لا يمكن أن يكون عربيًا صرفًا أو أعجميًا محضًا، بل هو بيان غير تام أبوابه قائمة على صحة الحروف ومخارجها. والكلام على سهولة اللفظ والعلاقة بين الألفاظ والمعاني، فهو نسيج جمعت خيوطه من البلاغة العربية في المادة واللغة، ومن البلاغة الفارسية في الصورة والهيئة، ومن البلاغة اليونانية في الملاءمة بين أجزاء العبارة.

ويمضي فيذكر أن العقائد المذهبية وجدلها وفلسفة المتكلمين قد حولت البلاغة إلى فلسفة ومنطق، مما جعل البحتري يثور على هذا الوضع قائلاً:

كَلَّفْتُمُونَا حُدُودَ مَنْطِقِكُمْ والشِّعْرُ يُغنِي عَنْ صِدْقِهِ كَذِبُه

ولمْ يكُنْ ذوُ الْقُرُوحِ يَلْهَجُ بِالْـمَنْطِقِ ما نوعُه وما سببُه

والشِّعْرُ لمْحٌ تَكْفِي إشارتُه وليس بالهُذْرِ طُوِّلَتْ خُطَبُه

ثم يذكر بعد ذلك دور الفلسفة الإسلامية ونقلها عن الفلسفة الإغريقية، وموقف ابن سينا وابن رشد من كتاب الخطابة لأرسطو، وأن تعريب هذا الكتاب وجعله في متناول الفكر العربي، قد هيأ أسباب التوفيق بين البيان العربي والبيان اليوناني اللذين عاشا متجاورين دون أن يتلاقيا ويتآلفا، وكان تلاقيهما على يد عبد

القاهر الذي قرأ الفصل الخاص بالعبارة في كتاب ابن سينا وتأمله، وكان من أثر هذا التأمل أن صار عبد القاهر تلميذًا لأرسطو، فإذا تكلم عبد القاهر عن الاستعارة فهو يشرح ما ذكره أرسطو في الصورة، وإذا تكلم في صور المجاز المرسل فهو يشرح ما ذكره في إطلاق اسم الجنس على النوع واسم النوع على الجنس، أما إذا تكلم في المجاز الحكمي فهو من ابتكاراته، لأن هذا المجاز ليس في كتاب أرسطو، ويصح أن نسميه المجاز الكلامي، لأنك إذا قلت مع عبد القاهر: أنبت الربيع البقل، فهو مجاز؛ لأن الربيع لا ينبت البقل ولكن الذي ينبته هو الله تعالى، وينفق عبد القاهر جهدًا غير قليل في الدفاع عن مجازه هذا وفي تمييزه عن المجاز المعروف، ولكن لا شك أن الأساس المعروف الذي بني عليه هذا التمييز محل نظر... وكأنه يشير إلى عدم تقبله الفروق الدقيقة التي فرق بها عبد القاهر بين المجازين، ويرى أن الأفضل أن يكون مجازًا واحدًا هو مجاز أرسطو... وينتهي الدكتور في بحثه إلى النتيجة التي أعتقد أنه قد أقرها قبل أن يبدأ فيه وهي أن أرسطو كان المعلم الأول للمسلمين ليس فقط في ميدان الفلسفة والمنطق، بل أيضًا في علم البيان(١).

وكان الدكتور طه حسين مسموع الكلمة؛ فانتشرت مقالته هذه وتغلغلت في نفوس الكثير من الدارسين، فساروا في تياره ونسجوا على منواله؛ إذ نرى الدكتور إبراهيم سلامة يقرر في كتابه: "بلاغة أرسطو بين العرب واليونان" أن البيان العربي قد ابتدأ بالجاحظ حقًا ولكنه بيان مخلوط قد اشتبك فيه النقد مع القاعدة البلاغية، والتقت فيه عدة ثقافات أحرزها الجاحظ وعرف بها، فتمثلت في نفسه تمثيلاً استخرج عصارته الأخيرة، وهضمت هضمًا أحال طبيعتها إلى طبيعة أخرى تبدو في شكلها الجديد بعيدة الصلة بين نهايتها وبين مصادرها الأولى.

ثم يتدرج مع علماء البلاغة الذين كان لهم أثر كبير في تطور البلاغة العربية صورة وفكرة وقاعدة مبينًا مدى تأثر كل منهم بالبلاغة اليونانية وإفادته بهذا التأثر البلاغة العربية في شكلها وموضوعها، فبينما يرى أن الجاحظ تأثر في بلاغته باليونانية يرى أن ابن المعتز قد عرض لبلاغة عربية المثل، عربية المأخذ، يستشهد لها

---

(١) ارجع إلى مقدمة نقد النثر.

من الكتاب والسنة، وما عرف من الأدب الجاهلي، ثم يقرر أن قدامة تأثر بأرسطو تأثرًا كبيرًا، ظهر واضحًا في كتابه: "نقد النثر" وما يحتويه من فكر وألوان ونظريات بلاغية ونقدية، وقد مر بك أن الكتاب لابن وهب وليس لقدامة.

ونرى الدكتور يردد كلمتي "النقل والأخذ" في إصرار منه على أن العرب نقلوا بلاغتهم وأخذوا معظم أبوابها من اليونان، وتشعر وأنت تقرأ كتابه أنه يسلم بهذا النقل؛ إذ يدافع عن العرب مبررًا أن الأخذ أو النقل لم تنقصه الفطنة، ولم يغب عنه ذكاء العقل العربي الذي تصرف فيما نظر وأخذ، والذي اقتطع مما نقل فأخذ منه ما يتفق مع اتجاه أدبه... وأن العرب أخذوا ما أخذوا عن البلاغة اليونانية، ولكنهم جددوا فيها وبسطوا بل وقعدوا مما يثبت لهم شخصيتهم العقلية فيما أخذوا، كما أنهم لم ينقلوا إلى بلاغتهم إلا ما اتفق مع أدبهم، وقد وجدوا في كتابهم وحده بل في ميراثهم الأدبي الواسع ما يتحمل هذه القواعد المنقولة... وبحسب العرب تفردًا في باب الشخصية أنهم لم ينقلوا آداب غيرهم، بل نقلوا إلى أدبهم ما ينطبق على الآداب اليونانية التي عاشت عليها أوروبا عدة قرون، ووجدوا في أدبهم ما يمثل كل قاعدة وما يصح أن يكون مثلاً لكل تطبيق ومعنى، ذلك أن أدبهم ينزل منازل الآداب الكبرى التي عاش عليها العالم(١).

ويمضي الأستاذ أمين الخولي في نفس الاتجاه فيقول: "وبالرجوع إلى ما يحفظ الصورة الأصلية لخطابة أرسطو نجد أنه قد تصدى لأبحاث بلاغية كثيرة تكاد تكون جمهرة ما بأيدينا من أبحاث بلاغتنا، أو هي على الأقل أنواع كثيرة من فنونها الثلاثة..."(٢)، ثم يستمر في عد جميع أبواب البلاغة وردها إلى كتاب أرسطو.

وننتقل إلى الأستاذ سلامة موسى الذي نجده يعتبر المنطق أساسًا من أسس البلاغة؛ إذ يذكر في كتابه: "البلاغة العصرية واللغة العربية"، أن المنطق أساس البلاغة، وأن البلاغة بفنونها المختلفة الآن ولغتنا العربية تخاطب العواطف دون العقل وهذا -في اعتقاده- ضرر عظيم ثم لا يلبث أن يصرح بشغفه وحبه لغير

---

(١) ارجع إلى بلاغة أرسطو بين العرب واليونان.

(٢) البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ص ١٥.

العربية فيذكر أن هناك تعابير لغوية كبيرة الضرر على مجتمعنا، ومن أسوئها في مصر، وفي عصرنا الحاضر هاتان الكلمتان: "شرق وغرب" فإن كلمة "شرق" توحي إلينا بعداء مع أدباء أمريكا وهم المتمدنون السائدون في العالم، فعداؤنا يغرس في نفوسنا كراهية التمدن... ثم يدعو إلى العامية واتخاذها لغة الكتابة والأدب والانقطاع نهائيًا عن تراثنا ومقومات شخصيتنا، كما يدعو إلى القضاء على الجزالة والقوة في الأساليب(١).

وهذا عبث وهراء، فدعوته للعامية لا تستحق مجرد المناقشة، بل لا تستحق مجرد الذكر هنا، ودعوته إلى القضاء على الجزالة عبث لا يقال، لأن الكتابة لا تحيا بغير الأسلوب، والكتاب الجامع شتات الحكمة يولد ميتًا إذ أعوزه الأسلوب القوي الجزل.

أما الدكتور شوقي ضيف فنراه في كتابه: "البلاغة تطور وتاريخ" يركب نفس الموجة؛ إذ يبالغ في رد ما قاله البلاغيون إلى أرسطو والثقافة اليونانية، بدل أن يربط هذه الأقوال بعضها ببعض، ويبرز مدى التأثر والتأثير بين السابق واللاحق.

اقرأ قوله: "وهذا القسم الثالث من كتاب "الخطابة" لأرسطو يقابل ما سماه العرب بالبلاغة... فقد كان قسمًا عامًا لا يختص بلغة ولا بأمة معينة، وقد وضع فيه أرسطو ببصيرته النافذة الأصول البلاغية العامة للعبارة بحيث يمكن تطبيقها على جميع الآداب يونانية وغير يونانية، ومن أجل ذلك اتسع تأثيره في البلاغة العربية، وأقبل المتفلسفة بعد نقل هذا الكتاب وكتاب الشعر يحاولون أن يضعوا قواعد البلاغة في لغتنا على ضوء ما تمثلوه منهما وما ثقفوه من كتابات أرسطو في المنطق والجدل..."(٢).

ثم اقرأ حديثه بعد ذلك عن قدامة وعبد القاهر وغيرهما فستجد أنه يحاول جاهدًا الربط بين ما قاله هؤلاء العلماء وما جاء عن أرسطو، فقدامة عندما يقول:

---

(١) ارجع إلى البلاغة العصرية واللغة العربية.

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ٧٨.

"الشعر صناعة" فهو قول يستمده مباشرة من مقدمات أرسطو في كتابه "فن الشعر"، وعندما يتحدث عن صحة التقسيم ويقول عنها: "أن يستوفي الشاعر جميع الأقسام لما ابتدأ به كقول نصيب":

فقـــالَ فريـــقُ القـــومِ: لا، وفـــريقُهُم نعـمْ وفريـقٌ قـالَ: وَيحْـكَ مَـا نَـدْرِي

فليس في أقسام الإجابة عن مطلوب إذا سئل عنه غير هذه الأقسام "فهو يجلب هذا المصطلح من كلام أرسطو في الخطابة؛ إذ على الرغم من أن الجاحظ قد نوه من قبل بحسن التقسيم والتفصيل، وقد أثبت الدكتور ذلك إلا أنه يظن ظنًا أن قدامة إنما جلب اصطلاحه من حديث أرسطو في "الخطابة" عن صورة تأليف الكلام بذكر الأقسام ودقة عرضها فيه... وعندما يتحدث عن صحة المقابلات وهي أن يرتب الشاعر معانيه ترتيبًا يوفق فيه بين طائفة منها ويخالف بين طائفة ثانية بحيث تتقابل في وضوح كقول بعض الشعراء:

فوَاعجبًـــا كيـــفَ اتَّفَقْنَـــا فناصِـــحٌ وفيٌّ وَمَطْـــوِيٌّ عـــلَى الْغِـــلِّ غَـــادِرُ

إذ قابل بين النصح والوفاء بالغل والغدر، فهذا يدخل عند ابن المعتز في المطابقة، ولكن مما لا شك فيه عند الدكتور أن قدامة استمد هذا المصطلح كما استمد سابقه من أرسطو في الخطابة وحديثه عن تأليف العبارة، بل وحري بالدكتور أن يورد نص كلام أرسطو كما جاء عند ابن سينا...

وعبد القاهر الذي حلل نظرية النظم، وجلاها تجلية وساق لها الشواهد والأمثلة وأفاد في ذلك من كلام السابقين وخاصة من كلام الجاحظ وعبد الجبار- كما مر بك- إنما كان يصدر - في رأي الدكتور- عن كلام أرسطو... يقول فضيلته: "وفي تلخيص ابن سينا لكتاب "الخطابة" لأرسطو قطعة تلتقي بنفس هذه الفكرة، وهي تمضي على هذا النحو": "وأما اللفظ المتخلخل وهو المقطع مفردًا مفردًا فهو شيء غير لذيذ؛ لأنه لا يتبين فيه الاتصال والانفصال في الحدود التي لا تتناهى إليه القضايا وغير القضايا أيضًا التي هي مثل النداء والتعجب والسؤال إذا تمت، فإن لكل شيء منها حدًا وطرفًا يجب أن يفصل عن غيره بوقفة أو نبرة فيعلم، وإذا كان الكلام مقطعًا ليس فيه اتصالات وانفصالات لم يلتذ به".

ولا نشك في أن عبد القاهر كان يصدر في أثناء كتابته للفكرة السابقة عن كلام أرسطو في الخطابة مما نقلناه ومما يتصل بسببه[١].

تعقيب

ذكرنا في الصفحات الأولى من هذا الكتاب أن الفنون البلاغية من طباق وجناس واستعارة وكناية وتشبيه وغير ذلك، قد وردت في الشعر الجاهلي، وضربنا لها شواهد كثيرة، ولما نزل القرآن الكريم على نبينا محمدﷺ بلسان عربي مبين، وقد حوى تلك الصور البلاغية التي عرفها العرب في شعرهم ونثرهم، وأقبل الناس على دراسته وتأمله وتبين أوجه إعجازه، استخرجوا تلك الصور، ووقفوا طويلاً لتأملها والنظر فيها وقد مرت بك نشأة هذه الدراسات ومراحل نموها وتطورها.

والذي نريد أن نقرره الآن أن علماءنا الأوائل الذين تأملوا تلك الفنون في الشعر وفي القرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال الصحابة، ووضعوا لها التسميات والمصطلحات لم يستمدوها من البلاغة اليونانية، وأقوى دليل على ذلك أنك تجد المعاني الاصطلاحية لهذه الألوان شديدة الصلة بالمعاني اللغوية الموضوعة لها، ولكي يتضح لك هذا عد إلى تلك الملاحظات التي كانت تتردد على ألسنة الشعراء قديمًا "لقد قللت جفانك... لو قلت يشرقن بالدجى لكان أكثر... باعدت في القول أين الأنس من الشنب... ليس لشعره قران"... فهي بمثابة الجذور التي انبسقت منها فيما بعد مصطلحات: المبالغة ومراعاة النظير ووحدة السياق.

وعد إلى تعريف الخليل بن أحمد: (ت ١٧٠هـ) للمطابقة، وإلى قول الأصمعي: (إن أصلها من وضع الرجل في موضع اليد في مشي ذوات الأربع)، وإلى حديث أبي عبيدة عن الالتفات بمعنى تنزيل الشاهد منزلة الغائب أو الغائب منزلة الشاهد أي انتقال المتكلم بالكلام من صيغة إلى صيغة، فهو بمثابة الملتفت الذي يغير اتجاه سيره...

وهكذا تأمل الفنون البلاغية وانظر في معانيها الاصطلاحية واللغوية فستجد

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ١٧٢، وارجع إلى الصفحات ٨١، ٨٦، ٨٧.

صلة قوية بين المعنيين، الأمر الذي يؤكد أن تلك المصطلحات عربية أصيلة وليست مستمدة من ثقافات غير عربية... وبهذا نستطيع القول أن البلاغة فنونًا ومصطلحات، أي: ألوانًا وتسميات عربية أصيلة، وجدت فنونًا وألوانًا في تراثنا العربي وأخذت واشتقت تسميات ومصطلحات من أصل العربية...

ولذا تصدى علماء السلف لأولئك الذين أنكروا أصالة البلاغة العربية، واندفعوا يلهثون وراء الثقافات الأجنبية مغرمين بها... فبينوا لهم أن تلك الثقافات خاوية مما ظنوه موجودًا بها، وأن البديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، فهم القدوة ومن عداهم تابع لهم وقاصر عنهم...

ولعل سبب اندفاع هؤلاء الذين اندفعوا وراء الثقافات الأجنبية يرجع إلى أن مراجعة جهود السلف لمعرفة نشأة البلاغة وتطورها يحتاج إلى دقة وجهد للوقوف على مدى التأثر والتأثير بينهم... وإلى أن البلاغة اليونانية وخاصة في هذه الفصول التي تتعلق ببناء العبارة وتكوين الجمل قريبة جدًا من البلاغة العربية، فاستسهل هؤلاء الأمر، وانقادوا وراء البلاغة اليونانية، وبدل أن يصبروا ويتأنوا في مراجعة تراث السلف، ادعوا تأثر بلاغتنا العربية واستمدادها من تلك الثقافات...

وعندما ننظر فيما أثاره أولئك المحدثون المنكرون لأصالة البلاغة العربية نجده غير قائم على شيء ذي بال: بل إن مرده إما إلى الاشتباه على هؤلاء والتباس الأمر عليهم، وإما إلى عدم صبرهم في مراجعة كتب التراث العربي -كما قلت- فلست أرى داعيًا لحملة طه حسين على الجاحظ وادعائه أنه يتناقض في القول حيث يقصر البديع على العرب ثم يعود فيشرك معهم غيرهم؛ لأنا إذا عرفنا مراد الجاحظ بذلك، وقد أوضحناه فيما سبق، علمنا أنه لا تناقض، فالأمر إذًا مرده إلى اللبس وعدم الفهم الدقيق لمراد الجاحظ...

وأرسطو ليس هو المعلم الأول للمسلمين في علم البيان -كما زعم- بل إن مسائل البيان نمت وتطورت خلال قرون طويلة، وأثر السابق من علماء المسلمين في اللاحق حتى استقرت مسائل البلاغة على ما استقرت عليه... فالمجاز العقلي مثلاً الذي يزعم الدكتور أنه من ابتكار عبد القاهر، ليس من ابتكاره، ولو صبر الدكتور

وراجع تراث السلف مراجعة دقيقة لوضح له ذلك ولعلم أنه قد ورد عند سيبويه والفراء وابن قتيبة وغيرهم ثم جاء عبد القاهر؛ فأفاد مما ورد عند السلف وشرح وحلل وفرق وبين، وكذا فعل في كل ما تحدث عنه من فنون البلاغة ليس فقط في المجاز العقلي...

ولكن الدكتور لإصراره على أن يكون أرسطو هو المعلم الأول، لما لم يجد المجاز العقلي عنده جعله من ابتكار عبد القاهر ليس هذا فحسب، بل حاول أن يقلل من شأنه وأن يوهم بأن الفروق التي ذكرها عبد القاهر بين المجازين العقلي واللغوي فروق واهية ومحل نظر وكأنه يريد أن يرده إلى المجاز اللغوي الذي جاء عند أرسطو.

ولو تركنا ما أثاره طه حسين ونظرنا إلى ما أثاره الذين ساروا في فلكه ونهجوا نهجه وجدنا إصرارًا وإسرافًا وتعنتًا في محاولتهم رد ما قاله علماء العرب إلى أرسطو والربط بين ما تحدث عنه أولئك العلماء وأشاروا إليه وبين كتابات أرسطو في الخطابة والشعر والمنطق...

فمثلاً عندما يقول قدامة: "الشعر صناعة وكل صناعة لها طرفان، غاية في الجودة وغاية في الرداءة وبينهما وسائط"، يستمد قوله هذا -في زعم شوقي ضيف من كتابات أرسطو، فلم لا نقول إنه يستمد من رسالة بشر بن المعتمر التي رواها الجاحظ؛ فقد تحدث فيها عن الشعر والشعراء، وجعل الأديب في إحدى منازل ثلاث وسمى الشعر حرفة... فبشر أقرب لقدامة من أرسطو، والأولى أن نربط بين رسالة بشر ونقد الشعر، لا بين نقد الشعر وكتابات أرسطو... الأمر إذًا يحتاج إلى دقة في المراجعة والاستنباط وإعمال الفكر في تأمل تراثنا والربط بين السابق واللاحق، فبهذا تتحقق أصالة البلاغة، وتتأكد، وهذا ما ينبغي أن نصنعه، أما أن نجري وراء هؤلاء ونسرف ونغالي في الربط بين ما قاله علماؤنا العرب وبين الثقافات الوافدة متهمين بلاغتنا بعدم الأصالة، فهذا ما ينبغي ألا يكون... ينبغي أن ينمحي ويزال...

وإياك أن تفهم أننا ننكر التأثر والتأثير بين الثقافات المختلفة عندما تلتقي،

فهذا شيء واقع ولا ينكره أحد، والاحتكاك بين الثقافات دائمًا ينشأ عنه تأثر لا ينكر، ولكن الذي ننكره هو الإسراف والمغالاة في إثبات التأثر سواء أوجد أم لم يوجد... وهذا التأثر يختلف بطبيعة الحال من عصر لعصر، بل من شخص لآخر، على نحو ما مر بك في تتبعنا لنمو البلاغة وتطورها...

وعندما قوى واشتد تأثر البلاغة العربية بالفلسفة والمنطق في عهد السكاكي وأتباعه، ضعفت البلاغة وكثرت التقسيمات والتفريعات، وتخلت عن الروح الأدبية التي من شأنها تنمية الأذواق وتربية المواهب والملكات... وذلك أن هذا الاتجاه المنطقي قد اهتم بالقاعدة والضبط وتحديد المسائل، وهذا وحده لا يكفي في الدراسة البلاغية، بل ينبغي الجمع بين القاعدة الضابطة وبين الشواهد والأمثلة التي تنمي الذوق وتربي الملكة والموهبة....

وعلى كل؛ فإن هذا التأثر لا ينفي أصالة البلاغة العربية التي وقفت في هذا القسم على نموها وتطورها خلال العصور المختلفة.

☆☆☆

القسم الثاني

فنون البديع

دراسة تحليلية ونقدية

لمسائل علم البديع

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، نبينا محمد وعلى آله وصحابته ومن سلك مسلكه ونهج نهجه إلى يوم الدين...

أما بعد: فقد وقف الدارس للقسم الأول من هذا الكتاب على أصول البلاغة، وألم بنمو الدراسات البلاغية، وأحاط بمدى التأثر والتأثير بين أولئك الأعلام الذين ألفوا فيها، واتَّضحت له أصالة البلاغة العربية...

أما في هذا القسم فسنعرض لفنون البديع ومسائله، وغايتنا هي تجلية هذه الفنون، والكشف عن دقائقها وأسرارها، وقد عرف الدارس من خلال القسم الأول رأينا في تلك الفنون، وأننا لا نسلم بكونها لمجرد الزينة والزخرفة، بل نقرر أن تحسينها تحسين ذاتي، يقتضيه المقام، ويستدعيه الحال، كما أننا لا نوافق على تقسيم هذه الفنون إلى محسنات معنوية وأخرى لفظية؛ إذ لا يتأتى الفصل بين اللفظ والمعنى، فالألفاظ أجساد للمعاني، ولا يظهر للفظ مزية إلا من خلال النظم الذي يسلك فيه، وعندما تتأمل الألوان البديعية التي وضعت في القسم المعنوي، ثم تنظر إلى ألوان القسم اللفظي يتضح لك ضعف هذا التقسيم؛ إذ لا تجد فرقًا بين تلك الألوان، أو بمعنى آخر لا تلمس فرقًا بين الحسن الذي يضفيه اللون من هذه الألوان على المعنى وتكتسبه الصياغة والعبارات والحسن الذي يضفيه اللون الآخر...

ولذا فلن نعتد بهذا التقسيم، وسيكون هدفنا -كما قلت- تجلية هذه الألوان، والكشف عن دقائقها، وإبراز مكانتها البلاغية، وبيان وإيضاح أن الزينة المنبعثة منها زينة ذاتية يقتضيها المقام، وليست زينة عرضية شكلية تأتي بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ووضوح الدلالة.

فالله عز وجل أسأل أن ينفع بهذا الكتاب طلبة العلم ومحبي المعرفة وأن يجزينا خير الجزاء ويهدينا صراطه المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

المؤلف

د/ بسيوني عبد الفتاح

الطباق

الطباق ويقال له أيضًا: المطابقة، والتطبيق والتضاد، ومعناه في اللغة: الموافقة، يقال: طابقت بين الشيئين إذا جمعت بينهما على حذو واحد، ويقال: طابق البعير، أي: وضع رجله في موضع يده... قال النابغة الجعدي:

وخيـــلٍ يُطَـــابِقْنَ بالـــدَّارِعِينِ طِبَـــا ... قَ الكِـــلاَبِ يَطَـــأْنَ الْهَرَاسَـــا

الهراس: حطام الشوك، شبه مشي الخيل بالفرسان، وهي تضع أرجلها في موضع أيديها، بوطء الكلاب حطام الشوك فهي لا تضع أرجلها إلا حيث رفعت أيديها طلبًا للسلامة، ولذا قال الأصمعي: "المطابقة أصلها وضع الرجل موضع اليد في مشي ذوات الأربع"... وفي النظم الكريم ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ﴾ [الملك: ٣]، أي: محكمات، متوافقات بعضها فوق بعض من غير مماسة في نظام بديع عجيب...

أما في اصطلاح البلاغيين فمعناه: الجمع بين الشيء وضده في كلام أو في بيت شعر، كالجمع بين الليل والنهار، وبين البياض والسواد، وبين الحسن والقبح، وبين يسعد ويشقى ويظهر ويبطن ويحيي ويميت، ويعز ويذل، وكذلك الجمع بين حرفين متضادين كالجمع بين "اللام وعلى"، في قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ففي "اللام" معنى المنفعة وفي "على" معنى المضرة، وهما متضادان... وكالجمع بين "في وعلى" في قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

ففي "على" معنى الارتفاع والعلو، وفي "في" معنى الانغماس والانحطاط وهما متضادان... والمراد بالتضاد: تقابل المعنيين، فالتضاد. هنا تتسع دلالته لتشمل التقابل بالتضاد والتناقض حسب اصطلاح المنطقيين، إذا الضدان عند المناطقة لا يجتمعان ولكن قد يرتفعان، كالبياض والسواد، والمتناقضان عندهم لا يجتمعان ولا يرتفعان كالحياة والموت، والتضاد في باب الطباق يشمل الأمرين معًا...

وجه المناسبة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي

إذا كان المعنى اللغوي للطباق هو الموافقة والمعنى الاصطلاحي له هو الجمع بين الضدين في كلام أو في بيت شعر، فهل هناك وجه مناسبة بين المعنيين؟... يرى بعض البلاغيين أنه لا مناسبة بين المعنيين، ويرى آخرون -وهو الأرجح- أن هناك مناسبة تجمع بينهما ومردها إلى أمرين:

أولهما: أن الذي يجمع بين الضدين في كلام منثور أو في بيت شعر، فهو يوفق بين الضدين في هذا الكلام.

ثانيهما: أن الطَّبَق بالتحريك معناه في اللغة: المشقة، قال تعالى: ﴿ **لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ** ﴾ [الانشقاق: ١٩]، أي: مشقة بعد مشقة، فلما كان الجمع بين الضدين على الحقيقة وفي الواقع شاقًا، بل متعذرًا، سموا كل كلام جمع فيه بين الضدين طباقًا ومطابقة وتطبيقًا.

مغزى الجمع بين الأمور المتضادة

ما من ريب في أن الجمع بين الأمور المتضادة يكسو الكلام جمالاً ويزيده بهاء ورونقًا. فالضد -كما قالوا- يظهر حسنه الضد، ولكن وظيفة الطباق لا تقف عند هذا الزخرف وتلك الزينة الشكلية، بل تتعداها إلى غايات أسمى، فلابد أن يكون هناك معنى لطيف ومغزى دقيق وراء جمع الضدين في إطار واحد، وإلا كان هذا الجمع عبثًا وضربًا من الهذيان... ولننظر في قول الله عز وجل: ﴿ **وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ** ﴾ [القصص: ٧٣].

فقد جمعت الآية الكريمة بين الليل والنهار، وهما نعمتان من نعم الله على عباده، ورحمة منه عز وجل بهم ثم ذكرت العلة من جعل الزمان ليلاً ونهارًا، لنسكن ليلاً ونسعى ونتحرك نهارًا، والحركة ينبغي أن تكون لمصلحة وابتغاء من فضل الله تعالى، لا إفسادًا في الأرض، ولذا أوثر التعبير بابتغاء الفضل دون الحركة، فالحركة تكون للإصلاح وللإفساد، وابتغاء الفضل لا يكون إلا إصلاحًا، وفي ذكر العلة كما ترى جمع بين ضدين السكن وابتغاء الفضل، وفي الجمع بين الضدين في صدر الآية، ثم في عجزها حث للمؤمن ليتأمل هذه النعمة، لم كان الزمان ليلاً ونهارًا، سكنًا

وابتغاء، وكيف يكون الحال لو كان الزمان نهارًا سرمدًا إلى يوم القيامة أو ليلاً سرمدًا إلى يوم القيامة؟

ولذا دعانا سبحانه وتعالى للتأمل والنظر والتدبر في قوله عز وجل: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢]...

ولنتأمل قوله عز وجل: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧]، نجده قد جمع بين أفعال متضادة، (تؤتي وتنزع) و(تعز وتذل) وبين أسماء متضادة (الليل والنهار)، (الحي والميت): وهذا الجمع يبرز مدى قدرة الخالق عز وجل وهيمنته وسلطانه القاهر، فهو الذي يستطيع أن يؤتي من يشاء من عباده الملك وينزعه ممن يشاء، متى شاء، لا راد لمشيئته، وهو الذي يستطيع إذلال من يشاء، وإعزاز من يشاء، متى أراد وكيف شاء دون اعتبار لمقاييس البشر فيمن يستحق العزة ومن يستحق الإذلال.. ثم نلاحظ التدرج في القدرة والغلبة والقهر والهيمنة، فإذا كان في البشر من يستطيع بماله وجاهه وسلطانه أن يعطي ويمنع، وأن يعز ويذل على وجه من الوجوه، فقد جاءت الآية الثانية بأمور متضادة، ينفرد بها المهيمن عز وجل، وهي إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي، فمن ذا الذي يدعي قدرة على ذلك؟ إنها أمور ينفرد بها القادر سبحانه وتعالى... وبهذا يتضح لنا أن الطباق ليس قاصرًا على الزينة والزخرف وليس الهدف منه مجرد التزويق الشكلي، بل يتجاوز ذلك إلى أهداف أسمى وغايات لا تتناهى...

صور الطباق

يأتي الطباق في الكلام على أربع صور وهي:

١-أن يكون بين اسمين، كما في قوله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ [الكهف: ١٨]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾[فاطر: ١٩-٢٢]، وقوله جل علاه: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ [الحديد: ٣]، ومنه قول النبي ﷺ: «فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة للكبر ومن الحياة للموت، فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت مستعتب ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار...»[١]، وقول علي -رضي الله عنه وكرم الله وجهه-: «إن كثرة النظر إلى الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب..».

ومنه قول امرئ القيس:

مِكَـــرٍّ مِفَـــرٍّ مُقْبِـــلٍ مُـــدْبِرٍ معًـــا ... كجُلْمُـودِ صَـخْرٍ حطَّـهُ السَّيْلُ من عَـلِ

وقول القاضي الأرجاني:

ولقـدْ نزلْـتُ مـن المُلُـوكِ بِـمَا جـدٍ ... فَقْـرُ الرِّجَـالِ إليـهِ مِفْتَـاحُ الغِنَـى

وقول الآخر:

إذا نحـــنُ سِرْنَـا بـين شَرْقٍ ومَغْـرِبٍ ... تحَــرَّكَ يَقْظَـــانُ الـــتُّرَابِ وَنَائِمُـــهُ

ولا يخفى عليك الطباق في هذه الشواهد، وأنه قد وقع بين اسمين كما نرى:

٢-أن يكون بين فعلين، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾[النجم: ٤٣، ٤٤]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

---

(١) طرف من خطبة للنبي ﷺ أوردها بتمامها القرطبي في تفسيره جـ ١٨ صـ ١١٦ من رواية جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ.

ومنه قول النبي ﷺ للأنصار: «إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَزَعِ وتَقِلُّونَ عنْدَ الطَّمَعِ»(١) فقد طابق بين الفعلين: تكثرون وتقلون، وهناك طباق أيضًا بين "الفزع" و"الطمع" ولكنه طباق خفي، كما سيأتي.

ومن أقوالهم... قول بشار:

إذا أيقظتْكَ حُرُوبُ العِدَى فنبِّهْ لهَا عمْرًا ثم نَمْ

وقول الفرزدق:

لَعَنَ الإِلَهُ بنِي كُلَيْبٍ إنهُم لاَ يَغْدِرُونَ ولاَ يَفُونُ لِجَارِ
يَسْتَيْقِظُونَ إلى نَهِيقِ حِمَارِهِمْ وتَنَامُ أعْيُنُهُمْ عن الأَوْتَارِ(٢)

وقول الحماسي:

تأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الحَيَاةَ فلمْ أجدْ لنفسِي حياةً مثلَ أنْ أَتَقَدَّمَا

وقول لآخر:

لئنْ سَاءَنِي أن نِلْتَنِي بمساءةٍ لقدْ سرَّنِي أنِّي خَطَرْتُ بِبَالِكَ

فالطباق في هذه الشواهد قد وقع بين فعلين...

٣-أن يكون بين حرفين، كقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله عز وجل: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤].

وقول مجنون ليلى:

على أنَّنِي رَاضٍ بأَنْ أَحْمِلَ الْهَوى وأَخْلُصَ منْهُ لا عَلَيَّ ولا لِيَا

---

(١) رواه العسكري في الأمثال من حديث أنس رضي الله عنه... انظر كنز العمال حديث رقم ٣٧٩٥١.

(٢) بنو كليب: قوم جرير وقوله: "لا يغدرون" أي: لا يخونون عدوهم لعجزهم عنه.

فالطباق في هذه الشواهد بين "علي" و"اللام" في آية سورة البقرة وبين "علي" و"في" في آية سبأ، لأن في "على" معنى المضرة وفي اللام معنى المنفعة، وكذا في "في" معنى الاستفال وفي "على" معنى الارتفاع، ومعلوم أن الحروف لا يظهر لها معنى إلا مع غيرها فللحروف معان متعددة قد تتضاد وقد تتداخل وقد تلتقي والمرجع في ذلك هو الاستعمال؛ لأن الحروف لا تستقل بنفسها ولا تظهر معانيها إلا بالاستعمال.

٤-أن يكون بين اسم وفعل، كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقوله عز وجل: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ومنه قول طفيل:

بِسَاهِمِ الْوَجْهِ لمْ تُقْطَعْ أَبَاجِلُهُ يُصَانُ وهو لِيَوْمِ الرَّوْعِ مَبْذُولُ[١]

وقول الآخر:

قدْ كانَ يُدعَى لابسُ الصَّبْرِ حازمًا فأصبَحَ يُدعَى حازمًا حينَ يجْزَعُ

فالطباق في هذه الشواهد بين "ميتًا وأحيينا"، و"تحيي والموتى" و "يصان ومبذول" و"الصبر ويجزع" فهو بين اسم وفعل كما ترى.

هذا والطباق كما يكون بألفاظ استعملت في معانيها الحقيقية، يكون كذلك بألفاظ استعملت في معان مجازية، وعندئذ يكون الطباق في كلا المعنيين، الحقيقي غير المراد والمجازي المراد... كما مر بنا في الآية الكريمة: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ أي ضالاً فهديناه، فالمعنيان الحقيقيان وهما الموت والحياة متضادان، والمعنيان المجازيان وهما الضلال والهدى متضادان أيضًا، وكما في قول الشاعر:

حُلْوُ الشَّمَائِلِ وهو مُرٌّ بَاسِلُ يَحْمِي الذِّمَارَ صَبِيحَةَ الإِرْهَاقِ

(١) ساهم الوجه: متغيره من كثرة الجري صفة للفرس، والأباجل: جمع أبجل وهو عرق في الفرس والبعير.

وقول الآخر:

إذا نحـــنُ سِرْنَـا بـين شرْقٍ ومغْـرِبٍ تحَـــرَّكَ يَقْظَـــانُ الـــتُّرابِ ونَائِمُـــهُ

فالمراد بحلاوة الشمائل: لين الجانب، والمراد بالمرارة: الشدة وكذا المراد بيقظان التراب: متحركه، وبالنائم: الساكن، فالتضاد محقق بين المعاني الحقيقية غير المرادة وبين المعاني المجازية المرادة...

ومنه قول الآخر:

لقـــدْ أَحْيَـــا المكـــارمَ بعـــدَ مَـــوْتٍ وشـــادَ بناءَهَـــا بعـــدَ انهِـــدَامِ

إذ المراد: لقد أكثر العطاء في وقت قل فيه العطاء، فبين "الإحياء والموت" وبين "التشييد والانهدام" طباق في معانيها الحقيقية والمجازية على حد سواء، أما إذا كان الطباق بين المعاني الحقيقية فقط دون المجازية المرادة فهو من إيهام التضاد الآتي بيانه.

الطباق المعنوي

ويسمى أيضًا بالطباق الخفي، ومعظم البلاغيين جعلوه ملحقًا بالطباق نظرًا لخفاء التضاد فيه، وقد عرفوه بأنه "الجمع بين أمر وما يتعلق بمقابله"... نحو قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يس: ١٥، ١٦]، فقوله: ﴿ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾، يستلزم الصدق المضاد للكذب في قوله: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾، والمعنى ربنا يعلم إنا لصادقون، فقد جمع في الآية بين الكذب وما يتعلق بمقابله وهو ﴿ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾...

ومنه قوله تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا ﴾ [نوح: ٢٥]، فقد جمع بين الإغراق وما يتعلق بالإحراق وهو دخول النار؛ إذ دخول النار يتسبب عنه الإحراق المقابل للإغراق...

وقوله عز وجل: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩]، فما يقابل الشدة هو اللين، والآية لم تجمع بين الشدة واللين بل جمعت

بين الشدة وما يتعلق باللين وهو الرحمة، وقوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [القصص: ٧٣]، فالليل والنهار بينهما طباق ظاهر، والسكن وابتغاء الفضل بينهما طباق خفي؛ إذ المقابل للسكن هو الحركة وابتغاء الفضل يستلزم الحركة المضادة للسكن، وقد مر بنا سر العدول عن الحركة إلى ابتغاء الفضل في الآية الكريمة:

ومنه قول القائل:

لَهُمْ جُلُّ مَالِي إن تَتَابَعَ لِي غِنًى ... وإنْ قلَّ مالِي لمْ أُكَلِّفْهُمْ رَفْدَا

فتتابع الغنى يستلزم كثرة المال المضادة لقوله: "قل مالي".

وقول الآخر:

يجْزُونَ من ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً ... ومن إسَاءةِ أَهْلِ السُّوءِ إحْسَانَا

فالذي يضاد الظلم هو العدل لا المغفرة، ولكن لما كانت المغفرة تجاوز عن المجازاة، والعدل مجازاة بالمثل، كانت المغفرة قريبة من العدل، فالجمع بينها وبين الظلم جمع بين المعنى وما يتعلق بمقابله، فهو من الطباق الخفي، أما الطباق بين الإساءة والإحسان في البيت فهو طباق ظاهر.

ومن فاسد الطباق الخفي قول أبي الطيب المتنبي:

لِمَنْ تَطْلُبِ الدُّنْيَا إذا لمْ تُرِدْ بِهَا ... سُرُورَ محِبٍّ أو إساءَةَ مجْرِمِ

ووجه فساده: أن الذي يضاد المحب هو المبغض، وليس هنالك تلازم بين المجرم والمبغض، فالمجرم قد لا يكون مبغضًا إلا أن يقال: إن بين الإجرام والبغض تلازمًا ادعائيًّا، وكأن الشاعر يدعي أن المجرم لا يكون إلا مبغضًا للمحب لمنافاة حاله لحاله، فإن قيل هذا لا يكون الطباق فاسدًا... وفي البيت طباق خفي آخر صحيح بين السرور والإساءة فالسرور يضاد الحزن، وقد جمع بين السرور والإساءة التي تستلزم الحزن عادة.

ومن الطباق الخفي أيضًا قول أبي تمام:

مَهَا الْـوَحْشِ إلاَّ أنَّ هاتَا أَوَانِسٌ   قَنَا الخُطِّ إلا أنَّ تِلْكَ ذَوابِلُ

حيث طابق بين "هاتا" اسم إشارة للقريب وبين "تلك" اسم إشارة للبعيد... ويمكن أن يعد الطباق بين الحروف من الطباق الخفي، لأن الحروف لا تظهر معانيها إلا بالاستعمال كما ذكرنا.

طباق الإيجاب وطباق السلب

إذا كان المعنيان المتضادان مثبتين معًا، كما في الشواهد السابقة، أو منفيين معًا كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٣]... وكما في بيت الفرزدق السابق.

لَعَنَ الإِلَـهُ بنِـي كُلَيْـبٍ إنهُـم   لاَ يَغْـدِرُونَ ولاَ يَفُـونُ لجَـارِ

سمي الطباق: طباق الإيجاب... أما إذا كان أحد طرفي الطباق مثبتًا والآخر منفيًا، وهذا يعني أن المعنى يكون واحدًا ويستعمل مرة مثبتًا وأخرى منفيًا، أو مرة مأمورًا به وأخرى منهيًا عنه في كلام واحد... إذا كان الطباق كذلك سمي طباق السلب، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا ﴾ [الزمر: ٩]، وقوله عز وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[الروم: ٦، ٧].

فقد استعمل العلم في الآيتين مرة مثبتًا وأخرى منفيًا... ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ [الأنفال: ١٧]، فالفعل "رمى" جاء مثبتًا مرة ومنفيًا أخرى وقوله عز وجل: ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ [الحج: ٥]، فمخلقة جاءت في الآية مثبتة ومنفية... وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ ﴾ [البقرة: ٨، ٩]، فقد طابق بين ﴿ ءَامَنَّا ﴾ و ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وبين ﴿ يُخَٰدِعُونَ ﴾، و ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ ﴾.

وتكمن بلاغة الطباق في هذه الآية الكريمة في أنه قد كشف عن عقيدة هؤلاء وجلى نفاقهم وأبرز خداعهم وكذبهم، كما أن فيه أقوى رد على ما ادعوه من الإيمان،

وأبلغ زجر لما يفعلونه من الخداع والمكر... ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل: ٢٠]؛ حيث جمع بين ﴿ لَا يَخْلُقُونَ ﴾، ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾، وفيه إبراز وتجلية لعجزهم وهوانهم... ومنه قوله عز وجل: ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فقد ذكر الفعل في الآيتين مرة مأمورًا به: ﴿ وَقُل لَّهُمَا ﴾ و ﴿ وَٱخْشَوْنِ ﴾ ومرة منهيا عنه ﴿ فَلَا تَقُل ﴾، و ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ﴾.

ومن أقوالهم: قول أبي تمام:

إلى سالِمِ الأَخْلاَقِ مِنْ كلِّ عَائِبٍ ... وليسَ لَهُ مالٌ على الجودِ سالِمُ

حيث جمع بين "سلامة الأخلاق" و"عدم سلامة الأموال".

وقول مسلم بن الوليد:

هي البدرُ يُغنِيهَا تَوَدُّدُ وَجْهِهَا ... إلى كلِّ مَنْ لاقَتْ وإنْ لمْ تَوَدَّدِ

فقد طابق بين "تودد" و "لم تودد"...

وقول الآخر:

لاَ تَلُمْنِي علَى الَّتي فَتَنَتْنِي ... وَأَرَتْنِي الْقَبِيحَ غَيْرَ قَبِيحِ

طابق بين "قبيح" و "غير قبيح"...

وقول امرئ القيس:

جَزَعْتُ ولمْ أَجْزَعْ من الْبَيْنِ مجْزَعًا ... وَعَزَّيتُ قَلْبِي بالْكَوَاعِبِ مُولَعًا

طابق بين "جزعت" و"لم أجزع"...

وقول الحماسي:

ونُنْكِرُ إنْ شِئْنَا على النَّاسِ قولَهَمُ ... ولا يُنْكِرُونَ الْقَوْلَ حينَ نَقُولُ

طابق بين "ننكر" و "لا ينكرون"...

وقول الآخر:

خُلِقُوا ومَا خُلِقُوا لِمَكْرُمَةٍ ... فكأنَهُمْ خُلِقُوا وما خُلِقُوا

رُزِقُــوا ومَــا رُزِقُــوا سَــمَاحَ يَــدٍ فكــأنهُم رُزِقُــوا ومَــا رُزِقُــوا

فقد طابق بين "خلقوا وما خلقوا" وبين "رزقوا وما رزقوا" وقد أبرز الطباق وجلى ما أراده الشعراء من معاني المدح والغزل والفخر والهجاء في الأبيات المذكورة.

وبهذا يتضح أن طباق السلب قد يكون بين فعلين أحدهما مثبت والآخر منفي، أو أحدهما مأمور به والآخر منهي عنه، وقد يكون بين اسمين؛ حيث يثبت الاسم مرة وينفى مرة أخرى، وقد يكون بين فعل واسم من مادة واحدة أحدهما مثبت والآخر منفي... كما رأينا في الشواهد، وهذا هو رأي جمهور البلاغيين وهو المشهور والراجح[١].

وقد حصر بعض البلاغيين طباق السلب في الأفعال دون الأسماء، ومن هؤلاء الخطيب القزويني الذي عرفه بقوله: "هو الجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت ومنفي أو أمر ونهي"[٢]، وهذا ليس برأي فالصواب رأي جمهور البلاغيين الذي ذكرناه أولا....

طباق التدبيج

التدبيج في اللغة: التزين، يقال: دبج الأرض، أي: زينها، وفي اصطلاح البلاغة: يختص بالألوان التي تذكر بقصد الكناية أو التورية فقد عرفوه بأنه ذكر لونين أو ألوان بقصد الكناية أو التورية في معنى من المعاني كالمديح والفخر والغزل والوصف ونحو ذلك:

ومن أمثلته قول أبي تمام في رثاء محمد بن حميد:

تَـردَّى ثِيَـابَ المَـوْتِ حُمْـرًا فـمَا أتَـى لهَـا اللَّيْـلُ إلاَّ وَهِـيَ مِـنْ سُـنْدُسٍ خُـضْرِ

---

(١) انظر الصناعتين: ٤٢١.

(٢) بغية الإيضاح جـ ٤ ص ٧.

فقد كنى عن الاستشهاد بارتداء الثياب الحمراء، ثم كنى عن دخول الجنة بلبس السندس الأخضر، وجمع بين الحمرة والخضرة على سبيل الطباق.

ومنه قول عمرو بن كلثوم في الفخر بقومه:

وَأَنَّا نُورِدُ الرَّايَاتِ بِيضًا ... ونُصْدِرُهُنَّ حُمْرًا قَدْ رُوِينَا

فقد كنى بالرايات البيضاء عن شجاعتهم وقوتهم وأنهم لا يخافون العدو ولا يعبأون به، بل يلقون الأعداء بوجوه وضاحة وثغور باسمة، وهذا عنوان شجاعتهم وقوتهم، ثم كنى باحمرار الرايات عن كثرة القتلى من الأعداء فالرايات قد ارتوت بدمائهم فصبغت باللون الأحمر... والطباق في البيت بين "الحمرة والبياض".

ومنه قول ابن حَيُّوس مادحًا:

إنْ تُرِدْ عِلْمَ حالهِمْ عن يَقينٍ ... فالْقَهُمْ يومَ نائلٍ أو نِزَالِ

تَلْقَ بيضَ الوجُوهِ سُودَ مُثَارِ النَّقْـ ... ـعِ خُضْرَ الأَكْنافِ حُمْرَ النِّصَالِ(١)

كنى "ببيض الوجوه" عن كرمهم، و"بسود مثار النقع خضر الأكناف، حمر النصال" عن شجاعتهم، والطباق فيه بين البياض والسواد والخضرة والحمرة، ونلاحظ في البيتين محسنًا بديعيًا آخر وهو اللف والنشر حيث ذكر متعددًا: "يوم نائل ويوم نزال"، ثم ذكر ما لكل بلا تعيين، فبيض الوجوه يرجع إلى يوم نائلهم وما بعده يرجع إلى يوم نزالهم...

والتدبيج في الأبيات السابقة يسمى تدبيج الكناية، أما تدبيج التورية فكقول الحريري: "فَمُذْ ازْوَرَّ الْمَحْبُوبُ الأَصْفَرُ واغبَرَّ الْعَيْشُ الأَخْضرُ اسْوَدَّ يَوْمي الأَبْيَضُ وابْيَضَّ فَوْدِي الأَسْوَدُ، حَتَّى رَثَى لِيَ الْعَدُوُّ الأَزْرَقُ، فيَا حَبَّذَا الْمَوْتُ الأَحْمَرُ"(٢)، فقد

---

(١) النائل: العطاء، والنزال: مصدر نازل أي: قابله في الحرب وقاتله والأكناف: جمع كنف وهو الجانب، وخضرتها كناية عن سواد دروعها والعرب تسمى الضارب إلى السواد أخضر، والنصل: حديدة الرمح والسهم والسكين وربما سمي السيف نصلاً.

(٢) ازور: بعد، وابيض الفود: كناية عن الضعف، والفودان: شعر جانبي الرأس مما يلي الأذن، والعدو الأزرق: الخالص العداوة.

فقد وري بالمحبوب الأصفر عن الذهب، أما بقية الألوان فكنايات خضرة العيش: كناية عن طيبه، وبياض اليوم: كناية عن السرور وسواد الفود: كناية عن الشباب والقوة، والعدو الأزرق: كناية عن شدة عداوته، والموت الأحمر: كناية عن الموت الجديد الطارئ... وبهذا تكون العبارة قد جمعت بين تدبيج التورية وتدبيج الكناية...

ومن طباق التدبيج في النظم الكريم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧]، فألوان الجبال المذكورة في الآية كناية عن المشتبه والواضح من الطرق، لأن الجادة البيضاء هي الطريق الواضح الذي كثر سلوكه والسير فيه، ولذا قيل: ركب بهم المحجة البيضاء، ودون البيضاء الحمراء، ودون الحمراء السوداء، فهي في الخفاء والالتباس ضد البيضاء في الظهور والوضوح(١).

ذكر الألوان بقصد الحقيقة أو المجاز

اختلف العلماء في ذكر الألوان بقصد الحقيقة أو المجاز، هل يعد من التدبيج؟ أم أن التدبيج مقصور على ذكر تلك الألوان بقصد الكناية والتورية فقط؟ والرأي الصواب أن ذكر الألوان بقصد الحقيقة كما في قول ذي الرمة:

كَحْلاءُ في بَرَجٍ صَفْرَاءُ في نَعَجٍ كأنَّهَا فِضَّةٌ قدْ مسَّهَا ذَهَبُ

يعد من التدبيج أيضًا، فهو يشمل ذكر الألوان بقصد الحقيقة أو الكناية أو التورية، أما ذكرها بقصد المجاز فهو من إيهام التضاد الآتي بيانه.

ما يلحق بالطباق

ألحق البلاغيون بالطباق أمرين:

أولهما: الطباق الخفي أو المعنوي، وقد سبق بيانه.

ثانيهما: إيهام التضاد وهو التعبير عن المعاني غير المتقابلة بألفاظ تتقابل معانيها

---

(١) القرينة في الكناية قرينة غير مانعة، ولذا؛ فإن المراد في الآية الكريمة المعنيان معًا، المكنى به: وهو الألوان المذكورة، والمكنى عنه: وهو تنوع الطرق.

الحقيقية كما في قول دعبل الخزاعي.

لاَ تَعْجَبِي يا سَلْمُ من رجُلٍ ضَحِكَ المشيبُ بِرَأْسِهِ فبَكَى

فالمراد بالضحك: ظهور الشيب ظهورًا تامًّا، وهذا المعنى المجازي لا يقابل البكاء، ولكن المعنى الحقيقي للضحك يقابل المعنى الحقيقي للبكاء.

ومنه قول الآخر:

وقد أَطْفَأُوا شمسَ النهارِ وأوقدُوا نُجُومَ العوالِي في سماءِ عَجَاجِ

فالمراد بالإطفاء: إثارة الغبار حتى يغطي ضوء الشمس، والمراد بإيقاد نجوم العوالي: إشهار السيوف وتشريع الرماح، وهذان المعنيان المجازيان المرادان لا تقابل بينهما، ولكن التقابل بين المعنيين الحقيقيين لكل من الإطفاء والإيقاد فهو من قبيل إيهام التضاد.

ومنه قول البحتري في وصف بركة المتوكل:

فَحَاجِبُ الشَّمْسِ أَحْيَانًا يُضَاحِكُهَا وَرَيِّقُ الغَيْثِ أَحْيَانًا يُبَاكِيهَا

فالمراد بالمضاحكة: الإشراق واللمعان، والمراد بالمباكاة سقوط الأمطار وهطولها... وهذان المعنيان المجازيان لا تقابل بينهما ولكن التقابل بين المعنيين الحقيقيين للمضاحكة والمباكاة.

ومنه قول أبي تمام:

مَا إنْ تَرَى الأَحْسَابَ بيضًا وُضَّحًا إلاَّ بحيثُ ترىَ المنايَا سُودًا

استعار البيض الوضح لنقاء الأحساب، وكنى عن القتل في الحرب بالمنايا السود، فلا تضاد بين المراد بالبيض والسود في البيت، ولكن معنييهما الحقيقيين متضادان...

وكذا قوله في وصف الشيب:

لَـهُ منظـرٌ في العـينِ أبـيضُ ناصِـعٌ ولكنَّـهُ في القلـبِ أَسْـوَدُ أَسْـفَعُ(١)

وقوله:

وتَنَظَّـري خَبَـبَ الركـابِ ينـصُّهَا مُـحْيِي القَـرِيضِ إلى مُمِيـتِ المـالِ(٢)

استعار الأسود الأسفع: للحزن الشديد، واستعار الإحياء للمحافظة على استمرار الإنشاد والإمالة للإنفاق. فالمعاني المرادة في البيتين لا تضاد بينها، ولكن التضاد بين معانيها الحقيقية.

ترشيح الطباق

الترشيح في اللغة معناه التقوية، وترشيح الطباق أن يوجد بجانب التضاد بين المعنيين صورة أخرى من صور البديع أو لون من ألوان البلاغة، فيتقوى الطباق بذلك، ويكتسى الكلام طلاوة وبهاء، ويزداد المعنى وضوحًا وبيانًا...

من ذلك قوله تعالى: ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٧]، فقد اقترن الطباق بصورة بديعية أخرى وهي العكس: (**تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل... الحي من الميت... الميت من الحي**)، كما اقترن بمبالغة التكميل التي تليق بالقدرة الإلهية، ففي العطف بقوله تعالى: ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ دلالة على أن من قدر على تلك الأفعال التي لا يقدر عليها غيره فهو قادر على أن يرزق من يشاء من عباده بغير حساب، وهذه مبالغة التكميل المشحونة بقدرة الله الخالق تبارك وتعالى.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [القصص: ٧٣]، فقد اجتمع في الآية الطباق واللف والنشر... وقوله عز وجل: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [الروم: ٢٤]، فقد اقترن الطباق

---

(١) الأسود الأسفع: الأسود الضارب إلى حمرة.

(٢) تنظري: بمعنى انتظري، والخبب: تراوح الفرس في عدوه بين يديه ورجليه بأن يقوم على إحداهما مرة وعلى الأخرى مرة، والركاب: الإبل وينصها: يحثها حثًا شديدًا والقريض: الشعر.

بين الخوف والطمع بصحة التقسيم إذ ليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والطمع في الأمطار، ولا ثالث لهذين القسمين... وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٨٣]، فقد طابق بين الأمن والخوف وأقرن الطباق بالجناس بين الأمر والأمن...

ومن أقوالهم... قول امرئ القيس:

مِكَــرٍّ مِفَــرٍّ مُقْبِــلٍ مُــدْبِرٍ معًــا كجُلْمُودِ صَخْرٍ حطَّهُ السَّيْلُ من عَلِ

فقد طابق بين الكر والفر، وبين الإقبال والإدبار، ثم أقرن ذلك بالتكميل "معا" الذي زاد المعنى بهجة وقوة. إذ أفاد شدة القرب في حالتي الإقبال والإدبار وحالتي الكر والفر، فأنت تراه مكرًا في حال الفرار ومفرًا في حال الكر، وتراه مقبلاً حال رؤيتك له مدبرًا... وهذا بفضل مبالغة التكميل في قوله: "معًا"... ثم استطرد بعد تمام المطابقة وكمال التكميل إلى التشبيه على سبيل الاستطراد البديعي، وبهذا اشتمل على الطباق والتكميل والاستطراد...

وقول ابن حَيُّوس:

إنْ تُـرِدْ علـمَ حـالهِمْ عـن يقـينٍ فـالقَهُمْ يـومَ نائـلٍ أو نِـزَالِ

تلـقَ بـيضَ الوُجُـوهِ سـودَ مُثـارِ النَّقْـ ـعِ خُضْـرَ الأكنـافِ حُمْـرَ النِّصَالِ

فقد قرن طباق التدبيج في البيتين باللف والنشر؛ حيث ذكر متعددًا وهو "يوم نائلٍ أو نزال" ثم ذكر ما لكل منهما بلا تعيين؛ إذ يرجع "بيض الوجوه" إلى "يوم نائلٍ" ويرجع ما بعده إلى يوم النزال.

☆☆☆

المقابلة

وقد اختلف البلاغيون في المقابلة، فبعضهم جعلها فنًا مستقلاً وبعضهم جعلها من الطباق، لأنها عبارة عن طباق متعدد، فالطباق إذا جاوز ضدين صار مقابلة... وهذا هو الراجح... وعليه؛ فالمقابلة: أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو بمعان متوافقة ثم بما يقابلها على الترتيب... والمراد بالتوافق خلاف التقابل؛ فلا يشترط فيها التناسب- كما في مراعاة النظير الآتي بيانه- بل المراد ألا تكون تلك المعاني متضادة، وهذا هو المقصود بالتوافق... وتبدأ المقابلة بطباقين أو بطباق وملحق به ثم تتصاعد إلى أن تبلغ إلى مقابلة ستة معانٍ بستة معان أخرى، وهذا أقصى ما وصلت إليه المقابلة في كلامهم كما سنرى.

ومن شواهدها قوله تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة: ٨٢]، فقابل الضحك والقلة بالبكاء والكثرة... وقوله عز وجل: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، قابل إرادة اليسر بعدم إرادة العسر... وقوله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٨١]، قابل الفرح والقعود بالكراهية والجهاد، وهذا ينم عن عداوة المنافقين وشدة حقدهم، فسرورهم كامن في القعود والتخلف، وحزنهم وكراهيتهم في الجهاد لإعلاء كلمة الحق...

ومن ذلك قول النبي ﷺ: «إنَّ الرفْقَ لا يَكُونَ في شيءٍ إلا زَانَهُ ولاَ يُنْزَعُ منْ شيءٍ إلا شانَهُ»(١)، وقوله عليه الصلاة والسلام للأنصار: «إِنَّكُمْ لتكثُرُونَ عِنْدَ الْفَزَعِ وتَقِلُّونَ عنْدَ الطَّمَعِ»(٢) وقول عمران الطلحي للمنصور وقد وجه إليه قوله: «بَلَغَنِي أَنَّكَ بَخِيلٌ» فقال: يا أمير المؤمنين: «مَا أَجْمُدُ فِي حَقٍّ وَلاَ أَذُوبُ فِي بَاطِلٍ».

وقول النابغة الذبياني:

فتًى تمَّ فيهِ ما يَسُرُّ صديقَهُ ... على أنَّ فيه ما يَسُوءُ الأَعَادِيَا

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة رقم (٧٨/ ٢٥٩٤).

(٢) رواه العسكري في الأمثال من حديث أنس. انظر كنز العمال حديث رقم ٣٧٩٥١.

وقول المعري:

يـــا دهـــرُ يـــا مُنْجِـــزَ إيعَـــادِهِ ومخْلِـــفَ المـــأْمُولِ مِـــنْ وَعْـــدِهِ

ولا يخفى عليك ما في الشواهد من مقابلة معنيين بمعنيين:

ومنه قول الآخر:

فوَاعجبًـــا كيـــفَ اتَّفَقْنَـــا فناصـــحٌ وَفيٌّ ومَطْـــويٌّ عَـــلَى الْغـــلِّ غـــادِرُ

فقد قابل "النصح والوفاء بالطي على الغل والغدر".

ومن مقابلة ثلاثة معان بثلاثة معان، قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقوله عز وجل: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، فقد قابل الأمر بالمعروف بالنهي عن المنكر، وحل الطيبات لهم بتحريم الخبائث عليهم... والأسى على ما فات بالفرح بما آتي...

ومنه قول المتنبي:

فـلا الجـودُ يُفنـي المـالَ والْـجَدُّ مُقبِـلٌ ولا البُخْـلُ يُبْقِـي المـالَ والْـجَدُّ مُـدْبِرٌ

فقد قابل الجود والإفناء والإقبال بالبخل والإبقاء والإدبار:

ومن مقابلة أربعة بأربعة، قوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ (١٠)﴾ [الليل: ٥-١٠]، فقابل الإعطاء والإتقاء والتصديق والتيسير لليسرى، بالبخل والاستغناء والتكذيب والتيسير للعسرى...

ومنه قول أبي بكر رضي الله عنه في وصيته عند الموت: «هذا ما أوصى به أبو بكر عند آخر عهده بالدنيا خارجًا منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها...» فقد قابل أولاً بآخر والدنيا بالآخرة وخارجًا بداخل ومنها بفيها.

ومنه قول أبي تمام:

يـا أمـةً كـانَ قُـبْحُ الْـجَوْرِ يُـسْخِطُهَا دَهْـرًا فأصْـبَحَ حُـسْنُ الْعَـدْلِ يُرضِـيهَا

وقول جرير:

وباسطُ خيرٍ فيكُمْ بيَمِينهِ ... وقابضُ شرٍّ عنكُمْ بِشِمَالِهِ

ومن مقابلة خمسة معان بخمسة معان، قول صفي الدين الحلي:

كانَ الرِّضَا بِدُنُوِّي من خَواطِرِهِم ... فصارَ سُخْطِي لبُعْدِي عن جِوارِهِمُ

فقابل "كان والرضا والدنو ومن وخواطر" بـ "صار والسخط والبعد وعن وجوارهم"... ونلاحظ أنه لا تضاد بين الجوار والخواطر إلا على اعتبار أن الخواطر تجول داخل فكر الإنسان، والجوار يكون خارجًا عن فكره... وهذا جارٍ على مذهب من يرى أن المقابلة تكون بالأضداد وبغيرها...

وأقصى ما تصل إليه المقابلة -كما قلنا- مقابلة ستة معانٍ بستة معانٍ أخرى... كما في قول عنترة:

على رأسِ عَبْدٍ تَاجُ عِزٍّ يَزِينُه ... وفي رِجْلِ حُرٍّ قَيْدُ ذُلٍّ يَشِينُه

هذا وليست العبرة بكثرة المقابلة، بل المقابلة الجيدة ما جرت مجرى الطبع ولم تأت متكلفة، وإلا كانت سببًا من أسباب اضطراب الأسلوب وتعقيده.

رأى السكاكي في المقابلة: يرى السكاكي أن المقابلة أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وضديهما أو أضدادها، ثم إذا شرطت هنا شرطًا شرطت هناك ضده، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦)﴾ الآيتان؛ فإنه لما جعل التيسير مشتركًا بين الإعطاء والاتقاء والتصديق جعل ضده وهو التعسير مشتركا بين أضداد تلك المعاني وهي المنع والاستغناء والتكذيب... ولذا عاب النقاد المقابلة في قول أبي دلامة:

مَا أَحْسَنَ الدِّينَ والدنَيا إذا اجتمَعَا ... وأقبحَ الكُفْرَ والإِفْلاسَ بالرَّجُلِ

حيث اشترط في حسن الدين والدنيا الاجتماع، ولم يشترط في قبح الكفر والإفلاس ضده، بل شرط فيهما الاجتماع أيضًا... والبيت معيب من زاوية أخرى، وهي أن قافيته مستدعاة لأجل الوزن ومتنافية مع المعنى، لأن ما ذكره غير مختص بالرجال... وقد فضل النقاد على هذا البيت قول المتنبي:

أَزُورُهُم وسوادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لي وَأَنْثَنِي وبياضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بي

بتمكن القافية وسهولة النظم وكثرة المقابلة، فهي في بيت المتنبي مقابلة خمسة معان بخمسة معان، وفي بيت أبي دلامة مقابلة ثلاثة بثلاثة... ولكن بيت أبي دلامة يفوق بيت المتنبي بجودة المقابلة، فإن ضد الليل المحض هو النهار لا الصبح(١)...

ما الفرق بين الطباق والمقابلة؟

والفرق بين الطباق والمقابلة يأتي من وجهين:

الأول: أن الطباق جمع بين ضدين، أما المقابلة فتكون غالبًا بالجمع بين أربعة أضداد، ضدان في صدر الكلام وضدان في عجزه، وقد تصل إلى الجمع بين اثني عشر ضدًا، ستة في الصدر وستة في العجز على نحو ما رأينا في الشواهد.

الثاني: أن الطباق لا يكون إلا بالأضداد، أما المقابلة فتكون بالأضداد وبغيرها، ولكنها بالأضداد تكون أعلى رتبة وأعظم موقعًا، وعندما تقع المقابلة بغير الأضداد، فلابد أن يكون هنالك اعتبار للتقابل على نَحْوٍ ما... كما رأينا في بيت صفي الدين الحلي:

كانَ الرِّضَا بِدُنُوِّي من خَواطِرِهِم فصارَ سُخْطِي لبُعْدِي عن جِوارِهِمُ

☆☆☆

---

(١) انظر الإيضاح جـ ٤ ص ١٥.

مراعاة النظير

هذا اللون مراعاة النظير، قوامه الجمع بين الأمور المتناسبة، ولذا يسمى أيضًا بالتناسب والائتلاف والتوفيق والتلفيق والمؤاخاة بين المعاني... وقد عرفه البلاغيون بأنه: الجمع بين أمرين متناسبين أو أمور متناسبة بغير التضاد... فهو عكس الطباق الذي يقوم على أساس الجمع بين الأمور المتضادة... وهذا اللون من البديع أشار إليه الشعراء في العصر الأموي وإن لم يسموه بهذه التسمية، فقد روي أنه اجتمع نصيب والكميت وذو الرمة، فأنشد الكميت:

أمْ هلْ ظَعائنُ بالعَلْيَاءِ يَافِعَةٌ ... وإنْ تكاملَ فيهَا الأُنْسُ وَالشَّنَبُ(١)

فعقد نصيب عقدة، فقال له الكميت: ماذا تحصي؟ قال: خطأك، فإنك باعدت في القول، أين الأنس من الشنب؟ ألا قلت كما قال ذو الرمة:

لَمْيَاءُ في شَفَتَيْهَا حُوَّةُ لَعَسُ ... وفي اللِّثَاتِ وفي أَنْيَابِهَا شَنَبُ(٢)

فنصيب أدرك أن الكميت لم يراع التناسب حيث جمع بين أمرين متباعدين، وأوضح له أن الصواب في مثل هذا هو بيت ذي الرمة الذي جمع فيه بين الشفتين واللثات والأنياب وهي أمور متناسبة، وكذلك الحوة واللعس والشنب...

ومن شواهد هذا الفن في النظم الكريم قوله تعالى: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥]؛ حيث جمع بين الشمس والقمر وهما متناسبان. وقوله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣٤]، فالذهب والفضة نقدان متناسبان، ومثله قوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٢٣]، ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٥٨]، فاللؤلؤ والمرجان والياقوت أمور متناسبة لكونها معادن نقية مقترنة في الأذهان...

---

(١) الشنب: ماء ورقة وبرد وعذوبة في الأسنان.

(٢) اللمى: سمرة في الشفة والحوة: حمرة مشوبة بسواد، واللعس: سواد مستحب في الشفة.

ومن أقوالهم – قول البحتري يصف إبلا هزيلة–:

كَالْقِسيِّ المُعَطَّفَاتِ بَلِ الأَسْـهُمِ مَبْرِيَّةً بَلِ الأوتارِ

فقد شبه تلك الإبل الهزيلة بالقسي في الرقة والهزال، ثم أضرب إلى الأسهم وهي أرق، ثم إلى الأوتار وهي أشد رقة، وكل من القسي والأسهم والأوتار أدوات متناسبة...

وقول ابن رشيق:

أصحُّ وأقوَى ما سَمِعْنَاهُ في النَّدَى مِنَ الخَبَرِ المأْثُورِ مُنْذُ قَدِيمِ

أَحَادِيثُ تَرْوِيهَا السُّيُولُ عن الْحَيا عن الْبَحْرِ عن كفِّ الأَمِيرِ تميمِ

فقد جمع بين الصحة والقوة والسماع والخبر المأثور والأحاديث والرواية وتلك الأمور يدرك المناسبة بينها من ألم بعلم مصطلح الحديث... ثم جمع بين السيول والحيا والبحر وكفر الأمير تميم، ونلاحظ في هذه الأمور صحة الترتيب في العنعنة؛ إذ جعل الرواية لصاغر عن كابر كما يقع في سند الحديث، فالسيول أصلها المطر والمطر أصله البحر، والبحر أصله كف الأمير مبالغة وادعاء...

وقول البهاء زهير:

لمْ يَقْضِ زَيْدُكُم من وَصْلِكُم وطَرَهُ ولا قَضَى لَيْلَهُ في هجرِكُمْ سَحَرَهْ

تركتُمْ خبرِي في الْهَجْرِ مُبْتَدَأً وكُلَّ مَعْرِفَةٍ لِي في الهوَى نَكِرةْ

فقد جمع بين الخبر والمبتدأ والمعرفة والنكرة وهي أمور متناسبة يدرك التناسب بينها من ألم بمسائل علم النحو ويمكن أن يضاف إلى هذه الأمور (زيد) الذي كثر الاستشهاد به وتردده في علم النحو...

فإذا لم يراع المتكلم الجمع في كلامه بين الأمور المتناسبة عد ذلك عيبًا وخطأ، كما رأينا في قول الكميت السابق... وكما في قول أبي نواس:

وقدْ حَلَفْتُ يميناً مَبْرُورَةً لا تُكْذَبْ

بربِّ زَمْزَمَ والحُوْضِ والصَّفَا والْمُحَصَّبْ

فإن الحوض لا يتناسب مع زمزم والصفا والمحصب، وإنما يذكر الحوض مع الصراط والميزان وما يجري مجراهما مما هو منوط بيوم القيامة، أما زمزم والصفا والمحصب، فتذكر مع الركن والحطيم وما يجري مجراهما... هذا وقد يلحق الشاعر بالأمور المتناسبة أمرًا لا يتلاءم معها في الحقيقة والواقع، وإنما يتلاءم معها في الخيال والتصور، وهو يهدف من وراء ذلك إلى غرض بلاغي كالمبالغة في المديح وغيره من المعاني، على نحو ما مر بك في بيتي ابن رشيق إذ ألحق كف الأمير بالسيل والحيا والبحر وجعله أصلاً لتلك الأمور وذلك مبالغة في كرم الأمير وعطائه...

وانظر إلى قول محمد بن وهيب:

ثلاثةٌ تُشرِقُ الدنَيا ببهجتِهَا   شمسُ الضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ والْقَمَرُ

تجده قد جمع بين الشمس والقمر ولا يخفى عليك ما بينهما من تناسب، أما أبو إسحاق؛ فلا يتناسب معهما في الواقع وإنما يتناسب معهما في خيال الشاعر الذي سوى بينه وبينهما في الإشراق والبهجة... وكذا قد يجمع الشاعر بين عدة أمور لا تتناسب في الحقيقة والواقع، وإنما تتناسب في خياله، ويتحقق من وراء الجمع بينها مقصد من المقاصد...

من ذلك قول الشاعر:

إذا لمْ يَكُنْ لِلْمَرْءِ في الخلْقِ مَطْمَعُ   فذُو التاجِ والسَّقَّاءُ والذَّرُّ واحِدُ

فمن ذا الذي يجمع بين الملك صاحب التاج والسلطان وبين من يقوم بسقاية الناس، ومن ذا يسوي بينهما وبين الذر، إنها أمور لا تتناسب في الواقع، ولكن خيال الشاعر سوى بينها، فالجمع بين الثلاثة من صنع الخيال المحض، الذي أبرز أن من لا مطمع له في الدنيا وأهلها يتساوى عنده الملك ذو السلطان والسقاء والذر.

إيهام التناسب

ألحق البلاغيون بمراعاة النظير، إيهام التناسب وهو أن يكون اللفظ له معنيان أحدهما مراد والآخر غير مراد ويكون المعنى غير المراد هو الذي يتناسب مع الأمور التي ذكرت معه...

من ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ ﴾ [الرحمن:٥، ٦]، فالنجم له معنيان: أحدهما غير مراد في الآية الكريمة، وهو الكوكب الذي يتلاءم مع الشمس والقمر، والثاني: مراد، وهو النبات الذي لا ساق له، وهو بهذا المعنى المراد يتناسب مع الشجر المذكور بعده... فالنجم بمعنى النبات لا يتناسب مع الشمس والقمر، ولكنه يتناسب معهما إذا كان بمعنى الكوكب وهذا المعنى غير مراد في الآية الكريمة... وخلاصة القول: أن بين النجم في الآية وبين الشمس والقمر إيهام التناسب، أما النجم والشجر فبينهما مراعاة النظير...

تشابه الأطراف

ومن مراعاة النظير ما يسميه بعض البلاغيين بتشابه الأطراف وهو أن يختم الكلام بما يتناسب مع أوله في المعنى...

كقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:١٠٣]، فقد ختمت الآية بما يناسب أولها، إذ ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ يلائم ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1]، و ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ يلائم ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾؛ لأن من يدرك الشيء يكون خبيرًا به...

ومنه قوله تعالى: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الحج: ٦٤]، فإن الذي يملك ما في السموات وما في الأرض يكون غنيًا عن كل ما عداه، ولما كان ما في السموات وما في الأرض مخلوقًا لمنفعة العباد، كان الخالق المنعم مستحقًا للحمد من المنعم عليهم...

ومنه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

---

(١) اللطف في الأصل: دقة الشيء، والمراد في الآية الكريمة ما لا تدركه الأبصار مطلقًا لاستحالة المعنى الأول عليه تعالى... ويحتمل أن يكون اللطف بمعنى "الرأفة" فيكون من إيهام التناسب الذي سبق بيانه.

[الحج: ٦٥]، لأن الذي أنعم هذا الإنعام، سخر ما في الأرض، وسخر الفلك تجري في البحر، ويمسك السماء أن تقع على الأرض، من يفعل ذلك يكون رءوفًا رحيمًا بعباده...

ومما يروى أن أعرابيًا سمع قارئًا يقرأ قول الله عز وجل: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٩]، فوضع القارئ: ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ مكان ﴿ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ قائلاً: ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، فقال الأعرابي، ولم يكن يقرأ القرآن: «إن كان هذا كلام الله فلا، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل، لأنه إغراء عليه» فختام الآية بالعزة والحكمة يناسب ذكر الزلل بعد وضوح الحق وتبينه... وروي أن الرسول ﷺ، كان يملي على زيد بن ثابت قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]، وهنا قال أحد الصحابة قبل أن يملي النبي ﷺ ختام الآية: "فتبارك الله" فابتسم النبي ﷺ ثم قال: "بها ختمت"، وختام الآية الكريمة ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾...

وورد أن أعرابيًا سمع رجلاً يقرأ قوله تعالى: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القمر: ١٣، ١٤]، فقرأها القارئ بفتح الكاف والفاء، فقال الأعرابي: لا يكون، فلما قرأها القارئ بضم الكاف وكسر الفاء قال الأعرابي: يكون...

هذا وقد يكون التناسب بين ختام الآية وبين ما ذكر في أولها دقيقًا خفيًا، لا يدرك إلا بالتأمل وإطالة النظر، على نحو ما نرى في قوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]، فإن قوله: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾، يوهم أن الفاصلة ﴿ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، ولكن عند التأمل وإنعام النظر يتضح أن الفاصلة ينبغي أن تكون ما عليه النظم الكريم، لأنه لا يقدر على تعذيب من يشاء، والغفران لمن يشاء من عباده إلا العزيز الذي لا يغالب، وهو عندما يفعل

ذلك ففي فعله الحكمة وإن خفيت تلك الحكمة على بعض خلقه، فالمناسب إذًا هو أن تختم الآية بما ختمت به...

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨، ٢٩]، فالمتبادر إلى الذهن أن تختتم الآية بالقدرة: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، ولكن عند تأمل النص الكريم وإنعام النظر في سياقه يظهر ويتضح أن المناسب هو ما ختمت به الآية، ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾، لأن تقدم ذكر خلق الأرض والسماء والتصرف في العالم العلوي والسفلي وغير ذلك من الإحياء والإماتة ثم الإحياء، كل هذا يدل على صدور تلك الأشياء عن العلم الكامل التام المحيط بجميع الأشياء...(١).

وكذلك القول في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٨، ٢٩]، فإن النظرة العجلى في الآية الثانية توهم أن تكون الفاصلة، ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ولكن بإنعام النظر وإطالة التأمل في سياق النظم الكريم يتضح أن المناسب هو ختم الآية بالقدرة، فاتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء من دون المؤمنين لا يكون إلا بزعم المتخذ أن الكافر يملك ويقدر على ما لا يقدر عليه المؤمن من نفع، ولذا حذر الله من يفعل ذلك من المؤمنين وبين لهم أن إليه مصيرهم، وأنه عليم بهم وبما يخفون ويبدون بل هو عليم بما في السموات وما في الأرض، وهو وحده القادر على تحقيق النفع لهم، فينبغي على المؤمن أن يلجأ إلى قدرته تعالى وأن يستظل بها، وألا يوالي أعداءه الكافرين؛ إذ لا قدرة لهم على نصره، وإنما القادر هو الله... وبهذا يتضح أن ختام الآية بالقدرة ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ هو المناسب لسياق النظم الكريم.

---

(١) انظر: البحر المحيط جـ ١/ ١٢٦.

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تدق فيها المناسبة، وتخفى على النظرة العجلى، وتحتاج إلى إطالة التأمل وإنعام النظر... والتي لا يتسع المقام هنا للإحاطة بها.

ومما خفي فيه وجه المناسبة بين ابتداء الكلام وآخره من أقوال البشر، ما روي أن أبا الطيب المتنبي أنشد سيف الدولة قصيدته التي مطلعها:

عـلى قَـدْرِ أهـلِ الْعَـزْمِ تـأتي العـزَائِمُ   وتـأتي عـلى قـدرِ الْكِـرَامِ المكـارِمُ

فلما بلغ إلى قوله:

وَقَفْـتَ ومـا في المـوتِ شَـكٌّ لِوَاقِـفٍ   كأنَّـكَ في جَفْـنِ الـرَّدَى وهـو نـائمُ
تمـرُّ بـكَ الأبطـالُ كلمَـى هزيمـةً   ووجهُـك وضَّـاحٌ وثَغْـرُكَ بَاسِـمُ

قال سيف الدولة: قد انتقدتها عليك كما انتقد على امرئ القيس قوله:

كـأنِّي لمْ أرْكَـبْ جـوادًا لِلَـذَّةٍ   ولمْ أَتَـبَطَّنْ كاعِبًـا ذات خُلْخَـالِ
ولم أَسْـبَا الـزِّقَّ الـرَّوِيَّ ولمْ أَقُـلْ   لِـخَيْليَ كُـرِّي كَـرَّةً بَعْـدَ إجْفَـالِ[1]

فبيتاك لم يلتئم شطراهما، كما لم يلتئم شطرا بيتي امرئ القيس وكان ينبغي له أن يقول:

كـأنِّي لمْ أركـبْ جـوادً ولمْ أقـلْ   لِـخَيْليَ كُـرِّى كَـرَّةً بعْـدَ إِجْفَـالِ
ولمْ أَسْـبَأ الـزِّقَّ الـرَّوِيَّ لِلَـذَّةٍ   ولمْ أَتَـبَطَّنْ كاعِبًـا ذاتَ خُلخَـالِ

وكذلك كان ينبغي لك أن تقول:

وَقَفْـتَ ومـا فِي الْـمَوتِ شَـكٌّ لِوَاقِـفٍ   وَوَجْهُـكَ وَضَّـاحٌ وثَغْـرُكَ بَاسِـمُ
تمـرُّ بـكَ الأبطـالُ كَلْمَـى هزيمـةً   كأنَّـك في جَفْـنِ الـرَّدَى وهـوَ نَـائِمُ

---

(١) أتبطن: أجعلها بطانة أي: بطني فوق بطنها: والكاعب: التي برز ثديها. والزق: وعاء الخمر... وسبأها: اشتراها لا للبيع ولا للتجارة بل للشراب، والروي: المملوء، والكر: الرجوع على العدو، والإجفال: الانهزام.

فقد خفي على سيف الدولة وجه المناسبة في البيتين، وتوهم أن المناسب أن يقرن وقوفه والموت لا شك فيه لواقف بوضوح الوجه وابتسامة الثغر، لأن هذا يدل على تناهي شجاعته إذ يضحك في مقام البكاء، ويشرق وجهه حين يشتد العبوس وتكفهر الوجوه... وأن يقرن مرور الأبطال كلمى مهزومين بسلامته كأنه في جفن الردى وهو نائم، لأن ذلك أدل على إرادة الله له الحفظ وتقديره له السلامة...

كما أن الذين انتقدوا بيتي امرئ القيس، قد خفي عليهم وجه المناسبة في البيتين، وتوهموا أن المناسب أن يقرن ركوب الجواد بقوله: للخيل كري ليكون الحديث عن الخيل في الشطرين... وأن تقرن لذة الشراب بلذة النساء في البيت الثاني...

ولكن المتنبي بين لسيف الدولة ما خفي عليه من المناسبة إذ قال له: "إن صح أن الذي استدرك على امرئ القيس هذا أعلم بالشعر منه، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا، ومولانا يعلم أن الثوب لا يعلمه البزاز كما يعلمه الحائك، لأن البزاز يعرف جملته والحائك يعرف جملته وتفاصيله، لأنه أخرجه من الغزلية إلى الثوبية...

وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد، وقرن الشجاعة في منازلة الأعداء بالسماحة في شراء الخمر للأضياف للتضايف بين كل فريقين، وكذلك لما ذكرت الموت في صدر البيت الأول، أتبعته بذكر الردى في آخره ليكون أحسن تلاؤمًا، ولما كان في وجه الجريح المنهزم عبوسًا وعينه باكية، قلت: "ووجهك وضاح وثغرك باسم"، لأجمع بين الأضداد في المعنى... وقد راق ذلك سيف الدولة وأعجب به ووصله بخمسمائة دينار[1]....

☆☆☆

(١) انظر: يتيمة الدهر ١/ ١٥.

الإرصاد

الإرصاد، ويسمى أيضًا باسم: التسهيم، والتوشيح والتبيين والتوأم... وقد عرفوه بقولهم: "أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروي"... فهو قريب من مراعاة النظير الذي سبق بيانه، لأنه لا يدل على العجز إلا ما كان بينه وبين العجز مناسبة، وكان شديد الصلة به، بل كثيرًا ما يكون الدال على العجز هو نفس لفظ العجز...

ومن شواهده قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقوله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس: ١٩]، فالإرصاد في الآيتين قوله: ﴿ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾، وقوله: ﴿فَٱخْتَلَفُواْ ﴾، لأنهما دلا على أن مادة العجز من مادة ﴿ الظلم ﴾ و﴿ الاختلاف ﴾، فعندما نقف على الفاصلة وهي النون من سياق الآيات الكريمة نعرف أن العجز: ﴿ يَظْلِمُونَ﴾ و ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾...

ومنه قول زهير:

سَئِمْتُ تكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ ثمانينَ حولاً لا أبالكَ يَسْأَمِ

فقد دل قوله: (سئمت تكاليف الحياة) على قافية البيت وكشف عنها...

وقول البحتري:

أحلَّتْ دَمِي من غيرِ جُرْمٍ وحرَّمتْ بِلاَ سَبَبٍ يومَ اللِّقاءِ كَلاَمِي

فليسَ الذي حَلَّلْتِهِ بِمُحَلَّلٍ وليسَ الذي حَرَّمْتِهِ بِحَرَامِ

فالقارئ عندما يقرأ الشطر الأول من البيت الثاني يدرك بقية البيت بلا كبير عناء... ومنه قول عمرو بن معد يكرب:

إذا لمْ تَسْتَطِعْ شيئًا فدعْهُ وجاوزهُ إلى ما تستطيعُ

فقد دل قوله: "لم تستطع" على عجز البيت وكشف عنه...

وقول عدي بن الرقاع:

تُزْجِــي أَغَــنَّ كــأَنَّ إِبْــرَةَ رَوْقِــهِ قلــمٌ أَصَــابَ مــن الــدَّواةِ مِــدَادَها

فقوله: "قلم أصاب من الدواة" دل على أن قافية البيت لابد أن تكون مدادًا...

بلاغة الإرصاد

وتكمن بلاغة الإرصاد في دلالته على آخر الكلام قبل الوصول إليه، فالكلام الجيد ما دلت موارده على مصادره وكشف أوله عن آخره، حتى قال الخبراء بفن القول: "البلاغة أن يكون أول كلامك دالاً على آخره، وآخره مرتبطًا بأوله"... ولذا افتخر ابن نباتة بقوله:

خُذْهَا إذا أُنْشِدْتَ في الْقَوْمِ مِنْ طَرَبٍ صُــدُورُهَا عُرِفَــتْ منهَــا قوافِيهَــا

يَنْسَى لهَـا الرَّاكِـبُ الْعَجْـلانُ حاجَتَـهُ ويُـصْبِحُ الحاسِـدُ الْغَـضْبَانُ يُطْرِيهَـا

وتحكي لنا كتب التراث حكايات عن فطنة الشعراء ونقاد الكلام وكيف كانوا يدركون الشطر الثاني كله، وليس القافية وحدها بمجرد سماع الشطر الأول من البيت...

من ذلك ما روي أن جريرًا أنشد بحضرة الفرزدق قصيدته التي هجا بها الراعي النميري والتي يقول فيها:

فَغُــضِّ الطَّــرْفَ إِنَّــكَ مِــنْ نُمَــيْرٍ فــلاَ كَعْبًــا بَلَغْــتَ ولا كِلابًــا

فلما انتهى إلى قوله:

لَهَا بَرَصٌ بِجَانبِ أَسْكُتَيْهَا

أدرك الفرزدق تمام البيت، فوضع يده على عنفقته وكان بها شيب، وقال فبحك الله قبل أن يتلفظ جرير بعجز البيت وهو:

كَعَنْفَقَةِ الْفَرَزْدَقِ حِينَ شَابَا

ومنه ما روي أن ابن أبي ربيعة جلس إلى ابن عباس رضي الله عنهما فابتدأ ينشده:

تشطُّ غدًا دارُ جِيرَانِنَا

فقال له ابن عباس:

وَلَلدَّارُ بعدَ غَدٍ أَبْعَدُ

فقال له عمر بن أبي ربيعة: "هكذا صنعت"...

فقد فطن ابن عباس رضي الله عنهما إلى الشطر الثاني من البيت قبل أن ينطق به ابن أبي ربيعة... وإلى هذا ترجع بلاغة الإرصاد؛ حيث يدل ابتداء الكلام على آخره وتنبئ موارده عن مصادره، ويكشف أوله عن آخره؛ ويرتبط آخره بأوله...

☆☆☆

العكس والتبديل

اختلف العلماء في هذا اللون، فبعضهم سماه "العكس" أو "المعكوس" وبعضهم سماه "التبديل"، وبعضهم سماه "القلب"، وبعضهم فرق بين شواهده وأمثلته فجعل بعضها "عكسًا وتبديلاً" وبعضها "قلبًا"... ومنهم من جعله جاريًا مجرى الطباق، ومنهم من جعله ضربًا من ضروب التجنيس، ومنهم من جعله من باب رد الأعجاز على الصدور... وليس وراء هذه الاختلافات كبير فائدة، فالذي يعنينا هو دراسة شواهد هذا اللون وصوره وتحديد مفهومه...

وقد عرفه الخطيب القزويني بقوله: "أن يقدم في الكلام جزء ثم يؤخر"، وجعله قاصرًا على الألفاظ دون الحروف وسمي ما يجري منه في الحروف قلبًا... فالعكس في الألفاظ يقع على وجوه:

منها أن يقع العكس بين أحد طرفي جملة وما أضيف إليه كما في قولهم: "شيم الأحرار أحرار الشيم"، "كلام الملوك ملوك الكلام"، "عادات السادات سادات العادات"، وقيل في أبي حيان التوحيدي: "إنه أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء"، وقال الحسن بن سهل: "لا خير في السرف ولا سرف في الخير"... وإذا ما تأملنا ودققنا النظر، وجدنا أثر الصنعة باديًا على أمثلة هذا الوجه من وجوه العكس والتبديل.

ومنها أن يقع بين متعلقي فعليين في جملتين، وهذا الوجه كثير الورود في الكلام الجيد والتراكيب البليغة، وهو خال -غالبًا- من التكلف... ومنه قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧﴾ [آل عمران: ٢٧]...

وقول الحماسي:

رَمَى الحدثَانُ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ بمقدارٍ سَمَدْنَ لَهُ سُمُودًا
فَرَدَّ شُعُورَهُنَّ السُّودَ بيضًا وردَّ وُجُوهَهُنَّ الْبِيضَ سُودًا[1]

---

(١) حرب: جد معاوية بن أبي سفيان والحدثان: الدهر، وسمدن: ذهلن.

ومنها أن يقع بين لفظين في طرفي جملتين، وهذا الوجه أكثر ورودًا من الوجهين السابقين، ومنه قوله تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٨٧]. وقوله عز وجل: ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقوله عز قائلاً: ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٥٢].

ومنه قول المتنبي:

فَلاَ مَجْدَ في الدُّنْيَا لمنْ قلَّ مالُهُ ... وَلاَ مَالَ في الدُّنَيا لمنْ قلَّ مَجْدُهُ

وقول الآخر:

قدْ يجْمَعُ المالَ غَيْرُ آكِلِهِ ... وَيأْكُلُ المالَ غيرُ مَنْ جمعَهُ

وَيَقْطَعُ الثَّوْبَ غيرُ لابِسِهِ ... وَيَلْبِسُ الثَّوْبَ غيرُ مَنْ قَطَعَهُ

وقول الشريف الرضي:

أَسَفَّ بِمَنْ يَطِيرُ إلى المعالي ... وطارَ بَمنْ يَسِفُّ إلى الدَّنَايَا

وقول الآخر:

إنَّ اللَّيَالِي للأنام مناهلٌ ... تُطوَى وَتُنْشَرُ دُونهَا الأَعْمَارُ

فَقِصَارُهُنَّ مع الْهُمُومِ طَوِيلَةٌ ... وَطِوَالهُنَّ مع السُّرُورِ قِصَارُ

ومنها ما يقع بعكس جميع ألفاظ الكلام، كما في قول القائل:

عَدَلُوا فَمَا ظَلَمَتْ لهُم دُوَلُ ... سُعدُوا فمَا زالت لهمْ نِعَمُ

بذلُوا فمَا شَحَّتْ لهُمْ شِيَمُ ... رُفعُوا فما زَلَّت لهمْ قَدَمُ

وهو مدح فإذا عكست كلماته صار ذمًا إذ يصبح بعد العكس:

نِعَمٌ لهمْ زالتْ فمَا سُعِدُوا ... دُوَلٌ لهمْ ظَلَمتْ فمَا عَدَلُوا

قدمٌ لهم زَلَّتْ فما رُفِعُوا ... شِيَمٌ لهُمْ شَحَّتْ فمَا بَذَلُوا

ومنها ما يقع بغير الوجوه المذكورة، كما في قول ابن الرومي:

طـواهُ الـرَّدَى عنِّـي فأضـحَى مَـزَارُهُ   بعيـدًا عـلى قُـرْبٍ قريبًـا عـلى بُعْـدِ

فقد وقع العكس والتبديل في خبر أضحى المتعدد، ولم يقع بعكس جميع الألفاظ كما في الوجه الرابع ولا في طرفي الجملتين كالوجه الثالث ولا في متعلقي فعلين كالوجه الثاني، ولا بين أحد طرفي جملة، وما أضيف إليه كالوجه الأول...

ومنه الآخر:

لـستُ أدرِي أذهــبٌ في فِــضَّةٍ   شخــصُهَا أمْ فــضَّةٌ في ذَهَــبِ

فقد وقع العكس والتبديل معمولاً للفعل أدري...

أما العكس في الحروف فقد سماه بعض البلاغيين كالخطيب والسكاكي "القلب" وعرفوه بأن يكون الكلام بحيث لو عكس كان الحاصل من عكسه هو ذلك الكلام بعينه... ولا يضر في القلب مد المقصور أو قصر الممدود ولا تخفيف المشدد أو تشديد المخفف، وكذلك لا يضر جعل الألف همزة أو الهمزة ألفًا أو تبديل بعض الحركات والسكنات، فكل ذلك جائز فيه.

ومن شواهد قوله تعالى: ﴿**وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ**﴾ [يس: ٤٠]، وقوله عز وجل: ﴿**وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ**﴾ [المدثر: ٣]، فهاتان الآيتان تستقيم قراءتهما طردًا وعكسًا... ومن ذلك قولهم: "أرض خضراء"، وقول عماد الدين الكاتب للقاضي الفاضل: "سر فلا كبا بك الفرس"، وجواب القاضي له: "دام علا العماد"، فهذه الأقوال تستقيم قراءتها طردًا وعكسًا...

ومنه قول القاضي الأرجاني:

مَوَدَّتُــــهُ تَــــدُومُ لِكُــــلِّ هَــــوْلٍ   وهــــلْ كُــــلٌّ مَوَدَّتُــــهُ تَــــدُومُ

فتستطيع أن تقرأ هذا البيت عكسًا كما تقرؤه طردًا، والقلب في الشواهد المذكورة قلب للجملة كلها أو للكلام بأسره واستقامة قراءته عكسًا وطردًا، وهناك نوع آخر من القلب وهو قلب الكلمة الواحدة لتفيد معنى آخر يقصد إليه الشاعر أو المتكلم الذي يصرح عادة بهذا القلب وينص عليه...

من ذلك قول الشاعر:

كَيْـــفَ الـــسُّرُورُ بإقبـــالٍ وآخِـــرُهُ   إذا تَأَمَّلْتَـــــهُ مَقْلُـــوبُ إِقْبَـــالِ

فمقلوب "إقبال": لا بقاء، والشاعر يريد أن الإقبال لا بقاء له، فكيف يسر به...

ومنه قول الآخر:

جَاذَبْتُهَـــا والـــريحُ تجْـــذِبُ عَقْرَبًـــا   مـــن فـــوقِ خـــدٍّ مِثْـــلِ قَلْـــبِ الْعَقْـــرَبِ

وَطَفِقْـــتُ أَلْـــثَمُ ثَغْرَهَـــا فتمنَّعَـــتْ   وَتحَجَّبَـــتْ عَنِّـــي بِقلـــبِ الْعَقْـــرَبِ

فقلب العقرب في البيت الأول مشبه به حيث شبه خدها به في الحمرة أما قلب العقرب في البيت الثاني فالمراد به: البرقع، لأن لفظ العقرب إذا قلب صار برقعًا، والمعنى: وضعت البرقع على وجهها حياء وتمنعًا...

هذا وقد يكون العكس للمعنى دون الألفاظ والحروف، كما في قول القطامي:

قـــدْ يُـــدْرِكُ الْـــمُتَأَنّي بَعْـــضَ حاجَتِـــهِ   وقـــدْ يكـــونُ مـــع الْمُـــسْتَعْجِلِ الزَّلَـــلُ

فقد جاء بعده من عكس هذا المعنى حيث قال:

وَرُبَّـــمَا فـــاتَ بَعْـــضَ القَـــوْمِ أَمْـــرُهُمُ   مـــع التَّـــأَنّي وكـــانَ الْـــحَزْمُ لـــو عَجِلُـــوا

ومن ذلك قول أبي الشيص:

أَجِـــدُ الملامـــةَ في هـــواكَ لذيـــذةً   شَـــغَفًا لِـــذِكْرِكِ فَلْيَلُمْنِـــي اللُّـــوَّمُ

فقد أخذ هذا المعنى أبو الطيب المتنبي وعكسه حيث قال:

أَأُحِبُّـــهُ وأُحِـــبُّ فِيـــهِ ملامـــةً   إنَّ الملامَـــةَ فيـــهِ مـــن أعدائِـــهِ

فأبو الشيص يحب اللوم، لأنه يذكره بحبيبه، والمتنبي بكرهه لأنه لا يستطيع أن يحب صاحبه ويحب اللوم فيه.

ومنه قول أبي تمام:

كـريمٌ متـى أَمْدَحُـهُ أَمْدَحُـهُ والـورَى   معِـي وإذَا مـا لُـمْتُهُ لُـمْتُهُ وَحْـدِي

أخذه ابن طاهر وعكس معناه حيث قال:

يـشتركُ العـالمُ في ذمِّـهِ   لكنَّنِـي أَمْدَحُـهُ وَحْـدِي

وهذا -كما هو واضح- أقرب إلى السرقات الشعرية منه إلى العكس والتبديل.

☆☆☆

التورية

التورية في اللغة: مصدر ورى، يقال: ورى الحديث إذا أخفاه وأظهر غيره، ووريت الخبر: جعلته ورائي وسترته وأظهرت غيره، وكأن المتكلم يجعله وراءه بحيث لا يظهر...

وأما في الاصطلاح البلاغي؛ فالتورية أن يطلق لفظ له معنيان، قريب وبعيد، ويراد البعيد منهما، اعتمادًا على قرينة خفية... ويسمى هذا الفن أيضًا باسم الإيهام، والمغالطة المعنوية والأحاجي والألغاز(١)...

ومن أمثلتها قول سراج الدين الوراق:

أصونُ أديمَ وجهِي عن أُناسٍ لقاءُ الموتِ عندَهُمُ الأديبُ
ورَبُّ الشِّعْرِ عِنْدَهُمُ بَغِيضٌ ولو وافَى بهِ لَهُمُ "حبيبُ"

فلفظ "حبيب" في البيت الثاني له معنيان: أحدهما: المحبوب، وهو المعنى القريب الذي يتبادر إلى الذهن، والثاني: اسم أبي تمام وهو حبيب بن أوس الطائي، وهذا هو المعنى البعيد الذي أراده الشاعر، وقد روى عنه بالمعنى القريب...

ومنها قوله عز وجل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الأنعام: ٦٠]، فلفظ ﴿ جَرَحْتُم ﴾ في الآية الكريمة له معنيان: قريب ظاهر غير مراد وهو إحداث تمزق في الجسد، والثاني بعيد خفي مراد وهو ارتكاب الذنوب واقتراف المعاصي... ومنها قول أبي العلاء المعري:

وَحَرْفٍ كَنُونٍ تحتَ راءٍ ولمْ يكنْ بدالٍ يَؤُمُّ الرَّسْمَ غَيَّرَهُ النَّقْطُ

فألفاظ هذا البيت مبنية على التورية؛ إذ معناه: أن هذه الناقة لضعفها وهزالها، قد انحنت وتقوست وصارت شبيهة بحرف النون في تقوسها، تحت رجل يضرب رئتيها ولا يرفق بها في السير فهو غير دال، يؤم بها دارًا غير المطر رسمها فالمعنى القريب الظاهر غير المراد "للحرف": أحد حروف الهجاء وللراء والدال: الحرفان

---

(١) انظر: الطراز جـ٣ ص ٦٢.

المعروفان، وللرسم: رسم الأحرف وكتابتها، وللنقط: تنقيط الأحرف... والمعنى البعيد لهذه الألفاظ: "للحرف" الناقة، و"الراء": اسم فاعل من رأى أي: ضرب الرئة، و"الدال": اسم فاعل من دلا يدلو إذا رفق في المسير، و"الرسم": أثر الديار و"النقط" المطر... وتلك المعاني البعيدة هي المرادة، وقد ورى عنها الشاعر بالمعاني القريبة، فبدت في صورة حسنة لطيفة، كما يبدو وجه الحسناء من وراء البرقع...

وبهذا يتضح أن التورية لفظ مفرد له معنيان إما بالاشتراك أو التواطؤ، أحد المعنيين قريب ظاهر غير مراد، والآخر بعيد خفي مراد، والمتكلم يوهم السامع أول الأمر أنه يريد المعنى القريب وعند التأمل يتضح أنه يريد المعنى البعيد، ولذا سمي هذا النوع أيضًا باسم الإيهام.

أنواع التورية

ذكر الخطيب القزويني أن التورية نوعان: مجردة ومرشحة، وأضاف المتأخرون نوعين آخرين: المبينة والمهيأة، وتنويع التورية إلى هذه الأنواع الأربعة إنما هو بالنظر لما يذكر معها مما يلائم المعنى القريب أو المعنى البعيد.

١-**التورية المجردة**: وهي التي لم يذكر معها لازم من لوازم المعنى القريب المورى به ولا من لوازم المعنى البعيد المورى عنه، أو ذكر فيها لازم لكل منهما...

من ذلك قوله عز وجل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، فكلمة ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ في الآية الكريمة لها معنيان: قريب غير مراد وهو الاستقرار في المكان... وبعيد مراد وهو الاستيلاء والملك، لأن الله عز وجل منزه عن المعنى الأول ولم يذكر في الآية ما يلائم أيا من المعنيين... وقيل: إن التورية في الآية مرشحة، لأن قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ مما يلائم المعنى القريب المورى به(١)...

(١) هذا ما ذكره البلاغيون وتردد في كتبهم متأثرين بما قاله المتكلمون كالمعتزلة وغيرهم... وقد علل بعض العلماء ما ذكره البلاغيون في مثل هذه الآية الكريمة بأن الذي ألجأهم إليه هو ظهور بدع المشبهة والمجسمة، فأرادوا سد باب الإيهام ودفع الوسواس عن العوام، حتى لا يخرجوا عن دائرة التنزيه، وحتى لا يحوموا حول التشبيه... والذي ينبغي أن يؤمن به كل مسلم ما عليه أهل السنة والجماعة، وهو أن الله تعالى منزه عن صفات الخلائق... ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، =

ومن ذلك قول النبي ﷺ في خروجه إلى بدر وقد قيل له: ممن أنتم؟ فلم يرد أن يعلم السائل فقال له: "من ماء" أراد عليه الصلاة والسلام، أنه مخلوق من ماء مهين فورى عنه بقبيلة من العرب يقال لها ماء أو بالعراق لأن "ماء" اسم من أسمائها... ولم يذكر في الكلام ما يلائم أيا من المورى به أو الموى عنه؛ فهي تورية مجردة... ومنها قول أبي بكر رضي الله عنه في أثناء الهجرة عندما سأله سائل عن النبي ﷺ: من هذا؟ فقال أبو بكر: هاد يهديني، أراد: هاد يهديني إلى الإسلام، فورى عن ذلك بهادي الطريق وهو الدليل في السفر، وليس في الكلام ما يلائم المورى به ولا المورى عنه...

ومما ذكر فيه ملائمان لكل من القريب والبعيد قول الشاعر:

أقولُ وقدْ شنُّوا إلى الحربِ غارةً دَعُوني فإنِّي آكلُ الْعَيْشِ بِالْجُبْنِ

فلفظ "الجبن" له معنيان. قريب مورى به وهو الجبن المأكول، وبعيد مورى عنه وهو الجبن ضد الشجاعة، وهذا هو المراد وقد ذكر الشاعر ملائمًا للمعنى البعيد، وهو قوله: "شنوا إلى الحرب غارة" وملائمًا للقريب وهو: "آكل العيش" ولذا فهي تورية مجردة...

ومنها قول ابن الوردي:

قالَتْ إذا كنتَ تَهْوَى وصْلِي وَتخْشَى نُفُورِي
صِفْ وردَ خدِّي وإلاَّ أجورُ، ناديتُ جُورِي

فلفظ "جوري" له معنيان. قريب ظاهر غير مراد، وذلك بأن يكون فعل أمر من "جار" مسند إلى ضمير المخاطبة، وقد ذكر ملائم له وهو: "وإلا أجور" وبعيد خفي وهو اسم نوع من الورد يسمى "جوري" وقد ذكر ما يلائمه وهو قوله "صف ورد خدي"...

=

فهو مستو على عرشه استواءً يليق بجلاله، لا يماثل استواء المخلوقين، ولذا لما سئل مالك بن أنس عن الاستواء في الآية الكريمة، قال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة... أرجع إلى الإيضاح ٤/ ٢٩، وروح المعاني للألوسي ٢٧/ ١٦٨، والمختار من كنوز السنة للدكتور: محمد عبد الله دراز ١٨٦... ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٥/ ١٤٤.

ومنها قول الآخر:

ومُولَـــــعٍ بِفِخَـــــاخٍ يَمُـــــدُّهَا وشِـــــبَاكِ
قالـــــتْ لِيَ العـــــينُ مـــــاذا يَـــــصِيدُ قُلْـــــتُ كَرَاكِـــــي

فلفظ "كراكي" له معنيان: قريب غير مراد وهو جمع "كركي"، طائر رمادي اللون يأوي إلى الماء، وقد ذكر ما يلائمه وهو الصيد: "يصيد"، وبعيد مراد وهو "الكري" مضافًا إلى ضمير العين: "كراكِ" والكرى هو النوم، وقد ذكر ملائم هذا المعنى وهو "العين"، فهي من التورية المجردة...

٢-**التورية المرشحة**: وهي التي يذكر فيها لازم المعنى القريب المورى به... وسميت مرشحة لتقويتها بذكر لازم المعنى القريب غير المراد؛ فإنها تزداد بذكره إيهامًا...

ومن شواهدها قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧]، فقوله "بأيد" يحتمل اليد بمعنى الجارحة، وهذا هو المعنى القريب المورى به، وقد ذكر ما يلائمه وهو "بنيناها"، لأن البنيان من لوازم الجارحة، ويحتمل "القوة"، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه وهو المراد؛ لتنزهه سبحانه وتعالى عن المعنى الأول[١]...

ومنها قول الحماسي يحيى بن منصور:

فلـــمَّا نـــأَتْ عنَّـــا العـــشيرةُ كلُّهَـــا أَنَخْنَـــا فحالفْنَـــا الـــسيوفَ عـــلى الـــدَّهْرِ
فـــمَا أَسْـــلَمَتْنَا عنـــدَ يـــومِ كريهـــةٍ ولا نحنُ أَغْضَيْنَا الجُفُونَ على وَتْرِ[٢]

فلفظ "الجفون" له معنيان: قريب مورى به وهو "جفون الأعين"، وقد تقدم ذكر لازم من لوازمه على جهة الترشيح وهو "الإغضاء"، لأن الإغضاء من لوازم العين، وبعيد مورى عنه وهو "جفون السيوف" أي: أغمادها، أما ذكر السيوف في البيت الأول فهو قرينة التورية، ولذا لا يعد من لوازم المعنى البعيد...

---

(١) وما عليه أهل السنة أن لله تعالى يدًا ليست كأيدينا، وعلى ذلك؛ فلا تورية في الآية.
(٢) نأت: بعدت، وأنخنا: كناية عن إقامتهم بدارهم واكتفائهم بأنفسهم... والكريهة: الحرب... والوتر: الثأر.

ومنها قول شوقي في رثاء حافظ إبراهيم:

يـا حَـافِظَ الْفُـصْحَى وحَـارِسَ مجْـدِهَا ... وإمـــامَ مَـــنْ نَجَلَـــتْ مِـــنَ الْبُلَغَـــاءِ

خَلَّفْـــتَ في الـــدُّنْيَا بَيَانًـــا خَالِـــدًا ... وتَرَكْـــتَ أجيـــالاً مـــن الأَبْنَـــاءِ

وَغَـــدًا سَـــيَذْكُرُكَ الزَّمَـــانُ ولمْ يَـــزَلْ ... لِلـــدَّهْرِ إنْـــصَافٌ وحُـــسْنُ جَـــزَاءِ

فالمعنى القريب للفظ (حافظ) أن يكون اسم فاعل من حفظ، وقد ذكر ملائم لهذا المعنى وهو "الفصحى وحارس" فهما يقتضيان أن يكون لفظ (حافظ) من المحافظة، والمعنى البعيد هو اسم شاعر النيل، حافظ إبراهيم، فالتورية، تورية مرشحة...

ومنها قوله أيضًا على سبيل المزاح والمداعبة لحافظ.

وَحمَّلْـــتُ إنـــسانًا وكلبًـــا أمانـــةً ... فـــضيَّعَهَا الإنـــسانُ والكلـــبُ حـــافظُ

ورد حافظ عليه مداعبًا أيضًا:

يقولـــونَ: إنَّ الـــشوقَ نـــارٌ ولوعـــةٌ ... فـــمَا بـــالُ شـــوقِي الآنَ أصـــبحَ بـــاردًا

فالمعنى القريب (لحافظ) اسم فاعل من (حفظ)، وقد ذكر ما يلائمه، «وحملت إنسانًا وكلبًا أمانة فضيعها الإنسان»، والمعنى القريب "لشوقي" أن يكون من الشوق والحنين، وقد ذكر لازمه: "إن الشوق نار ولوعة"، والمعنى البعيد لكل منهما وهو المراد: أن يكونا علمين لشاعر النيل: حافظ إبراهيم، وأمير الشعراء: أحمد شوقي، فالتورية في البيتين تورية مرشحة.

ومنها قول الآخر:

حَمَلْنَـــاهُمُ طُـــرًّا عـــلى الـــدُّهْمِ بعـــدَمَا ... خَلَعْنَـــا علـــيهِمْ بِالطِّعَـــانِ ملابـــسَا[1]

فلفظ "الدهم" يحتمل الخيل، جمع أدهم وهو الفرس الأسود، وهذا هو المعنى القريب المورى به وهو غير مراد وقد ذكر ملائم لهذا المعنى وهو قوله: "حملناهم"

(١) طرا: حال بمعنى جميعًا.

فالحمل من لوازم الخيل... ويحتمل: القيود من الحديد وهو المعنى المورى عنه وهو المراد بدليل قوله: "خلعنا عليهم بالطعان ملابسا".

ونلاحظ فيما مر من شواهد التورية المرشحة أن ملائم المورى به قد ذكر قبل لفظ التورية، ما عدا أبيات شوقي في رثاء حافظ فقد ذكر بعد...

ومما ذكر فيه الملائم بعد التورية أيضًا قول الشاعر:

مُذْ هِمْتُ من وَجْدِي في خالِهَا   ولمْ أصِلْ منهُ إلى اللَّثْمِ

قالتْ: قفُوا واستمِعُوا ما جرَى   خالِي قدْ هامَ بهِ عمِّي

فلفظ "خالي" يحتمل الخال من النسب -أخو الأم- وهو المعنى القريب المورى به، وقد ذكر ملائمه بعد التورية على جهة الترشيح وهو: "عمي" ويحتمل أن يكون المراد به الشامة السوداء التي تظهر في خد الحسناء وهذا هو المعنى البعيد الخفي المورى عنه وهو المراد...

وفي "عمي" كذلك تورية إذ المعنى القريب المتبادر إلى الذهن: العم من النسب أخو الأب، والبعيد المراد: الكبير سنًا، الذي هو بمنزلة العم للقائلة.

وقول الآخر:

يا حبَّذا شَجَرٌ وطيبُ نَسِيمِهَا   لو أنهَا تُسْقَى بماءٍ واحدِ

فلفظ "شجر" معناه القريب المورى به: ماله ساق من النبات، وقد ذكر بعد لفظ التورية ما يلائم هذا المعنى وهو "طيب النسيم والسقي بماء واحد" ومعناه البعيد المورى عنه "اسم امرأة"، فهي تورية مرشحة ذكر فيها المورى به بعد لفظ التورية...

٣-**التورية المبينة**: وهي ما ذكر فيها لازم المعنى البعيد المورى عنه وسميت مبينة لأن هذا اللازم يبينها ويقربها... وقد يكون اللازم قبل لفظ التورية كما في قول البحتري:

ووراءَ تَسْدِيَةِ الوِشَاحِ مَليَّةٌ   بالحُسْنِ تَمْلُحُ في القلوبِ وتَعْذُبُ

فلفظ "تملح" يحتمل أن يكون من الملوحة ضد العذوبة وهذا هو المعنى

القريب المورى به... ويحتمل أن يكون من الملاحة وهي الحسن والجمال وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، وقد تقدم ذكر ملائمه وهو قوله "ملية بالحسن"، أما قوله "تعذب" فيلائم كلا من الملوحة والملاحة، يلائم الملوحة على أنهما ضدان، ويلائم الملاحة على أنهما مترادفان...

ومنها قول الشاعر:

قالُوا: أمَا في جِلَّقَ نزهةٌ تُنسيكَ مَنْ أنتَ بهِ مُغْرَى
يا عاذِلِي دونَكَ مِنْ لحظِهِ سَهْمًا وَمِنْ عارضِهِ سَطْرَا

فالمعنى البعيد المورى عنه بكل من "السهم والسطر" هو الموضعان المشهوران بمنتزهات دمشق، وقد ذكرت النزهة بجلق قبلهما وهي من ملائمات هذا المعنى أما المعنى القريب المورى به فهو سهم اللحظ وسطر العارض وهما غير مرادين... ومنها قول الآخر:

أَرَى الْعِقْدَ في ثَغْرِهِ مُحْكَمَا يُرِينَا الصِّحَاحَ من الجوهرِ

فلفظ "الصحاح" معناه القريب: كتاب الجوهري في اللغة ومعناه البعيد: أسنان الحبيب، وقد ذكر قبله ما يلائم هذا المعنى وهو قوله: "في ثغره" فالتورية في البيت تورية مبينة...

ومنها أيضًا قول الشاعر:

أمولانَا ضياءُ الدينِ قلْ لي وعشْ فبقاءُ مولانَا بقائِي
فلولاَ أنتَ ما أَغْنَيْتُ شيئًا وما يُغْنِي السِّرَاجُ بلا ضياءِ

ففي لفظي "السراج وضياء" تورية مبينة؛ إذ معناهما القريب: المصباح الذي يستخدم في الإضاءة، والضوء الذي يبدد الظلام... ومعناهما البعيد؛ اسم الشاعر "سراج الدين" واسم الممدوح "ضياء الدين"، وقد ذكر قبل اللفظين ما يلائم هذا المعنى البعيد وهو قوله: "مولانا ضياء الدين. لولا أنت ما أغنيت شيئًا"...

وقد يذكر لازم المورى عنه بعد لفظ التورية، كما في قول الشاعر:

أرَى ذَنَبَ السِّرْحَانِ في الأفقِ طالِعًا فهلْ ممُكِنٌ أنَّ الغزالةَ تَطْلُعُ

فالبيت فيه توريتان مبينتان وهما في "ذنب السرحان" وفي "الغزالة"؛ إذ المعنى القريب لذنب السرحان: ذنب الحيوان المعروف وهو الذئب، وللغزالة: الظبي، والمعنى البعيد المورى عنه للأول ضوء النهار وقد ذكر بعده ما يلائمه وهو قوله: "في الأفق طالعًا" وللثاني الشمس وقد قرن بملائمه "تطلع"... فالتورية في الموضعين مبينة حيث ذكر بعد كل ما يلائم المعنى البعيد المراد...

وكما في قول ابن سناء الملك:

أمَا واللهِ لولا خوفُ سُخْطِكْ   لهانَ عليَّ ما أَلقَى بِرَهْطِكْ

مَلَكْتَ الخافِقَيْنَ فَتُهْتَ عُجْبًا   وليس هما سوى قلبِي وقُرْطِكْ

فالخافقان معناهما القريب المورى به: المشرق والمغرب ومعناهما البعيد المورى عنه: قلبه وقرط حبيبه، وقد بين هذا المعنى بالنص عليه في الشطر الأخير: "وليس هما سوى قلبي وقرطك".

ومن التورية المبينة التي ذكر فيها الملائم قبلا قول القاضي عياض يصف صيفًا باردًا:

كأنَّ كانونَ أهدَى من ملابِسِهِ   لشهرِ تمُّوزَ ألوانًا من الْحُلَلِ

أو الغزالةَ من طولِ المدَى خَرِفَتْ   فما تُفَرِّقُ بينَ الْجَدْيِ والْحَمَلِ

ففي ألفاظ "الغزالة والجدي والحمل" توريات مبينة؛ إذ المعنى القريب للغزالة: "الظبية"، وللجدي: "ولد المعز"، وللحمل "ولد الضأن" والمعنى البعيد للغزالة: "الشمس"، وللجدي: "برج الجدي" وهو برج البرد، وللحمل: "برج الحمل"، وهو برج الدفء، وقد ذكر في البيت الأول ما يلائم هذه المعاني البعيدة المورى عنها وهو إهداء كانون من ملابسه لتموز ألوانًا من الحلل... ومعنى البيتين: أن هذا صيف بارد وكأن برودته ترجع إلى أن شهر كانون الواقع في زمن البرد قد أهدى لشهر تموز الواقع في زمن الصيف ألوانًا من البرد والصقيع... أو أن الشمس قد خرفت فبدل أن تنزل في برج الدفء وهو برج الحمل نزلت في برج البرد وهو برج الجدي، وكأنها لم تستطع أن تفرق بين البرجين لتخريفها...

وبعض البلاغيين يرى أن التورية في الغزالة مرشحة لأن "خرفت" بمعنى قل عقلها تلائم المعنى القريب وهو الظبي، وهذا ليس برأي، لأن المعنى قائم على التصوير والتخييل، فإسناد: "خرفت" إلى الغزالة استعارة تخييلة على نحو ما درست في علم البيان: وبعضهم يرى أن الغزالة والجدي والحمل، توريات مرشحة ترشح كل منهما الأخرى، وهذا أيضًا ليس برأي، لأن ملائم المعنى ولوازم التورية يشترط فيها ألا تكون ألفاظًا مشتركة والغزالة والجدي والحمل ألفاظ مشتركة بين المعنيين المذكورين لكل منها... وبعضهم يرى غير ذلك، والصواب ما ذكرناه.

٤ -**التورية المهيأة**: وهي التي تفتقر إلى ذكر شيء قبلها أو بعدها يهيئها لاحتمال المعنيين، وإلا لم تتهيأ التورية أو تكون التورية في لفظين أو أكثر لولا كل منهما لما تهيأت التورية في الآخر... من ذلك قول ابن سناء الملك:

وَسَيْرُكَ فينَا سِيَرَةً عُمَرِيَّةً … فَرَوَّحْتَ عن قلبٍ وفَرَّجْتَ عن كَرْبِ

وَأظْهَرْتَ فينَا من سُمِيِّكَ سُنَّةً … فأظْهَرْتَ ذاكَ الفرضَ من ذلكَ النَّدْبِ

"فالفرض والندب" يحتملان أن يكون من الأحكام الشرعية وهذا هو المعنى القريب المورى به ويحتمل أن يكون الفرض بمعنى "العطاء" والندب بمعنى "الرجل السريع في قضاء الحوائج" وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه؛ ولولا ذكر لفظ "السنة" لما تهيأت التورية ولما فهم من الفرض والندب الحكمان الشرعيان اللذان بهما كانت التورية...

ومنها قول ابن الربيع:

لولا التَّطَيُّرُ بالخلافِ وأنَّهُمْ … قالُوا: مريضٌ لا يعودُ مريضَا

لَقَضَيْتُ نَحْبِي في فِنائِكَ خِدْمَةً … لأَكُونَ مندوبًا قضى مفروضَا[١]

"فالمندوب" يحتمل أن يكون اسم مفعول من ندب الميت إذا بكاه، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه والذي قصده الشاعر، ويحتمل أن يكون أحد الأحكام

---

(١) التطير: التشاؤم، والخلاف: مخالفة العرف والعادات، والنحب: الأجل.

الشرعية وهو المعنى القريب المورى به... ولولا ذكره المفروض، بعده لما تنبه السامع للمعنى القريب للمندوب ولما كان هنالك تورية، فلفظ "مفروضًا" قد هيأ هذه التورية.

ومنها قول علي ﷺ في الأشعث بن قيس: "إنه كان يحوك الشمال باليمين"... "فالشمال" يحتمل أن يكون جمع شملة وهي الكساء يشتمل به، وهذا هو المعنى البعيد المراد، ويحتمل أن يكون "اليد الشمال" نقيض اليمين وهذا هو المعنى القريب، وذكر اليمين بعد الشمال هو الذي هيأ لهذه التورية.

ومما وقعت فيه التورية بلفظين لولا كل منهما لم تتهيأ الأخرى قول عمر بن أبي ربيعة:

أيُّهَا الْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً عَمْرُكَ اللهُ كيفَ يَلْتَقِيَانِ

هِيَ شَامِيَّةٌ إذا ما اسْتَقَلَّتْ وسُهَيْلٌ إذَا مَا اسْتَقَلَّ يَمَانِ

فكل من "الثريا وسهيل" هيأ صاحبه للتورية؛ إذ المعنى القريب للثريا: النجم، وكذلك سهيل، والمعنى البعيد للثريا: المرأة العظيمة المنزلة وهي بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر، ولسهيل: الرجل، وهو سهيل بن عبد الرحمن بن عوف، وقيل: كان رجلاً مشهورًا من اليمن؛ فكل من اللفظين قد هيأ الآخر للتورية، ومن ثم تم للشاعر ما أراد من الإنكار على من جمع بينهما بألطف وجه.

ما الفرق بين اللفظ المهيئ واللفظ الملائم؟

وهناك فرق بين ما يهيئ للتورية وما يرشحها أو يبينها، فاللفظ الملائم في التورية المرشحة أو المبينة لازم من لوازم المعنى، أو بصيغة أخرى خصوصية من خصوصياته، فهو لازم خاص ويشترط فيه كما أوضحنا ألا يكون من الألفاظ المشتركة، وهو إما مقوٍ للتورية المرشحة أو مبين للتورية المبينة، ولو لم يذكر هذا الملائم لصحت التورية وظلت موجودة... أما اللفظ المهيئ؛ فإنه إذا لم يذكر لا تكون التورية أصلاً... ولننظر في قول ابن أبي ربيعة: "أيها المنكح الثريا سهيلا"... فإننا لو غيرنا أحد اللفظين فقلنا: "أيها المنكح هندًا سهيلا"... لم تكن هنالك تورية في لفظ "سهيل".

الفرق بين التورية وكل من المجاز والكناية

تختلف التورية عن كل من المجاز والكناية من جهتين:

إحداهما: أن القرينة في التورية تكون غالبًا قرينة خفية، أما في المجاز والكناية فغالبًا ما تكون ظاهرة بينة.

ثانيهما: أن كل معنى من معنيي التورية يفهم من اللفظ من غير وساطة الآخر أو احتياج إلى علاقة بينهما، أما في الكناية أو المجاز، فلابد من وجود علاقة بين المعنى الأصلي للفظ والمعنى المجازي أو الكنائي المراد منه.

بلاغة التورية

وتكمن بلاغة التورية في ثلاثة أمور:

أولها: أن المعنى البعيد المراد الموري عنه يبدو من خلف المعنى القريب غير المراد في صورة حسنة لطيفة كما يبدو وجه المرأة الحسناء من وراء البرقع.

ثانيها: أن المخاطب يدرك من لفظ التورية في بادئ الأمر معناها القريب، لسرعة إدراكه قبل البعيد، ولخفاء القرينة فيها... فإذا ما وقف على المعنى البعيد بعد ذلك وأدركه بالتأمل وإطالة النظر كان له وقعه في النفوس وأثره الحسن.

ثالثها: أنها تمكن المتكلم من أن يخفي المعاني التي يخشى التصريح بها. فيوري عنها بمعان تفهم من لفظ التورية، وبهذا يدفع المحذور مع الصدق، كما رأينا في إجابة أبي بكر رضي الله عنه للسائل عن الرسول ﷺ إذ قال له: «هَادٍ يَهْدِينِي»... وكما رأينا في إجابة الرسول ﷺ في خروجه لبدر عندما سأله سائل: ممن أنتم؟ إذ قال له: «مِنْ مَاءٍ».

الاستخدام

وهو أن يذكر لفظ له معنيان، فيراد أحد المعنيين باللفظ ويعود عليه ضمير بالمعنى الآخر، أو يعود عليه ضميران كل واحد منهما بمعنى... أو يذكر بعده تمييز متعدد كل تمييز بمعنى، أو يذكر اللفظ بمعنى ويشار إليه بالمعنى الآخر، ولا فرق في المعنيين اللذين يدل عليهما اللفظ بين أن يكونا حقيقيين أو مجازيين أو مختلفين... كما سنرى في شواهده.

صور الاستخدام

ومن خلال تعريف الاستخدام يتضح لنا أنه يأتي في الكلام على عدة صور أهمها:

١-أن يذكر اللفظ بمعنى، ويعود إليه ضمير بمعنى آخر، كما في قول الشاعر:

إذا نزلَ السَّماءُ بأرضِ قومٍ رَعَيْنَاهُ وإنْ كانُوا غِضَابًا

فهو يصف قومه بالغلبة والقوة والسلطان، وأنهم قوم لا يخشون أحدًا، فإذا نزل المطر بأرض غيرهم، فهم يرعون الكلأ والنبات الناتج عنه رغمًا عن هؤلاء الذين نزل المطر بأرضهم... ونلاحظ أن "السماء" لفظ له معنيان بل أكثر: فالمعنى الحقيقي للسماء: ما قابل الأرض، ويطلق مجازًا على المطر وعلى النبات، والمراد منه في البيت معنياه المجازيان؛ حيث ذكر لفظ "السماء" بمعنى "المطر" وعاد إليه الضمير بمعنى "النبات".

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ** ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فالمراد بالشهر في قوله ﴿ **فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ** ﴾: الهلال، والمراد بالضمير في قوله: ﴿ **فَلْيَصُمْهُ** ﴾: الزمن المعلوم، أي: مدة الشهر فلفظ ﴿ **ٱلشَّهْرَ** ﴾ قد ذكر بمعنى وعاد إليه ضميره بمعنى آخر، هذا على اعتبار أن شهد بمعنى: رأى وأبصر، أما إذا جعلت بمعنى: حضر وأقام؛ فلا استخدام في الآية الكريمة.

٢-أن يعود إلى اللفظ ضميران كل ضمير بمعنى... كما في قول الشاعر:

تَاللهِ مَا ذُكِرَ الْعَقِيقُ وأَهْلُهُ إلا وأجرَاهُ الغرامُ بِمَحْجَرِي (١)

---

(١) العقيق: خرز أحمر تتخذ منه الفصوص، واحدته: عقيقة، ويشبه به الدم في الحمرة، انظر لسان العرب مادة: عقق.

فالمراد بالعقيق "المكان"- اسم لمكان بظاهر المدينة- وقد عاد إليه الضمير في قوله: "وأجراه" بمعنى: الدم الأحمر الشبيه بالعقيق... أما الضمير في قوله: "وأهله" فيرجع إليه بنفس معنى المكان...

وانظر قول البحتري:

فسقَى الغضَا والسَّاكنِيهِ وإنْ هُمُ شَبُّوهُ بين جوانحٍ وقلوبِ

فالغضا يطلق على شجر يسمى شجر الغضا، ويطلق أيضًا على مكان بنجد يسمى وادي الغضا، والشاعر قد ذكر لفظ "الغضا" وأراد به "الشجر" ثم أعاد عليه الضمير في قوله "والساكنيه" بمعنى: المكان... وفي قوله: "شبوه": بمعنى الشجر... ومعنى البيت: أن الشاعر يدعو الله بالسقيا لأشجار هذا المكان ولأهله وإن هم عذبوه وأوقدوا النيران بين جوانحه وفي قلبه.

٣-أن يذكر اللفظ بمعنى ويشار إليه بمعنى آخر... كما في قول الشاعر:

رأيَ العقيقَ فأجرَى ذاكَ ناظرُهُ مُتَيَّمٌ لَجَّ في الأشواقِ خاطِرُهُ

ذكر العقيق بمعنى المكان بظاهر المدينة، ثم أعاد إليه اسم الإشارة في قوله: "فأجرى ذلك ناظره" بمعنى: الدم الأحمر الشبه بالعقيق، وهذا على جعل "ذاك" مفعولاً به مقدمًا، وناظره، فاعلاً مؤخرًا، أما على جعل "ذاك" فاعلاً و"ناظره" مفعولاً، فلا استخدام في البيت.

٤-أن يذكر اللفظ وبعده تمييزان كل تمييز بمعنى... كما في قول القائل:

حكَى الْغَزَالَ طلعةً وَلَفْتَةً مَنْ ذَا رآَهُ مُقْبِلاً ولا افتَتَنْ

فالغزال يراد به الشمس والظبي، وقوله: "طلعة" تمييز أفاد أن المراد بلفظ "الغزال" الشمس، أي: حكى الشمس في حسن الطلعة والجمال...

وقوله: "لفتة" تمييز آخر أفاد أن المراد "بالغزال" الظبي، أي: حكى الظبي في حسن التلفت... ونلاحظ أن بين لفتة، و "لا افتتن" جناس تام.

٥-أن يقع الاستخدام بأسلوب الاستثناء... كما في قول البهاء زهير:

أَبَـــدًا حـــديثِي لـــيسَ بِالْـــ مَنْـــسُوخِ إلاَّ في الـــدَّفَاتِرِ

فالنسخ: يراد به: الإزالة والمحو، ويراد به: النقل وإعادة الكتابة يقال: نسخ الكتاب: نقله وأعاد كتابته، وقد أراد الشاعر بالنسخ في قوله "بالمنسوخ" المعنى الأول: الإزالة والمحو، وأراد بالنسخ الواقع في المستثنى أي "في الدفاتر"... النقل وإعادة الكتابة، ومراد الشاعر أن حديثه لا يمحى ولا ينسخ، ولكنه ينقل وتعاد كتابته في الدفاتر.

٦-أن يأتي الاستخدام في لفظ له أكثر من معنيين... كما في قول ابن الوردي:

ورُبَّ غزالـــــةٍ طلعَـــــتْ بقلبـــــي وهـــوَ مَرْعَاهَـــا
نَـــصَبْتُ لهَـــا شـــباكًا مِـــن لجُـــيْنٍ ثـــمَّ صِـــدْنَاهَا
فقالَـــتْ لِي وقـــدْ صِرْنَـــا إلى عَـــيْنٍ قَـــصْدْنَاهَا
بَـــذَلْتَ العـــينَ فاكْحَلْهَـــا بِطَلْعَتِهَـــا و مجْراهَـــا

ففي هذه الأبيات استخدامان:

الاستخدام الأول: في لفظ ذي معان وهو لفظ "غزالة"؛ حيث أريد به في قوله: "ورب غزالة": الشمس على سبيل استعارتها للمرأة، ثم عاد إليه الضمير في قوله: "مرعاها، لها، صدناها"... بمعنى الظبي على سبيل استعارته أيضًا للمرأة... ثم عاد إليه الضمير ثانية في قوله: "فقالت"... بمعنى المرأة، فاللفظ قد استخدم في معنى ثم عادت إليه الضمـائر بمعنيين آخرين مختلفين.

والاستخدام الثاني: في لفظ ذي معنيين وهو لفظ "العين"؛ حيث ذكر في قوله "بذلت العين" بمعنى: الفضة، وعاد إليه الضمير في قوله: "فاكحلها" بمعنى الناظرة.

وجه تسمية هذا الفن بالاستخدام

وعندما ننظر في صور الاستخدام المذكورة نجد أن اللفظ قد استخدم في معنى، ثم استخدم ضميره في معناه الآخر أو استخدمت الضمائر العائدة عليه في معنييه أو في معانيه المختلفة...

أو استخدم اللفظ في معنى، واسم الإشارة العائد إليه في المعنى الآخر، أو استخدم كل تمييز من التمييزين المذكورين بعده في معنى من معنييه... أو استخدام أول الكلام في أحد معنييه وآخره في المعنى الآخر... إلى آخر ما ذكر من صوره... ولهذا سمي باسم "الاستخدام".

بلاغة الاستخدام

وتكمن بلاغة الاستخدام فيما يحققه من الإيجاز ففي قوله مثلاً: "إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه"... تجد أن رعيناه، أخصر من قولنا: "رعينا النبات الناشئ عنه، والإيجاز هو البلاغة كما قالوا، كما تكمن بلاغة هذا الأسلوب أيضًا فيما يحققه من تنبيه المخاطب وإيقاظه وإثارة فكره لأن أول ما يتبادر إلى ذهنه من الضمير في "رعيناه" مثلاً هو المعنى الذي استخدم فيه اللفظ المذكور "السماء" ولكنه يفاجأ بأن الضمير قد استخدم في معنى آخر، وفي هذا إثارة للفكر وتنبيه للذهن فيكون المعنى أوقع في النفس وأبلغ وأقوى أثرًا.

الفرق بين الاستخدام والتورية

سبق أن عرفنا أن اللفظ في التورية يكون له معنيان أو أكثر، وكذلك في الاستخدام، اللفظ له معنيان، أو أكثر، ولكن يفرق بينهما من جهتين:

أولاهما: أنه في التورية يكون أحد المعنيين قريبًا والآخر بعيدًا، أما في الاستخدام فلا يشترط ذلك.

الثانية: أن التورية يراد فيها أحد المعنيين وهو البعيد المورى عنه، ويلغى الآخر، وهو القريب المورى به، أما في الاستخدام فيراد المعنيان معًا كما رأينا.

***

التوجيه

هو إيراد الكلام محتملاً وجهين متضادين كالمدح والهجاء أو الذم والثناء... ولابد أن يكون هذا الاحتمال على حد سواء، فلو كان أحد الوجهين متبادرًا إلى الذهن، لم يكن توجيهًا.

ومن شواهده قول بشار في خياط أعور يسمى عمرًا:

خَاطَ لِي عَمْرٌو قَبَاءً ... لَيْتَ عَيْنَيْهِ سَوَاءْ

فاسْأَلِ النَّاسِ جَمِيعًا ... أَمَدِيحٌ أم هِجَاءْ(١)

فالبيت الأول يحتمل وجهين: تمني أن تشفى العين العوراء فيصبح مبصرًا بالاثنتين، أو تصاب العين السليمة، فيصبح أعمى، ولذا لا أحد يدري أقصد الشاعر مدح عمرو والدعاء له أم قصد ذمه والدعاء عليه...

ومثله قول محمد بن حازم في تهنئة الحسن بن سهل بزواج ابنته بوران بالمأمون:

بَارَكَ اللهُ للحَسَنِ ... ولبُورَانَ في الْخَتَنْ

يَا إمَامَ الْهُدَى ظَفِرْ ... تَ بِبِنْتِ مَنْ؟(٢)

حيث لم يعلم ماذا أراد بقوله: "ظفرت ببنت من؟" هل أراد الرفعة؟ أم أراد الضعة؟، ولذا قال المأمون عندما سمع البيتين: والله ما ندري أخيرًا أراد أم شرًا...

ومنه قول حسان بن ثابت رضي الله عنه يرد على من هجا النبي ﷺ:

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنهُ ... وعندَ اللهِ في ذاكَ الجزاءُ

أَتَهْجُوهُ ولستَ لَهُ بِكُفْءٍ؟ ... فَشَرُّكُمَا لخيرِكُمَا الْفِداءُ

فقوله: "شركما لخيركما الفداء" كلام يحتمل الوجهين؛ لأنه لا يفيد من أراد بالشر، ومن أراد بالخير.

---

(١) القباء: ثوب يلبس فوق الثياب.

(٢) الختن: كل من كان من قبل المرأة مثل الأب والأخ.

ومنه ما يحكى أن ابن الجوزي سئل: "أي الرجلين أفضل أبو بكر أم علي"؟ فأجاب بقوله: "من كانت ابنته تحته"... فتلك الإجابة تحتمل وجهين: تفضيل أبي بكر على عليٍّ، وتفضيل عليٍّ على أبي بكر، لأن الضمير الأول إن عاد إلى "من" عاد الثاني إلى النبي ﷺ ويكون المراد بالابنة عائشة رضي الله عنها، وعندئذ يكون المفضل أبا بكر وإن عاد الضمير الثاني إلى "من" عاد الأول إلى الرسول ﷺ ويكون المراد بالابنة فاطمة رضي الله عنها وعندئذ يكون المفضل عليًّا...

ومن ذلك قوله تعالى في شأن اليهود وموقفهم من النبي ﷺ: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾ [النساء: ٤٦]، فقوله تعالى: ﴿ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ يحتمل وجهين: الذم، ويكون المعنى عندئذ: اسمع مدعوا عليك بلا سمعت، أو اسمع غير مجاب ما تدعو إليه، أي غير مسمع جوابًا يوافقك، فكأنك لم تسمع شيئًا، أو اسمع غير مسمع كلامًا ترضاه، فسمعك عنه ناب، ويحتمل المدح، والمعنى: اسمع غير مسمع مكروهًا كما في قولهم: أسمع فلان فلانًا، إذا سبه وشتمه...

وكذا قوله "راعنا"، يحتمل أن يكون شبه كلمة عبرانية كانوا يتسابون بها وهي: راعينا بإشباع العين[١]... ولهذا نهى الله عز وجل المؤمنين عن هذه اللفظة فقال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ﴾ [البقرة: ١٠٤]، فهؤلاء اليهود كانوا يكلمون النبي ﷺ بكلام محتمل ينوون به السب والإهانة، ويظهرون به التوقير والاحترام، وذلك سخرية منهم بالدين واستهزاء بالرسول ﷺ -ولا يقال- كيف ينطقون بكلام محتمل بعدما صرحوا بالعصيان فقالوا: "سمعنا وعصينا" لأن جميع الكفرة كانوا يواجهون النبي ﷺ بالكفر والعصيان، ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء، أو أنهم صرحوا بالعصيان فيما بينهم، أو أنهم لم ينطقوا بالعصيان، ولكن لعدم إيمانهم جعلوا كأنهم قد نطقوا به[٢].

---

(١) انظر الكشاف ١/ ٤٠٠.

(٢) انظر الكشاف جـ ١ ص ٤٠١.

بلاغة التوجيه

وتكمن بلاغة التوجيه فيما يفيده من الإيهام والاحتمال، لأنه إذا كان البيان والوضوح من مقاصد البلاغة، فكذلك الإيهام والاحتمال يكونان من مقاصدها وأهدافها، فهذا الأسلوب يجعل صاحبه في مأمن من المؤاخذة والعقاب؛ لأنه يقول كلامًا يحتمل وجهين، فإذا شاء مال به إلى الذم فينال من مذمومه، وإذا شاء مال به إلى المدح فينجو من المؤاخذة ويبرأ من الإثم.

الفرق بين التوجيه وكل من الاستخدام والتورية

لكل من التوجيه والتورية والاستخدام معنيان، ولكن يفرق بينهما من عدة وجوه، وقد رأينا فيما سبق الفرق بين التورية والاستخدام، أما الفرق بين التوجيه وبين كل من التورية والاستخدام فهو من الوجوه التالية:

١- التورية والاستخدام يكونان في الألفاظ المفردة، أما التوجيه فيكون في التركيب كله.

٢- التورية والاستخدام لكل منهما معنيان أو أكثر من أصل الوضع اللغوي أو بالتواطؤ أو بالحقيقة والمجاز في الاستخدام، بينما التوجيه يدل على معنييه بمعونة السياق وقرائن الأحوال.

٣- التورية يقصد فيها المعنى البعيد المورى عنه، ويلغى الآخر القريب المورى به، والاستخدام يراد فيها المعنيان معًا، أما التوجيه فالمعنيان سواء في الإرادة وعدم الإرادة والمتكلم هو الذي يوجه إلى أحد معنييه، ولذا سمي توجيهًا.

☆☆☆

المشاكلة

المشاكلة في اللغة: المشابهة والموافقة، يقال: شاكله أي: شابهه، وفي اصطلاح البلاغيين: ذكر المعنى بلفظ غيره أو بلفظ مضاد للفظ الغير أو مناسب له لوقوعه في صحبته تحقيقًا أو تقديرًا...

فمن ذكر المعنى بلفظ غيره قوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠]. فالسيئة الثانية المراد بها: المجازاة والعقاب، وقد ذكر هذا المعنى: "المجازاة أو العقاب" بلفظ السيئة لوقوعه في صحبة "السيئة" الأولى، وفي هذا الأسلوب ما يدعو إلى التنفير من السيئات؛ لأن الجزاء عليها سيكون شديدًا ورادعًا، سيكون سيئات مثلها لا جزاء وعقابًا...

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فقد سمي جزاء الله وعقابه لهم "مكرا" ليشاكل به مكر الكفار زيادة في ترويعهم ومبالغة في تعنيفهم وإيحاء بأن جزاءهم سيكون شديدًا أليمـًا...

وقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴾ [سبأ: ١٥، ١٦]، فقد سمي البدل السيء ﴿ جَنَّتَيۡنِ ﴾ لوقوعه في صحبة جنتيهم، وفيه ما فيه من التهكم والسخرية...

وقوله عز وجل: ﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٩٤]، والمراد والله أعلم: (فمن اعتدى عليكم فجازوه على عدوانه): فذكر الجزاء بلفظ الاعتداء لوقوعه في صحبة اعتدائهم، وفي هذا تنفير من الاعتداء في الشهر الحرام وتحذير من التعدي على حرمات الله، وحث للمؤمنين كي يتصدوا بقوة ردع وشدة زجر لمن اعتدى، فجزاؤه وعقابه لن يكون جزاء وعقابًا على عدوانه بل سيكون ردعًا واعتداء... وانظر إلى هذه الفاء في قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡتَدُواْ ﴾ وما تنبئ به من وجوب المبادرة وسرعة الردع...

وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٤]، فالمراد –والله أعلم– يجازيهم على استهزائهم، فذكر الجزاء بلفظ الاستهزاء ليشاكل استهزاء المنافقين، وفيه شدة تحذير وقوة ردع وزجر لهؤلاء المنافقين كي يكفوا عن نفاقهم وينتهوا عن استهزائهم...

ومن أقوالهم... قول عمرو بن كلثوم:

ألاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ علينَا فَنَجْهَلَ فوقَ جهْلِ الجاهِلِينَا

فقد ذكر جزاء الجهل ومعاقبة فاعليه بلفظ "نجهل" مشاكلة لجهلهم وفيه قوة ردع وشدة تحذير لمن تسول له نفسه الاعتداء عليهم...

وقول أبي الرقمين أحمد بن محمد الأنطاكي "ت ٢٩٩هـ" وكان له إخوان أربعة ينادمهم أيام كافور الإخشيدي، فجاءه رسولهم في يوم قارس البرد وليست له كسوة تقيه شره فقال له: إخوانك يقرءونك السلام ويقولون لك قد اصطبحنا اليوم وذبحنا شاة سمينة فاشته علينا ما نطبخ لك منها فكتب إليهم:

إِخْوانُنَا قصدُوا الصَّبُوحَ بِسُحْرَةٍ فأَتَى رسولُهُم إليَّ خُصُوصَا

قَالُوا اقْتَرِحْ شيئًا نُجِدْ لكَ طبخَهُ قلتُ: اطْبُخُوا لي جُبَّةً وقَمِيصَا

فقد ذكر الشاعر "الخياطة" بلفظ الطبخ فقال: "اطبخوا لي" مكان "خيطوا لي" ليشاكل بها لفظ "الطبخ" السابق.

ومثله قول الآخر:

قالُوا: اتخِذْ دُهْنًا لقلبِكَ يَشفِهِ قُلْتُ: ادهُنُوهُ بِخَدِّهَا الْمُتَوَرِّدِ

فقد ذكر "التمتع" بلفظ "الدهن" فوضع "ادهنوه" في موضع "متعوه" لوقوعه في صحبة "دهنا" السابق.

وقد يكون اللفظ المصاحب مؤخرًا والمعنى المذكور بلفظه مقدمًا عليه، كما في

قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا»[١]، فالله عز وجل لا يوصف بالملل ولكن نسب الملل إليه مشاكلة لملل عباده والمعنى: إن الله لا يقطع ثوابه حتى تملوا مسألته وعبادته، وواضح أن اللفظ المشاكل في الحديث وهو ملل الله قد وقع مقدمًا، واللفظ المصاحب وهو ملل العباد قد وقع مؤخرًا...

ومن ذلك قول العرب "الجزاءُ بالجزاءِ" فالمراد بالجزاء الأول "العدوان" وقد ذكر بلفظ الجزاء لوقوعه في صحبة الجزاء الثاني.

ومنه قول أبي تمام:

مَنْ مُبْلِغٌ أَفْنَاءَ يَعْرُبَ كلَّهَا ... أنِّي بَنَيْتُ الجَارَ قَبْلَ الْمَنزِلِ

فالجار لا يبنى ولكنه يختار وينتقى وقد ذكر الاختيار والانتقاء بلفظ البناء لوقوعه في صحبة بناء المنزل، ويلاحظ أن البناء قد حذف من الثاني لدلالة الأول عليه والتقدير: أني بنيت الجار قبل بناء المنزل...

ومثله قول بعض العراقيين في قاض شهد عنده برؤية هلال الفطر فلم يقبل شهادته:

أَتُرَى القاضِيَ أعمَى ... أمْ تُرَاهُ يتعَامَى

سرقَ العيدَ كأنَّ الْـ ... ـعِيدَ أَمْوَالُ الْيَتَامَى

فالعيد لا يسرق ولكنه جعله مسروقًا لوقوعه في صحبة أموال اليتامى التي يتأتى سرقتها...

ومن ذكر المعنى بلفظ مضاد للفظ غيره، قول شريح القاضي لرجل شهد عنده: "إنك لسبط الشهادة" فقال الرجل: "إنها لم تجعد عندي". فالمراد بالسبط هنا: الاستمرار في حفظها وقبولها دائمًا وأداؤها في ساحة القضاء، والمراد بقوله: "لم تجعد عندي": لم تقصر عن إدراكي وحفظي، فمتى أدركتني الشهادة حفظتها وتحملتها وأديتها فلا أكتمها... والسبوط في الأصل: إطلاق الشعر وامتداده

---

(١) رواه البخاري برقم (١١٠٠) ورقم (١٨٦٩) ومسلم (١/ ٥٤٠ رقم ٧٨٢).

والجعودة. قصر الشعر وعدم امتداده، فقد ذكر قصر الشهادة بلفظ الجعودة لوقوعها في صحبة "السبوطة" المضادة للجعودة...

ومن ذكر المعنى بلفظ مناسب للفظ غيره، ما ورد أن رجلاً قال لوهب: "أليس قد ورد أن لا إله إلا الله مفتاح الجنة" فقال: "بلى ولكنه ما من مفتاح إلا له أسنان فإذا جئت بالأسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك" فقد ذكر الأعمال بلفظ "الأسنان" لوقوعها في صحبته "المفتاح" المناسب للأسنان.

هذا ولفظ المعنى المشاكل به قد يكون محققًا ومذكورًا في الكلام وعندئذ تكون المشاكلة تحقيقية، ويتضح لك هذا في معظم ما مر بك من شواهد وقد يكون مقدرًا فتسمى المشاكلة تقديرية، كما رأيت في بيت أبي تمام:

مَنْ مُبْلِغٌ أَفْنَاءَ يَعْرُبَ كُلَّهَا أنِّي بنيتُ الجارَ قبلَ المنزلِ

وفي قول الآخر:

سرقَ العيدَ كأنَّ الْعِيدَ أَمْوَالُ الْيَتَامَى

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٦ - ١٣٨]، فقوله ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ ﴾ مصدر مؤكد لمضمون قوله: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ والمعنى طهرنا الله بالإيمان تطهيرًا؛ إذ الإيمان مطهر لنفوس المؤمنين... والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه ماء المعمودية ويزعمون أن الولد يصير بذلك نصرانيًا حقًا، فأمر الله المؤمنين أن يقولوا: صبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتكم... فقد ذكر "التطهير" بلفظ الصبغة لوقوعه في صحبة صيغة النصارى تقديرًا لا تحقيقًا، لأن الصبغ ليس مذكورًا في كلام النصارى بل فهم من السياق والأحوال إذ الآية منزلة في سبب ذلك الفعل وهو غمس أولادهم في ماء "المعمودية".

ومن ذلك أن ترى رجلاً يغرس أشجارًا فتقول لآخر: "اغرس إلى الكرام"، تريد بذلك: أحسن إليهم واصطنع لهم، فذكر الاصطناع والإحسان بلفظ "الغرس" لوقوعه في صحبته تقديرًا إذ لم يتقدم للغرس ذكر ولكن فهم من الحال والمشاهدة...

بلاغة المشاكلة

إذا نظرنا في شواهد المشاكلة المذكورة نجد أن هذا الفن يفيد حسنًا ومزايا نفتقدها إذا ما ذكر اللفظ الحقيقي للمعنى المعبر عنه... ولننظر في قول عمرو السابق:

ألاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ علينَا فَنَجْهَلَ فوقَ جهْلِ الجاهِلِينَا

نجد أن في التعبير بلفظ "الجهل" مكان العقوبة والمجازاة إفادة لشدة التحذير وقوة الردع والزجر، ولو قال عمرو: فنرد عليه أو فنجازيه على جهله أو فنعاقبه ونمنع جهله لما أفاد تلك الإفادة التي أفادتها المشاكلة...

وإذا تأملنا الآيات الكريمة: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾.. ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾... ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾ وجدنا أن المشاكلة قد أفادت كمال المبالغة في التحذير والتنفير من ارتكاب السيئات والاستهزاء بالله والمكر به والاعتداء على حرماته، فجزاء تلك الأفعال لن يكون "جزاء وعقابًا" بل سيكون "مكرًا" و"اعتداء" و"استهزاء من الله" و"سيئة"، ونلحظ في الآية الأخيرة قوة حث للمؤمنين كي يتصدوا لمن يعتدي على الشهر الحرام وعلى حرمات الله حتى لا تنتهك حرمات الله وحتى لا يكون هنالك مجال للتفكير في الاعتداء عليها وانتهاكها... وهكذا نجد أن هذا الفن يحقق مزايا ومحاسن نفتقدها عندما نعبر بالألفاظ الحقيقية لتلك المعاني المرادة.

المجاز والمشاكلة

وعندما نتأمل أمثلة المشاكلة نجد أن معظم هذه الأمثلة من قبيل المجاز المرسل أو الاستعارة، ففي قوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ ﴿ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ﴾ ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ ﴾ نجد في هذه الآيات مجازًا مرسلاً علاقته السببية حيث أطلق السبب وأراد المسبب... وفي قول القائل: (اطبخوا لي جبة وقميصًا)... وقول الآخر (ادهنوه بخدها المتورد) نجد مجازًا بالاستعارة حيث شبهت الخياطة بالطبخ، والتمتع بالدهن ووجه الشبه هو أن الخياطة والتمتع مما ينبغي أن يكون موضع رغبتهم ومحل عنايتهم كما أن الطبخ والدهن كذلك.

وعلى الرغم من أن معظم شواهد المشاكلة من قبيل المجاز فإن للمشاكلة دورها في حسن التعبير وبلاغته كما مر بنا، فإذا كان في قوله: (اطبخوا لي) استعارة... وفي قوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ مجاز مرسل، فإن وقوع (اطبخوا) في صحبة (الطبخ) الأول، وفي وقوع سيئة الثانية في صحبة السيئة الأولى بلاغة وحسنًا لا يكونان ولا يتحققان لو كان المجاز بدون هذه الصحبة... وبهذا نستطيع أن نقول إن المشاكلة قد ساهمت مع المجاز في جمال الأسلوب وفي حسنه وسمو بلاغته.

☆☆☆

المبالغة

أطلق علماء البلاغة على هذا الفن تسميات متعددة منها: الإفراط في الصفة... الغلو... الإغراق... التبليغ... الإفراط في الإغراق... الإيغال... كما أنهم عدوا المبالغة غرضًا لفنون كثيرة كالتشبيه والاستعارة والمجاز المرسل والإيجاز والإطناب والقصر والكناية وغيرها...

فهذه الفنون تفيد المبالغة، وهي متفاوتة في تلك الإفادة زيادة ونقصانًا أو شدة وضعفًا... ونجد عند الصرفيين والنحويين صيغ المبالغة: فعال... ومفعال... وفعول... وفعيل... وفعل، وأساليب التوكيد اللفظي والمعنوي... وتلك أيضًا تفيد المبالغة، والبلاغيون عندما درسوا المبالغة فنًا من فنون البديع، أرادوا بذلك دراسة مدى تفاوتها في الشدة والضعف، ومتى تقبل في الكلام ومتى ترد، ولذا لن نهتم بدراسة هذه الأساليب التي تفيد المبالغة، فتلك الأساليب تدرس في مواضعها من علمي المعاني والبيان وفي علم النحو والصرف أما علم البديع فيهتم بمدى التفاوت في المبالغة، وإلى أي حد تصل المبالغة شدة أو ضعفًا، ثم تقبل... ومتى ترد المبالغة؟ وهل اتفق العلماء على قبولها؟ هذا ما سنتناوله بالدراسة إن شاء الله.

تعريف المبالغة

عرفت المبالغة في علم البديع بأنها: ادعاء بلوغ وصف في الشدة أو في الضعف حدًا مستحيلاً أو مستبعدًا[1]... كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ١، ٢]...فالآية الكريمة قد بالغت في وصف أهوال يوم القيامة... ووصلت بهذه الأهوال إلى حد بعيد، فالمرضعة تذهل عما أرضعت والناس سكارى من

---

(١) الأولى أن يقال في تعريف المبالغة: بلوغ الوصف في الشدة أو في الضعف حدًا بعيدًا أو محالاً، هذا التعريف لها أدق من أن يقال: "ادعاء بلوغ كذا".

الأهوال وما هم بسكارى... فينبغي على كل عاقل أن يفكر في عاقبة الأمر، وأن يستعد للنجاة من هذا الهول وذاك الفزع الأكبر...

آراء العلماء في المبالغة

اختلفت آراء العلماء في المبالغة قبولاً وردًا، فبعضهم رأى قبول المبالغة مطلقًا... وبعضهم رأى ردها مطلقًا... وبعضهم رأى قبول أنواع منها ورد أنواع...

الرأي الأول: فأما الذين رأوا قبولها مطلقًا فقد استندوا إلى ما يلي:

١-أن أجود الشعر أكذبه وخير الكلام ما بولغ فيه ولذا قال البحتري مخاطبًا الذين رأوا إجراء الشعر على مقاييس المنطق وقواعده.

كَلَّفْتُمُونَا حُدُودَ مَنْطِقِكُمْ والشِّعْرُ يكْفِي عن صدقِهِ كَذِبُهُ

فالشعر يقوم على التخيل والتصوير، والإغراق في المدح والهجاء، والوصف وسائر الأغراض، وهذا هو الكذب الذي يرمي إليه البحتري ويريده، ولا يقصد الكذب الذي يزيف ويزين، ويقلب الباطل حقًا والحق باطلاً.

٢-ما جرى بين النابغة الذبياني وحسان بن ثابت في سوق عكاظ عندما احتكم حسان إلى قوله:

لنَا الجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ من نَجْدةٍ دمًا

فقد استدرك النابغة عليه ترك المبالغة وعد ذلك عيبًا حيث رأى أنه قلل الجفان، ولو قال الجفان بدل الجفنات لكان أكثر... وقال: يلمعن بالضحى، ولو قال: يبرقن بالدجى لكان أبلغ في المدح، لأن الضيف أكثر طروقًا بالليل... وقال: يقطرن، ولو قال: يجرين لكان أكثر...

الرأي الثاني: أما الذي رأوا رد المبالغة مطلقًا فقد استندوا إلى ما يلي:

١-أن المبالغة من عيوب الكلام، والكلام الجيد ما خرج مخرج الصدق، وجاء على منهج الحق، والمتكلم لا يلجأ إلى المبالغة إلا إذا عجز عن التعبير الجيد وابتكار المعاني، فهو يلجأ إلى المبالغة لسد خلله وتتميم نقصه...

٢-قول حسان رضي الله عنه:

وإنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أنتَ قائِلُهُ بَيْتٌ يُقَالُ إذا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

فيجب ترك المبالغة إلى الصدق والتحقيق...

٣-قول عمر رضي الله عنه معللاً كون زهير أشعر الناس؛ "إنه لا يتبع حوشي الكلام ولا يعاظل في المنطق ولا يقول ما لا يعرف ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه".

الرأي الثالث: توسط بين الرأيين السابقين فقبل من المبالغة ما جاء معتدلا ولم يتجاوز حدود العرف والعادة ولم يخرج على تعاليم الدين الحنيف، ورد ما عداه... وهذا الرأي أولى بالقبول وأحق بالترجيح ولعل الذين رفضوا المبالغة مطلقًا قد خفي عليهم أن المراد بالكذب في الشعر: التخييل والتصوير، لا ما هو نقيض الحق والصدق... وأن المراد بالصدق: ما لم يتجاوز حد الاعتدال في المنطق والقول.

أقسام المبالغة

والذين توسطوا بين الرأيين رأوا أن المبالغة ثلاثة أقسام: التبليغ والإغراق والغلو... أما التبليغ والإغراق فهما مقبولان... وأما الغلو فيقبل منه ويرد...

١-**التبليغ**: فالتبليغ ما كان الوصف المبالغ فيه ممكنًا عقلاً وعادة...كما في قول امرئ القيس يصف فرسه بأنه لا يعرق وإن كثر عدوه:

فَعَادَى عِدَاءً بينَ ثَوْرٍ ونَعْجَةٍ دِرَاكًا فلمْ يَنْضَحْ بماءٍ فَيُغْسَلِ (١)

فقد ادعى أن فرسه أدرك ثورًا وبقرة وحشيين في مضمار واحد ولم يعرق وهذا الادعاء ممكن عقلا وعادة...

ومثله قول المتنبي:

وَأَصْرَعُ أَيَّ الوحشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ وأنزِلُ عنهُ مِثْلُهُ حينَ أركبُ

فقد ادعى أنه يلاحق بفرسه الوحوش فيصرعها وعندما ينزل عنه بعد انتهاء

---

(١) عداء: العداء هو الموالاة بين الصيدين يصرع أحدهما إثر الآخر في شوط واحد، والثور: ذكر البقر الوحشي والنعجة: أنثاه، ودراكًا: متتابعًا.

الصيد تكون حالته شبيهة بحالته عندما ركبه في بداية الصيد فلم يلحقه تعب ولا يصبه إرهاق وهذا الادعاء ممكن عقلاً وعادة...

وقول ابن الرومي في الهجاء:

وَلَوْ أنَّ قَصْرَكَ يا ابنَ يُوسُفَ مُمْتَلٍ إبَرًا يَضِيقُ بِهَا فِنَاءُ المَنْزِلِ

وأتاكَ يُوسُفُ يستعيرُكَ إبرةً لِيَخِيطَ قَدَّ قَمِيصِهِ لمْ تَفْعَلِ

فكون المهجو على هذه الدرجة من البخل على الرغم من حقارة المطلوب وصغره وكثرة وجوده عنده وعظم الطالب وعلو منزلته، ممكن عقلاً وعادة.

وقول زهير في مدح هرم بن سنان:

يَطْعَنُهُمْ ما ارْتمَوْا حتى إذا اطَّعَنُوا ضاربَ حتى إذا ما ضاربُوا اعْتَنَقَا

فكون الممدوح على هذا القدر من الشجاعة والقوة لا يمتنع عقلاً ولا عادة.

٢-**الإغراق**: وهو ما كان الوصف المبالغ فيه ممكنًا عقلاً ممتنعًا عادة...

كما في قول عمير بن الأيهم التغلبي:

ونكرمُ جارَنَا مادامَ فِينَا ونُتْبِعُهُ الكرامةَ حيثُ مالاَ

فمتابعة الجار بالإكرام حيث مال وصف ممكن عقلاً يمتنع عادة...

وكما في قول امرئ القيس:

تَنَوَّرتُهَا من أَذْرِعَاتٍ وأَهْلُهَا بِيَثْرِبَ أدنَى دارَهَا نظرٌ عَالِ

فرؤية النار في المدينة من أذرعات بالشام ممتنعة عادة وعرفًا ولكنها جائزة عقلا وبخاصة إذا زالت الحواجز والمواقع التي تمنع الرؤية، فالدار قد قربها إليه نظر عال لا تمنعه جبال شاهقة ولا حواجز مرتفعة...

وقوله أيضا يصف أنفاس صاحبته عند النهوض من النوم:

كأنَّ الْمُدَامَ وصوْبَ الغَمَامِ ورِيحَ الْخُزَامَى ونَشْرَ الْقُطُرْ

يعلُّ بهِ بَرْدُ أنيابِهَا إذا غَرَّدَ الطائرُ المستحِرْ

فكون صاحبته على تلك الحال وقت السحر ممكن عقلاً وإن امتنع عادة.

٣-**الغلو**: وهو ما كان الوصف المبالغ فيه ممتنعًا عقلاً وعادة والمقبول منه ثلاثة أنواع:

أولها: أن يقترن به ما يقربه من الصحبة والإمكان كلفظ "كاد" و"لو" و"لولا" و"يخيل" ونحو ذلك... كما في قوله عز وجل: ﴿ **ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ** ﴾ [النور: ٣٥]، فإضاءة الزيت دون أن تمسه نار تمتنع عقلا وعادة، ولكن دخول لفظ "يكاد" قربه من الصحة وجعله ممكنًا حيث أفاد أن الإضاءة لم تقع ولكن قربت من الوقوع، ومثله قوله تعالى: ﴿ **وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ** ﴾ [النور: ٤٣]، وقوله عز وجل: ﴿ **أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا** ﴾ [النور: ٤٠].

ومنه قول البحتري:

ولو أنَّ مُشْتَاقًا تكلَّفَ فوقَ مَا ... في وُسْعِهِ لسعَى إليكَ الْمِنْبَرُ

فسعي المنبر إليه يمنعه العقل ولا يقره العرف والعادة ولكنه قرب من الإمكان بذكر "لو" التي هي حرف امتناع لامتناع...

ومثله قول امرئ القيس في وصف فتاته:

من القاصراتِ الطَّرْفِ لو دبَّ محْوَلٌ ... من النملِ فوقَ الإتْبِ منهَا لأثَّرَا(١)

وقول زهير مادحًا:

لو كانَ يقْعُدُ فوقَ الشمسِ من كرمٍ ... قومٌ بِأَوَّلهِمْ أو مجْدِهِمْ قعدُوا

ومن ذلك قول المتنبي:

كفَى بجسمي نُحُولاً أنَّنِي رَجُلٌ ... لولا مُخَاطَبَتِي إيَّاكَ لمْ تَرَنِي

(١) المحول: ما أتى عليه الحول، والإتب: درع المرأة وما قصر من الثياب ويطلق أيضًا على قميصها.

فبلوغ الإنسان في نحول الجسم مبلغًا تمتنع معه رؤيته مما لا يجوز عرفًا ولا عقلاً... ولكن ذكر "لولا" قرب هذا المعنى من الصحة؛ إذ هي حرف امتناع لوجود، فقد امتنع عدم الرؤية لوجود المخاطبة، وهذا ما قرب الادعاء من الصحة وجعله ممكنًا...

ومثله قول المهلهل:

فلولاَ الريحُ أُسْمِعُ مَنْ بِحَجْرٍ صَلِيلَ الْبيضِ تُقْرَعُ بالذُّكُورِ.[1]

وقد قالوا: إن هذا البيت أكذب بيت قالته العرب على الرغم من وجود ما يقربه من الصحة والإمكان وهو ذكر "لولا" التي تفيد امتناع الإسماع لوجود الرياح...

ووازنوا بين هذا البيت وبيت امرئ القيس السابق:

تَنَوَّرْتُهَا مِنْ أَذْرِعَاتٍ وَأَهْلُهَا بِيَثْرِبَ أدنَى دَارَهَا نظرٌ عالِ

فقال بعضهم: إن بيت امرئ القيس أقرب إلى الصحة والإمكان للأمور الآتية:

١- لأن فيه ما يخلص به من الطعن، وهو اعترافه ببعد مسافة النار، وأنه لم يدنها إلا النظر العالي:

٢- أن حاسة البصر أقوى من حاسة السمع، ورؤية الأشياء المضيئة من بعد يتجاوز الحد غير ممتنعة وخاصة إذا ارتفعت الحواجز وزالت الموانع وقد كانت زرقاء اليمامة ترى الجيوش من مسيرة ثلاثة أيام.

٣- أن الذي رآه امرؤ القيس نيران عظيمة مرتفعة مواقدها وهو قد نظر إليها من مكان عال وهذا ما يجعل ادعاءه الرؤية ممكنًا وجائزًا.

وبعضهم يرى أن بيت المهلهل أقرب للصحة من بيت امرئ القيس لما يلي:

---

(١) حجر بفتح الحاء وسكون الجيم: مدينة اليمامة وأم قراها. والبيض واحدته بيضة وهي الخوذة والذكور: السيوف، والصليل: الصوت.

١- وجود "لولا" في بيت المهلهل دون بيت امرئ القيس.

٢- تصريح امرئ القيس بأن النار قد شبت في وجه النهار حيث قال قبل البيت المذكور.

نظـــرتُ إليهَـــا والنُّجُـــومُ كأنهَّـــا مـــصابيحُ رُهْبَـــانٍ تُـــشَبُّ لِقُفَّـــالِ

والمعنى: نظرت إلى هذه النيران والنجوم قد قاربت الاختفاء لظهور ضوء النهار وكأنها مصابيح رهبان أوقدت أول الليل حتى إذا جاء آخره ضعف نورها وقل شعاعها...

ولكنني أرى أن ما في البيت تصريح بأن النظر كان ليلاً وأن النيران قد أوقدت في غسق الليل لا في وجه النهار كما قيل، فالنجوم قد ضعف ضوؤها وقل وهذا أدعى للظلام، ظلام آخر الليل الذي يعقبه ضوء الصباح... وبهذا يظل بيت المهلهل أكذب بيت على الرغم من وجود "لولا" به كما أوضحنا...

هذا وقد يكون اللفظ الذي يقرب من الصحة مقدرًا كما في قول عنترة:

وأنـــا المنيـــةُ حـــيَن تَـــشْتَجِرُ القَنَـــا وَالطَّعْـــنُ منِّـــي سَـــابِقُ الآجَـــالِ

وقول امرئ القيس:

مِكَـــرٍّ مِفَـــرٍّ مُقْبِـــلٍ مُـــدْبِرٍ معًـــا كجُلْمُـودِ صَـخْرٍ حطَّـهُ الـسَّيْلُ مـن عَـلِ

فالمعنى في البيتين على تقدير "يكاد" أي: والطعن مني يكاد يسبق الآجال... يكاد يكون مفرًا مكرًا مقبلاً مدبرًا معًا.

ثانيها: أن يتضمن نوعًا حسنًا من التخييل فيقربه ذلك من الصحة والإمكان.

كما في قول المتنبي:

عَقَـــدَتْ سَـــنَابِكُهَا عَلَيْهَـــا عِثْـــيَرًا لـــو تَبْتَغِـــي عَنَقًـــا عليـــهِ لأَمْكَنَـــا[١]

معنى البيت: أن حوافر الخيل أثارت غبارًا كثيفًا انعقد فوقها وتراكم بحيث لو أردت السير عليه لأمكن السير لكثافته وغزارته... وهذا يمتنع عقلاً وعادة،

---

(١) السنابك: الحوافر، والعثير: الغبار المثار. وعنقًا: سيرًا.

ولكن ما تضمنه من تخييل حسن، أوهم السامع أن الغبار لكثافته صار كالأرض أو الجبال، فيمكن السير عليه... هذا التخييل وكذلك وجود "لو"، قربا الوصف المدعى من الصحة والإمكان.

ومثله قول الآخر في وصف الليل بالطول:

يُخَيَّلُ لِي أنْ سُمِّرَ الشُّهْبُ في الدُّجَى   وشُــدَّتْ بأهــدابِي إِلَــيْهِنَّ أَجْفَــانِي

فلفظ "يخيل" وما تضمنه البيت من تخيل الشهب مسمرة في الدجى بمسامير وشد أجفان الشاعر بأهدابه إليهن، قربا المعنى من الصحة وجعلاه ممكنًا...

ثالثها: أن يخرج مخرج الخلاعة والهزل... كما في قوله:

أَسْكَرُ بـالأمسِ إنْ عَزَمْـتُ عَـلَى الشُّرْ   ب غَــــدًا إِنَّ ذَا مِــــنَ الْعَجَــــبِ

فالسكر المدعى يمتنع عقلاً وعادة ولكن خروج هذا الكلام مخرج الهزل قربه من الإمكان...

فإن خلا الغلو من هذه الأمور الثلاثة كان مردودًا ولا يقبل... وذلك على نحو ما نرى في قول أبي نواس:

وأخفْــتَ أهــلَ الــشِّرْكِ حتَّــى إنَّــهُ   لَتَخَافُــكَ النُّطَــفُ التَّــي لمْ تخْلَــقِ

وقوله أيضًا:

حتىَّ الـذي في الـرَّحْمِ لمْ يـكُ صُـورَةً   لفــــؤادِهِ مــــن خَوْفِــــهِ خَفَقَــــانُ

ولو قدرنا "يكاد" في البيتين لكان من الغلو المقبول كما لا يخفى...

ومن ذلك أيضًا قول ابن هانئ الأندلسي:

مــا شِــئتَ لا مَــا شــاءتَ الأَقْــدَارُ   فـــاحكُمْ فَأَنْـــتَ الْوَاحِـــدُ الْقَهَّـــارُ

وقول المتنبي:

يَرْتَــشِفْنَ مــنْ فَمِــي رَشَــفَاتٍ   هُــنَّ فيــهِ أَحْــلَى مــن التَّوحِيــدِ

ولا يخفى ما في البيتين من خروج على تعاليم الدين، وهذا ما جعله غلوًا مردودًا.

ومنه قول المتنبي أيضًا:

تجـاوَزْتَ مقـدارَ الـشَّجَاعَةِ والنُّهَـى إلى قـولِ قـومٍ أنـتَ بالغيـبِ عـالمُ

وإذا تأملنا شواهد المبالغة التي ذكرها البلاغيون وجدنا أن الغلو غير المقبول قد كثر في العصر العباسي وما تلاه أما قبل ذلك فلا نكاد نجد سوى المبالغة المقبولة من تبليغ أو إغراق أو غلو قد قرب من الصحة والإمكان بأمر من الأمور التي ذكرناها.

☆☆☆

التجريد

وهو أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله في تلك الصفة مبالغة في كمالها في الأمر الأول المنتزع منه كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [فصلت: ٢٨].

فجهنم هي "دار الخلد" ولكن قد جردت منها دار أخرى وسميت "دار الخلد" لإفادة المبالغة في اتصاف جهنم بشدة العذاب وتهويل أمْرها... فلقد بلغت جهنم في شدة العذاب وهوله مبلغًا صح معه أن ينتزع منها موصوف آخر متصف بتلك الصفة، فهي فيها كأنها تفيض بمثيلاتها لقوتها وشدتها كما يفيض الماء في البحر... ومن ذلك قولنا "لي من فلان صديق حميم" فقد انتزع من فلان شخص آخر مثله في الصداقة، وذلك للدلالة على كمال الصفة في فلان هذا، المنتزع منه فقد بلغ في الصداقة مبلغًا يصح معه أن ينتزع منه شخص آخر مثله فيها...

صور التجريد

ويأتي التجريد على عدة صور أهمها:

١- أن يكون بدخول "في" على المنتزع منه كما في الآية الكريمة السابقة وكقولنا: "لك في دارك دار كرامة".

٢- أن يكون بدخول "الباء" على المنتزع منه نحو قولهم: "لئن سألت فلانًا لتسألن به البحر" فقد بلغ المنتزع منه في الجود مبلغًا يصح معه أن ينتزع منه بحر في الكرم والعطاء.

٣- أن يكون بدخول "من" على المنتزع منه كقولهم: "لي من فلان صديق حميم".

٤- أن يكون بدخول "باء المعية" على المنتزع كقول الشاعر:

وشوهاءَ تعدُو بِي إلى صارخِ الْوَغَى ... بُمستَلْئِمٍ مِثْلِ الْفَنِيقِ المُرَحَّلِ (١)

يريد: تعدو بي ومعي من نفسي مستلئم أي لابس اللأمة، وذلك لكمال استعداده للحرب، فقد جرد من نفسه مستلئمًا مستعدًا للحروب...

٥- أن يكون التجريد مستفادًا من السياق والقرائن من غير توسط حرف من الحروف كقول الشاعر:

فلئنْ بقيتُ لأَرْحَلَنَّ بِغَزْوَةٍ ... تحوِي الغنائمَ أو يَمُوتَ كريمُ

فهو يعني "بالكريم" نفسه على سبيل التجريد إذا انتزع من نفسه "كريمًا" للمبالغة في اتصافه بالكرم...

٦- أن يكون بطريق الكناية، كما في قول الأعشى:

يا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ الْمَطِيَّ ولا ... يَشْرَبُ كَأْسًا بكفٍّ مَنْ بَخِلاَ

فقوله: "ولا يشرب كأسًا بكف من بخل" كناية عن شربه بكف الكريم، وبهذا يكون قد جرد من نفسه كريمًا يشرب بكفه هو، وتم ذلك عن طريق الكناية إذ كني بعدم الشرب بكف من بخل عن الشرب بكف الكريم الذي جرده من نفسه...

ومثله قول الآخر:

إنْ تَلْقَنِي لا تَرى غيرِي بِنَاظِرَة ... تَنْسَ السِّلاحَ وتَعْرِفْ جَبْهَةَ الأَسَدِ

فقد كنى "بجبهة الأسد" عن الأسد نفسه وبذا يكون قد جرد من نفسه أسدًا للدلالة على كمال اتصافه بالشجاعة والقوة إلى درجة أن من يلقاه محاربًا لا يرى غيره بعينه الناظرة، ينسى سلاحه، لأنه يلقى أسدًا فاتكًا.

٧- أن يكون بمخاطبة الإنسان نفسه... كقول الأعشى:

ودِّعْ هريرةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ ... وهلْ تُطِيقَ ودَاعًا أيُّهَا الرَّجُلُ

---

(١) الشوهاء: الفرس القبيحة المنظر لسعة أشداقها أو لتغيرها بالحروب، وصارخ الوغى: المستغيث، والمستلئم: لابس اللأمة وهي الدرع. والفنيق: الفحل المكرم من الإبل، والمرحل: المرسل الذي لا يربط.

فقد جرد من نفسه شخصًا آخر وأخذ يخاطبه: "ودع"، "وهل تطيق"، أيها الرجل"... وقول المتنبي:

لا خَيْـلَ عنـدكَ تُهْـدِيهَا ولا مـالُ   فلْيُسْعِدِ النُّطْـقُ إنْ لمْ يُسْعِدِ الحَـالُ

فقد جرد من نفسه آخر وخاطبه قائلاً: أنت فقير لا تملك مالاً ولا عندك خيل فليكن ما تقدمه هو المدح والثناء الذي تقدر عليه وتنطق به...

وفي هذه الصورة نرى أن الغرض من التجريد هو تمكين المتكلم من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره على نفسه إذ يكون مخاطِبًا بها غيره فيكون ذلك أعذر له.

هل يفيد أسلوب التجريد التشبيه أو الالتفات؟

إذا تأملنا أسلوب التجريد في صوره المذكور وجدنا أن بعضها يفيد التشبيه الضمني وبعضها يفيد الالتفات وبعضها لا يفيد تشبيهًا ولا التفاتًا.

ففي الصورة الثانية وهي دخول حرف (الباء) على المنتزع منه نحو "لئن سألت فلانا لتسألن البحر" "ولئن لقيته لتلقين به الأسد" تجد أن هذه الصورة قد أفادت التشبيه ضمنًا... وكذا في الصورة السادسة وهي إفادة التجريد عن طريق الكناية نجد بعض صور الكناية قد يفيد التشبيه ضمنًا كما في البيت.

إنْ تَلْقَنِـي لا تـرَى غـيرِي بنـاظرةٍ   تَـنْسَ السِّلاحَ وتَعْـرِفْ جَبْهَـةَ الأَسَـدِ

وفي الصورة الخامسة وهي إفادة التجريد بالقرائن وبدون توسط الحروف نجد التفاتًا من المتكلم إلى الغيبة وكذلك في الصورة الرابعة "دخول الباء على المنتزع" كما في البيت:

وشَـوْهاءَ تعـدُو بي إلى صـارخِ الْـوَغَى   بِمُسْتَلْئِمٍ مِثْـلِ الْفَنِيـقِ المُرَحَّـلِ

وكما في البيت الآخر:

فلـئنْ بَقِيـتُ لأَرْحَلَـنَّ بِغَـزْوَةٍ   تحـوِي الغنـائمَ أو يَمُـوتَ كَـرِيمُ

فقد التفت في البيتين من من التكلم في:" بي... بقيت" إلى الغيبة: "مستلئم... يموت كريم".

وكذا في الصورة السادسة وهي إفادة التجريد عن طريق الكناية نرى التفاتًا في قوله:

إنْ تلقَنِي لا تَرى غيري بناظرةٍ   تَنْسَ السِّلاحَ وتَعْرِفْ جَبْهَةَ الأَسَدِ

حيث التفت من التكلم في:" تلقني... غيري" إلى الغيبة: "تعرف جبهة الأسد".

وبهذا يتضح أن بعض صور التجريد قد تفيد الالتفات أو التشبيه الضمني وبعضها لا يفيد سوى التجريد.

بلاغة التجريد

وتكمن بلاغة أسلوب التجريد فيما يلي:

١- المبالغة في وجود الصفة في المنتزع منه، فقد بلغ في الاتصاف بها مبلغًا عظيمًا إلى درجة أن صار يفيض بها على غيره، كما رأيت في الشواهد.

٢- إثارة الخيال وتنشيط الأذهان وتنبيه العقول بما في أساليبه من تصوير وتخييل ومن تنويع وتلوين في الصياغة، ولا يخفى عليك أن مثل هذا الكلام يقع في النفس موقعه، لأن من شأن العقول التي أوقظت ونبهت أن تصغي بعناية، وعندئذ يقع بها الكلام بما فيه من تصوير وتخييل موقعًا حميدًا.

***

اللف والنشر

هو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ثم ذكر ما لكل من آحاده من غير تعيين ثقة بأن السامع يرد إلى كل ما يليق به...

كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [القصص: ٧٣]، فقد ذكر متعدد وهو ﴿ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ على جهة التفصيل حيث عطف النهار على الليل بواو العطف، وهذا يسمى "لفًا" ويسميه بعض البلاغيين "طيًا" ثم ذكر بعد هذا الطي أو اللف: "النشر" وهو ﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ وذكره كما ترى بدون تعيين ثقة بأن السامع يدرك ما لكل ويرده إليه،

فهو يدرك أن السكن لليل وأن ابتغاء الفضل يكون نهارًا... فإذا عين النشر وحدد كان من التقسيم الآتي بيانه لا من اللف والنشر.

وجه تسميته: ووجه تسمية هذا النوع من البديع باللف والنشر، أن المتعدد المذكور على جهة التفصيل أو الإجمال، قد انطوى فيه حكمه؛ لأنه اشتمل عليه من غير تصريح به، ولذا سمي "لفا" أو "طيا" فلما صرح بعد ذلك بالحكم المطوي، كان كأنه نشر وإبراز له ولذا سمي "نشرا".

أنواعه: ويتضح من التعريف أن اللف والنشر نوعان:

الأول: أن يكون المتعدد مذكورًا على جهة التفصيل وهذا النوع ضربان:

أولهما: أن يكون النشر على ترتيب اللف، كما في الآية السابقة وكما في قول امرئ القيس:

كَـأَنَّ قلـوبَ الطَّـيْرِ رَطْبًـا ويابـسًا   لَدَى وَكْرِهَا العُنَّابُ وَالحُشَفُ الْبَالِي

فقد ذكر متعددًا على جهة التفصيل: "رطبًا ويابسًا"، ثم ذكر ما لكل مرتبًا، فالعتاب يرجع للقلوب الرطبة والحشف البالي يرجع للقلوب اليابسة.

ومنه قول ابن الرومي:

آراؤكـم ووجـوهُكُم وسـيوفُكُم   في الحادثـاتِ إذا دَجَـوْنَ نجـومُ

فيهَـا مَعَـالِمُ للهـدَى ومـصابِحٌ   تجْلُـو الـدُّجَى والأُخْرَيَـاتُ رُجُـومُ(١)

فقد ذكر متعددًا: "آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم" على جهة التفصيل ثم ذكر ما لكل على الترتيب: فمعالم للهدى ترجع للآراء، ومصابح ترجع للوجوه، ورجوم ترجع للسيوف، ولا يقدح في هذا تعيين ما يرجع للسيوف بقوله: "والأخريات" لأن الأول والثاني بلا تعيين، كما لا يخفى.

ثانيها: أن يكون النشر على غير ترتيب اللف، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ

---

(١) دجون: أظلمن. والمعالم: جمع معلم، وهو ما يستدل به على الطريق والدجى، جمع دجية وهي الظلمة، والرجوم: الشهب.

قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٧، ١٤٨].

فقد جمعوا في دعائهم بين أمري الدنيا والآخرة وقدموا ما للآخرة: ﴿ ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا ﴾ وأخروا ما للدنيا ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ وهذا متعدد ثم جاء النشر على غير ترتيب اللف حيث قدم ثواب الدنيا على ثواب الآخرة، ولعل السر في ذلك يرجع إلى أن المقام مقام جهاد وقتال والنفوس في هذا المقام متطلعة للنصر... وقد خص ثواب الآخرة بالحسن دون ثواب الدنيا إيذانًا بأنه المعتد به عند الله عز وجل.

ومن هذا الضرب قول ابن حيوس:

كيفَ أسلُو وأنتِ حِقْفٌ وغُصْنٌ وغَزَالٌ لحظًا وقدًّا ورِدْفًا[(١)]

فاللف هو: "حقف وغصن وغزال" والنشر، "لحظا" ويرجع إلى غزال وقدا ويرجع إلى الغصن، "وردفا" ويرجع إلى الحقف وواضح أن النشر على غير ترتيب اللف.

وقول الفرزدق:

لقدْ خُنْتَ قومًا لو لجَأْتَ إِلَيْهِمُ طريدَ دمٍ أو حَامِلاً ثِقْلَ مَغْرَمِ

لأَلْفَيْتَ فِيهِمْ مُعْطِيًا أو مُطَاعِنًا وَرَاءَكَ شَزْرًا بالْوَشِيجِ الْمُقَوَّمِ[(٢)]

فاللف: "طريد دم أو حاملا.." والنشر "معطيا" ويرجع إلى "حاملا ثقل مغرم" و"مطاعنا" ويرجع إلى "طريد دم" وهو على غير ترتيب اللف.

الثاني: أن يكون المتعدد مذكورًا على جهة الإجمال.

---

(١) الحقف: مجتمع الرمل إذا عظم واستدار، والردف: العجيزة، وقد شبه الشاعر المرأة بالحقف والغصن والغزال.

(٢) الخطاب لهبيرة بن ضمضم، طريد دم: كناية عن القتل، والثقل: الحمل الثقيل.. وشزره: طعنه عن يمينه وشماله، والوشيج: شجر الرماح.

كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المائدة: ٣٣]. فقد ذكر متعدد على جهة الإجمال في قوله: ﴿ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ إذ المحاربة تشمل: القتل أو أخذ المال أو الإخافة أو الجمع بين القتل وأخذ الأموال، أو بين أخذ الأموال والإخافة، فأجمل كل ذلك في قوله: ﴿ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ثم جاء النشر: ﴿ أَن يُقَتَّلُوٓاْ ﴾ إذا كانت المحاربة قتالاً فقط، ﴿ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ ﴾ أي مع التقتيل إذا جمعوا في المحاربة بين القتل وأخذ المال: ﴿ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ إذا جمعوا بين أخذ الأموال والإخافة، ﴿ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ إذا كانت المحاربة إخافة فقط.

وكذا قوله عز وجل: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ [البقرة: ١١١]، فالضمير في ﴿ قَالُواْ ﴾ يرجع لأهل الكتاب من اليهود والنصارى والمعنى: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فلف القولين وجمعهما في الضمير ﴿ قَالُواْ ﴾ على جهة الإجمال ثم ذكر النشر ﴿ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ بدون تعيين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله لما علم من التعادي بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه... وهذا النوع من اللف والنشر لا يقتضي ترتيبًا أو عدم ترتيب، لأن اللف مجمل لا يعلم ترتيبه حتى ننظر في ترتيب النشر على ضوئه.

بلاغة اللف والنشر

وبلاغة اللف والنشر تكمن في أن ذكر اللف مطويًا فيه حكمة أو ما يتعلق به، يهيئ النفوس ويعدها لتلقي ما يذكر بعد من النشر العائد إلى اللف، فإذا ما ذكر النشر بعدئذ وقع في النفوس موقعه، وتمت الفائدة أحسن تمام وتحقق الغرض أبلغ تحقيق، لأن النشر جاء والنفوس إليه متطلعة وله مترقبة.

***

التقسيم

التقسيم فن من فنون البديع، وهو يرد في الكلام على عدة صور تختلف كل صورة منها عن الأخرى، وأهم هذه الصور ما يلي:

١-استيفاء المتكلم جميع أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه بحيث لا يترك منها قسمًا محتملاً... كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣٢]، فالآية قد استوفت جميع الأقسام التي يمكن أن يكون عليها العباد، فهم إما ظالم لنفسه أو مقتصد أو سابق بالخيرات، وليس هنالك قسم رابع...

ومن لطيف ذلك قوله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [الرعد: ١٢]، فليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والطمع في الأمطار، ولا ثالث لهذين القسمين... وقد قدم الخوف على الطمع لأن الصواعق تقع من أول برقة أما المطر؛ فلا يحصل إلا بعد توافر البرقات ولذا كانت العرب تعد سبعين برقة وتنتجع فلا تخطئ الغيث والكلأ، وإلى هذا أشار المتنبي بقوله:

وقـــدْ أَرِدُ الميـــاهَ بغـــيرِ هـــادٍ   سِـــوَى عَـــدِّي لهَـــا بَـــرْقَ الْغَـــمَامِ

فلما كان الأمر المخوف من البرق يقع من أول برقة، قدم ذكر الخوف ولما كان الأمر المطمع منه يأتي ناسخًا للخوف ومبددًا له، أخر ذكر الطمع ليكون الفرج بعد الضيق واليسر بعد العسر والأمن بعد الخوف، فما من ريب في أن هذا يكون أوقع في النفوس وأبلغ حيث تطمئن بالبشرى وحسن العاقبة.

ومنه قوله تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠]، فقد استوفت الآية الكريمة جميع أقسام المعنى، فالله عز وجل إما أن يهب الإناث أو يزوج العباد ذكورًا وإناثًا أو يهب الذكور أو لا يهب شيئًا، وليس هنالك قسم آخر...

ومن دقائق التعبير في الآية الكريمة أن الأقسام وقعت على ترتيب البلاغة

وهي الانتقال من الأدنى إلى الأعلى، فقدم هبة الإناث وتلاها بهبة الذكور فهبة الإناث والذكور ثم الحرمان... وقد أخر الحرمان وقدمت أقسام الهبة لأن إنعام الله وتفضله على عباده أولى بالتقديم... كما عبر عن العطاء والتفضل بلفظ الهبة وعبر عن الحرمان بلفظ الجعل لتأتي الألفاظ ملائمة للمعاني.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]، فلم تترك الآية الكريمة قسمًا من أقسام الهيئات إلا أتت به، ومثله قوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾ [يونس: ١٢]، ونلاحظ تغايرًا في ترتيب الأقسام في الآيتين وهذا التغاير قد اقتضاه المعنى؛ إذ الآية الأولى تتحدث عن الذكر وهو -والله أعلم- الصلاة، والقيام فيها واجب على القادر ويليه القعود عند العجز عن القيام ثم الاضطجاع عند العجز عن القعود...

أما الآية الثانية فتتحدث عن الضر الذي يمس الإنسان وفيه يقدم الاضطجاع ثم يليه القعود عند زوال بعض الضر، فإذا زال الضر كله كان القيام، وبهذا قد حسن ترتيب الأقسام في كل آية وتحقق ائتلاف الألفاظ وملاءمتها للمعنى...

ومن التقسيم في الأحاديث النبوية قول الرسول ﷺ: «**وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ**»(١)، ولا رابع لهذه الأقسام.

ومنه ما حُكي أن أعرابيًا وقف على حلقة الحسن البصري فقال: «رَحِمَ اللهُ مَنْ تَصَدَّقَ مِنْ فَضْلٍ أَوْ آسَى مِنْ كَفَافٍ أَوْ آثَرَ مِنْ قُوتٍ» فقال الحسنُ: «مَا تَرَكَ لِأَحَدٍ عُذْرًا».

ومن استيفاء الأقسام في أشعارهم قول زهير بن أبي سلمى:

وأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ والأمسِ قَبْلَهُ ... ولكنَّنِي عن عِلْمِ مَا في غدٍ عَمِي

فقد استوفى جميع الأزمنة التي يتوجه إليها العلم.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقاق رقم (٣/ ٢٩٥٨) والترمذي في كتاب الزهد رقم (٢٣٤٢).

وقوله:

فإنَّ الحقَّ مقطعُهُ ثلاثٌ يمينٌ أو نِفارٌ أو جِلاءُ
فذلِكُمْ مَقَاطِعُ كُلِّ حَقٍّ ثلاثٌ كلُّهُنَّ لكُمْ شِفَاءُ

روى أن عمر رضي الله عنه قد أعجب بالتقسيم في البيت الأول من البيتين وكان يردده متعجبًا "يمين أو نفار أو جلاء" كما كان يقول "لو أدركت زهيرًا لوليته القضاء لمعرفته"... وكان رضي الله عنه يتعجب من استيفاء الأقسام في بيت عبدة بن الطبيب:

والمرءُ ساعٍ لأَمْرٍ ليسَ يُدْرِكُهُ والْعَيْشُ شُحٌّ وإشفاقٌ وتأمِيلُ

وكان يردده متعجبًا ومعجبًا: "والعيش شح وإشفاق وتأميل".

ومن ذلك قول نصيب:

فقالَ فريقُ القومِ لاَ وفريقُهُم نعمْ وفريقٌ قالَ: ويحَكَ ما نَدْرِي

فليس في أقسام الإجابة غير ما ذكر...

وقول عمر بن أبي ربيعة:

فهبْهَا كشيءٍ لمْ يكنْ أو كنازحٍ بهِ الدارُ أو مَنْ غيَّبَتْهُ المقابُر

فلم يبق مما يعبر به عن إنسان مفقود قسم إلا أتى به هذا البيت.

٢-ومن صور التقسيم: ذكر أحوال الشيء مضافًا إلى كل حال ما يلائمها ويليق بها... كما في قول أبي الطيب:

بدَتْ قمرًا ومالَتْ خُوطَ بانٍ وفاحَتْ عنبرًا ورنَتْ غزالاً

فقد ذكر أحوال صاحبته مضيفًا إلى كل حال ما يلائمها.

وقوله أيضًا:

سأطلبُ حَقِّي بالقَنَا ومَشَايِخٍ كَأَنَهُمْ من طولِ ما الْتَثَمُوا مُرْدُ

سَأطلبُ حَقِّي بالقَنَا ومَشَايِخٍ ... كَأَنَّهُمْ مِن طُولِ مَا الْتَثَمُوا مُرْدُ

ثِقَالٌ إذا لاَقَوْا خِفَافٌ إذا دُعُوا ... كثيرٌ إذا شَدُّوا قَلِيلٌ إذا عُدُّوا(١)

فقد ذكر أحوال المشايخ مضافًا إلى كل حال ما يلائمها ويليق بها.

ومنه قول الآخر:

سَفَرْنَ بدورًا وانتقَبْنَ أَهِلَّةً ... وَمِسْنَ غُصونًا وَالْتَفَتْنَ جآذِرَا(٢)

فقد ذكر أحوال فتياته مضافًا إلى كل حال ما يلائمها...

وقول زهير:

يَطْعَنُهُمْ ما ارْتمَوْا حتَّى إذا اطَّعَنُوا ... ضاربٌ حتى إذا ما ضاربُوا اعْتَنَقَا

فقد ذكر أحوال ممدوحه مضيفًا إلى كل حال ما يلائمها ويبين أن الممدوح يفوق أعداءه ويتقدم عليهم في القتال...

وقول طريح الثقفي:

إنْ يَعْلمُوا الخيرَ يُخْفُوهُ وإنْ عَلِمُوا ... شرًّا أذاعُوا وإنْ لمْ يَعْلَمُوا كَذَبُوا

فقد ذكر أحوالهم مضيفًا إلى كل حال ما يلائمها في الكشف عن حقيقة أمرهم. ومنه قول علي -رضي الله عنه وكرم الله وجهه- "أحسن إلى من شئت تكن أميره واستغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره"...

٣-ذكر متعدد ثم إضافة ما لكل إليه على التعيين، وهذه الصورة من صور التقسيم تختلف عن اللف والنشر في أن ما يضاف إلى المتعدد معين وهو في اللف والنشر غير معين -كما مر- ومن شواهد هذه الصورة قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحاقة: ٤-٦].

فقد ذكر متعدد وهو تكذيب ثمود وعاد، ثم أضيف إلى كل ما له وما حاق به

---

(١) القنا: الرماح، والمرد: جمع أمرد وهو الشاب الذي لم تنبت لحيته.

(٢) سفرن: كشفن وجوههن، وانتقبن: لبسن النقاب وعندئذ تبدو الحواجب مقوسة مثل الأهلة... ومسن: تبخترن في مشيهن.

ومنه قول القائل:

ولا يُقِيمُ على ضَيْمٍ يُرادُ بهِ إلا الأَذَلاَّنِ: عَيْرُ الحيِّ والوتَدُ
هذا على الْخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ وذا يُشَجُّ فلاَ يَرْثِي لَهُ أَحَدُ

فقد أضاف إلى "عير الحي" الربط على الخسف والذل، وإلى الوتد الشج وهذه الإضافة على وجه التعيين؛ لأن هذا اسم إشارة للقريب وذا للأقرب، ولأن "على الخسف مربوط: تتعين للحمار فهو الذي يذل ويربط وقوله: "يشج" متعينة للوتد إذ هو الذي يدق.

عيوب التقسيم

والتقسيم إذا استوفى جميع أقسام المعنى دون أن تتداخل الأقسام أو تتكرر فهو التقسيم الجيد... أما إذا لم يستوف المتكلم كل أقسام المعنى الذي هو بصدد الحديث عنه أو أدخل بعض الأقسام في بعض أو كرر بعضها كان التقسيم معيبًا...

فمن الأول قول جرير يهجو بني حنيفة:

صارتْ حنيفةُ أثلاثًا فَثُلُثُهُم من العبيدِ وثُلُثٌ من مَوالِيهَا

فقد ذكر أنهم صاروا ثلاثة أقسام، ثم صرح بقسمين وسكت عن القسم الثالث، ولذا يقال: إن جريرًا أنشد هذا البيت ورجل من بني حنيفة حاضر، فسأله بعض الحاضرين: من أي قسم أنت؟ فقال: من الثلث الملغي ذكره... ولعل الثلث الثالث الذي تركه جرير هم الأشراف، وقد سكت عنه جرير؛ لأن المقام مقام هجاء يقتضي حذفه وطيه...

ومن الثاني قول جميل يخاطب بثينة:

لو كانَ في قَلْبِي كَقَدْرِ قُلاَمَةٍ حُبًّا وَصَلْتُكِ أو أَتَتْكِ رَسَائِلِي

فإتيان الرسائل داخل في الوصل... ولو قال: لزرتك أو أتتك رسائلي لصح المعنى واستقام التقسيم.

ومثله قول بعضهم يصف قومًا بعد معركة: "فهم ما بين جريح مضرج بدمائه وهارب يلتفت إلى ورائه" لأن الجريح قد يكون هاربًا، فالقسمان متداخلان، ولو قال فهم ما بين قتيل مضرج بدمائه وهارب لصح المعنى واستقام التقسيم،...

وكذا قول الآخر: "الناس ثلاثة: عاقل وأحمق وفاجر"، لأن الفاجر قد يكون أحمق وقد يكون عاقلاً؛ إذ العاقل يجوز أن يكون فاجرًا وكذا الأحمق، فالأقسام متداخلة والقسمة فاسدة.

ومن الثالث وهو تكرار الأقسام قول أمية بن أبي الصلت:

لله نِعْمَتُنَا تَبَارَكَ رَبُّنَا ... رَبُّ الأَنَامِ وَرَبُّ مَنْ يَتَأَبَّدُ[1]

فمن "يتأبد" أي يتوحش داخل في الأنام، ولذا فسد التقسيم من أجل التكرار والتداخل...

ومثله قول الآخر:

فَمَا بَرِحَتْ تُومِي إِلَيَّ بطَرْفِهَا ... وَتُومِضُ أحيانًا إذا طَرْفُهَا غَفَلْ

لأن تومئ بطرفها وتومض بمعنى واحد.

***

الجمع

هو أن يجمع بين أمرين مختلفين أو أكثر في حكم واحد كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٤٦]، فقد جمع المال والبنون في كونهما زينة الحياة الدنيا، وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠]، فقد جمعت هذه الرذائل في كونها رجس من عمل الشيطان، وقوله عز وجل: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ ﴾ [الرحمن: ٥، ٦]، جمع بين الشمس والقمر في الحسبان أي الحساب الدقيق، وبين النجم والشجر في السجود أي الانقياد لإرادة الله تعالى.

---

(١) الأنام: الخلق. ويتأبد: يتوحش.

ومنه قول النبي ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا في سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي بَدَنِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فكأنما حيزت له الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا...»[١]، فجمع الأمن ومعافاة البدن وقوت اليوم في حكم واحد وهو حيازة الدنيا بحذافيرها... ومن أقوالهم قول أبي العتاهية:

إِنَّ الشَّبَابَ والفراغَ والجِدَهْ مَفْسَدةٌ للمرءِ أيُّ مَفْسَدَةْ[٢]

فقد جمع الشباب والفراغ والجدة في حكم واحد وهو كونها مفسدة للمرء أي مفسدة...

وقول ابن وهيب:

ثلاثةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهَا شمسُ الضُّحَى وأبو إسحاقَ والقمرُ

فقد جمعت هذه الأمور الثلاثة شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر في كونها تشرق الدنيا ببهجتها...

وقول الآخر:

آراؤُهُ وعطايَاهُ ونِعْمَتُهُ وعَفْوُهُ رَحْمَةٌ لِلنَّاسِ كُلِّهِمُ

فقد جمع آراءه وعطاياه ونعمته وعفوه في حكم واحد وهو كونها رحمة للناس كلهم...

***

التفريق

والتفريق عكس الجمع فهو إيقاع تباين بين أمرين من نوع واحد في المدح أو غيره... كما في قول الوطواط:

ما نوالُ الغمَامِ وقتَ ربيعٍ كنوالِ الأميرِ يومَ سخَاءِ

---

(١) السرب: يطلق على النفس وعلى الجماعة من النساء والبقر وغيرهما، والجمع: أسراب... والحذافير: النواحي واحدها: حذفار... والحديث رواه ابن ماجه في الزهد رقم (٤١٤١) والترمذي في الزهد أيضا رقم (١٣٤٦).

(٢) الجدة: الاستغناء بالمال. وأي مفسدة: بمعنى كاملة الفساد.

فنـــوالُ الأمـــيرِ بـــدرةُ عَـــيْنٍ   ونـــوالُ الْغَـــمَامِ قَطْـــرَةُ مَـــاءِ (١)

فقد أوقع الشاعر تباينًا بين العطاءين: عطاء الأمير وعطاء الغمام وهما من نوع واحد أي: مطلق عطاء، وغايته من هذا التفريق أن يفضل عطاء الممدوح على نوال الغمام...

ومثله قول الوأواء الدمشقي:

مَـــنْ قـــاسَ جـــدواكَ بـــالغمامِ فـــمَا   أنـــصفَ في الحكـــمِ بـــينَ شَـــكْلَيْنِ

أنـــتَ إذا جُـــدْتَ ضَـــاحِكٌ أبـــدًا   وَهُـــوَ إِذَا جَـــادَ دامـــعُ الْعَـــيْنِ (٢)

فقد فرق بين العطاءين وهما من نوع واحد ليفضل عطاء الممدوح، وعلل ذلك تعليلاً حسنًا فالممدوح ضاحك عند العطاء؛ لأنه محب للجود يعطي عن طواعية واختيار، والغمام عند عطائه دامع العين وكأن هناك قوة تدفعه إلى العطاء على غير إرادة منه...

ومنه قول الآخر:

قاسُـــوكِ بِالْغُـــصْنِ في التَّثَنِّـــي   قِيَـــاسَ جَهْـــلٍ بـــلا انْتِـــصَافِ

فَـــذَاكَ غُـــصْنُ الخِـــلاَفِ يُـــدْعَى   وأنـــتِ غـــصْنٌ بـــلا خِـــلافِ (٣)

فقد فرق بين أمرين من نوع واحد وهما صاحبته والغصن فهما من نوع واحد في التثني على التشبيه، واتخذ من تسمية الغصن خلافًا ركيزة للتفريق وهدفه من هذا التفريق تفضيل قوام صاحبته على غصن الخلاف لأن الأخير تنفر النفس منه لاسمه (الخلاف) أما الأول وهو قوام صاحبته فغصن بلا خلاف ولا شك، ونلاحظ أن بين (الخلاف) و(خلاف) في البيت الثاني جناس تام.

ومن ذلك قول صفي الدين الحلي في مدح المصطفى ﷺ.

---

(١) النوال: العطاء. والبدرة: كيس فيه ألف دينار أو عشرة آلاف درهم، والمراد بالعين: المال.

(٢) الجدوى: العطية، والشكلان: تثنية شكل بمعنى مثل... وجاد: أعطى.

(٣) الخلاف: شجر الصنفصاف، وتشبه به المرأة في التثني واعتدال القامة.

فجـــودُ كفَّيْـــهِ لم تُقْلِـــعْ سَـــحَائِبُهُ   عـــن العبـــادِ وجُـــودُ الـسُّحُبِ لمْ يَـدُمِ

فجود كفيه –عليه الصلاة والسلام– وجود السحاب من نوع واحد وهو مطلق جود، وقد فرق بينهما الشاعر وأوقع تباينًا معللاً تعليلاً حسنًا، وهو أن جود كفيه –عليه الصلاة والسلام– متصل ودائم على العباد، لا تقلع سحائبه، أما جود السحب فهو منقطع غير دائم... وغايته من ذلك ترجيح وتفضيل جود كفي الرسول ﷺ على جود السحب.

* * *

الجمع مع التفريق

هو أن يجمع بين شيئين في حكم واحد ويفرق بين جهتي الجمع... كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ١٢]، فقد جمع بين الليل والنهار في حكم واحد وهو كونهما آيتين ودليلين على قدرة الله وحكمته، ثم فرق بين جهتي الجمع فالليل يكون مظلمًا والنهار يكون مضيئًا...

ومنه قول رشيد الدين الوطواط:

فَوَجْهُـــكَ كالنَّـــارِ في ضَـــوئِهَا   وقَلْبِـــيَ كالنَّـــارِ في حَرِّهَـــا

حيث جمع بين وجه حبيبه وقلب نفسه في حكم واحد وهو تشبيههما بالنار، ثم فرق بينهما من جهة وجه الشبه، فجعله في وجه الحبيب: الضوء واللمعان، وفي القلب: الحرارة والاحتراق.

ومثله قول الآخر:

تـــشابَهَ دمعانَـــا غـــداةَ فِرَاقِنَـــا   مـــشابهةً في قِـــصَّةٍ دونَ قِـــصَّةِ

فَوَجْنَتُهَـــا تَكْـــسُو المـَــدَامِعَ حُمْـــرَةً   وَدَمْعِـــي يَكْـــسُو حُمْـــرَةَ اللَّـــوْنِ وجْنَتِـــي

فقد جمع بني الدمعين وقت الفراق في التشابه ثم فرق بينهما من جهة اللون، فدمع الحبيبة أبيض يكسوه خدها حمرة، ودمعه أحمر لأنه يبكي دمًا وجسده قد شحب واصفر من العشق، فإذا جرى دمعه على خده صيره أحمر...

ومنه قول البحتري:

وَلمَّا الْتَقَيْنَا والنَّقَا مَوْعِدٌ لنَا تعجَّبَ رائِي الدُّرِّ منَّا ولاقطُهُ
فمِنْ لُؤْلُؤٍ تَجْلُوهُ عندَ ابْتِسَامِهَا ومن لؤلؤٍ عندَ الحديثِ تُسَاقِطُهُ(١)

جمع البحتري بين رائي الدر ولاقطه في حكم واحد وهو التعجب منهما، ثم فرق بين الرائي واللاقط من جهة التعجب، فرائي الدر تعجب من ثناياها اللؤلؤية التي بدت عند ابتسامتها، ولاقط الدر تعجب من كلمات تنفرج عنها شفتاها عند الحديث وتتساقط من فمها، فيلتقطها وكأنها اللؤلؤ قيمة ونفاسة.

***

الجمع مع التقسيم

وهو جمع متعدد تحت حكم واحد ثم تقسيمه أو تقسيمه ثم جمعه تحت حكم واحد... فمن الأول قول المتنبي يمدح سيف الدولة ويصف الروم عندما غزاهم:

حتىَّ أقامَ على أَرْبَاضِ خَرْشَنَةٍ تَشْقَى بهِ الرُّومُ والصُّلْبَانُ والْبِيَعُ
لِلسَّبْيِّ ما نكحُوا والقتلِ ما وَلَدُوا والنَّهْبِ ما جَمَعُوا والنَّارِ ما زَرَعُوا(٢)

فقد جمع الروم وهو متعدد؛ لأنه يريد نساءهم وأولادهم وأموالهم وزرعهم، جمع هذه الأمور تحت حكم واحد وهو الشقاء ثم قسم ذلك الحكم إلى سبي وقتل ونهب وإحراق ورجع إلى كل قسم منها ما يلائمه ويوافقه.

ومثله قول صفي الدين الحلي:

أبادَهُمْ فَلِبَيْتِ المالِ ما جمعُوا والروحُ للسيفِ والأجسادُ للرَّخَمِ(٣)

---

(١) النَّقا: موضع، ومَوْعِدٌ: اسم مكان، ومراد البحتري أنهما التقيا في هذا الموضع.

(٢) الأرباض: جمع ربض وهو ما حول المدينة، وخرشنة: بلدة بالروم تسمى أماضية والبيع: جمع بيعة وهي معبد النصارى، وقال: "ما نكحوا وما ولدوا" مع أن "ما" لغير العاقل إهانة لهم وملاءمة لما بعدهما أي: "ما جمعوا وما زرعوا".

(٣) الرخم: بفتح الراء والخاء، وبضم الراء وسكون الخاء "رَخَم، رُخْم" مفرده: "رَخَمة" و"رُخْمة" وهو طائر كالنسر إلا أنه أبقع، أي: مبقع بسواد وبياض ويقال له: الأنوق.

حيث جمع المتمردين على السلطان متمثلين في أموالهم وأرواحهم وأجسادهم تحت حكم واحد وهو الإبادة ثم قسم هذا الحكم إلى المال والروح والأجساد مضيفًا إلى كل قسم ما يناسبه ويلائمه.

ومن الثاني قول حسان بن ثابت ﷺ:

قَــومٌ إذا حــاربُوا ضرُّوا عَــدُوَّهُمُ   أو حــاولُوا النَّفْــعَ في أشــياعِهْم نَفَعُــوا
ســجيَّةٌ تلــكَ فــيهمْ غــيرُ مُحْدَثَــةٍ   إنَّ الخلائــقَ فــاعْلَمْ شَرُّهــا الْبِــدَعُ[١]

حيث قسم صفة الممدوحين إلى ضر الأعداء في الحروب ونفع الأشياع والأولياء، ثم جمعها في البيت الثاني حيث قال: سجية تلك فيهم غير محدثة.

ومنه قول إبراهيم الصولي:

لــو أنَّ مــا أنــتُمُ فيــهِ يــدومُ لكُــمْ   ظَنَنْــتُ مــا أنَــا فيــهِ دائمًــا أبــدًا
لَكِــنْ رأيــتُ اللّيَــالِي غَــيْرَ تاركــةٍ   مــا سرَّ مــن حــادثٍ أو ســاءَ مُطَّــرِدًا
فقــدْ ســكنْتُ إلى أنيِّ وأنَّكُــمُ   سَنَــسْتَجِدُّ خــلافَ الحــالتينِ غــدًا

فقد قسم الأحداث إلى قسمين: أحداث تسر وأحداث تسيء، ثم جمعهما في قوله: "خلاف الحالتين"... وهو جمع لطيف لما قسم لحسن اختصاره للأحداث السارة والمسيئة، وقد ازداد هذا الجمع لطفًا بحسن ما بناه عليه من قوله: فقد سكنت إلى أني وأنكم[٢].

* * *

---

(١) أشياع: أتباع وسجية: طبيعة.

(٢) انظر: الإيضاح ج ٤ ص ٤٠.

الجمع مع التفريق والتقسيم

وهو الجمع بين شيئين أو أشياء في حكم واحد، ثم التفريق بينهما أو بينها في ذلك الحكم ثم التقسيم بين ما فرق بأن يضاف إلى كل ما يلائمه ويناسبه... ومن شواهده قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٥-١٠٨].

فقد جمع النفوس في قوله جل وعلا: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ لأن النكرة في سياق النفي تعم، ثم فرق فجعل البعض شقيًا والبعض سعيدًا، ثم قسم بأن أضاف إلى الأشقياء ما لهم من عذاب النار وإلى السعداء ما لهم من نعيم الجنة.

ومنه قول ابن شرف القيرواني:

لِمُخْتَلِفِي الحاجَاتِ جَمْعٌ ببابِهِ   فهـذَا لَهُ فَنٌّ وهـذا لَهُ فَنٌّ
فَلِلْخامِلِ الْعَلْيَا وللمُعْدَمِ الغِنَى   وللْمُذْنِبِ العُتْبَى وللخائِفِ الأَمْنُ[(١)]

حيث جمع مختلفي الحاجات في حكم واحد وهو اجتماعهم أمام بابه... ثم فرق بأن جعل لكل واحد منهم حاجة خاصة... ثم عاد فقسم بأن أضاف إلى كل واحد منهم ما يناسبه ويلائمه: فللخامل العليا وللمعدم الغني وللمذنب العتبى وللخائف الأمن.

وقول الآخر:

وكالنار ضوءًا وكالنارِ حَرًّا   مُحَيَّا حبيبي وحُرْقَةُ بالِي
فذلك من ضَوْئِهِ في اختيَالِ   وهـذا لِحُرْقَتِهِ في اختِلالِ

فقد جمع محيا حبيبه وحرقة باله في حكم واحد وهو تشبيهها بالنار ثم فرق بينهما من جهة وجه الشبه فهو في محيا الحبيب الضياء والنور وفي حرقة باله اللهيب

---

(١) الفن: النوع أو الحال أو الحاجة، والخامل: الكسول والمراد من لا شأن له... والعتبى: الإرضاء.

والتوقد... ثم قسم بأن أضاف إلى كل منهما ما يناسبه ويلائمه، فالحبيب من ضوئه في اختيال وهو من حرقته في اختلال.

* * *

تجاهل العارف

عرفه البلاغيون بأنه "سوق المعلوم مساق غيره لنكتة"... ولورود هذا اللون في أساليب القرآن الكريم فقد عدل السكاكي عن تسميته "تجاهل العراف"، وسماه "سوق المعلوم مساق غيره" وذلك تأدبًا مع أساليب القرآن الكريم وتنزيهًا لله عز وجل عن تلك اللفظة: "تجاهل" وتلك نظرة دقيقة من السكاكي رحمه الله فينبغي أن تتخير وتنتقي أسماء المصطلحات بحيث لا تتنافى مع أساليب النظم الكريم، ويكون إطلاقها على تلك الأساليب مقبولاً ومستساغًا...

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨)﴾ [طه: ١٧، ١٨]، فالله عز وجل يعرف حقيقة ما بيد موسى -عليه السلام- إذ هو سبحانه وتعالى عليم بكل شيء، ولكنه -تعالى- ساق المعلوم مساق غير المعلوم لنكتة بلاغية وهي: التأنيس ورفع الهيبة والتنبيه إلى أن تلك العصا سيكون لها شأن عظيم، فهي عما قليل ستكون حية تسعى فثعبانًا مبينًا، من أجل هذا سأل عز وجل عنها وساق المعلوم مساق غيره.

وتتعدد النكات والأسرار البلاغية التي من أجلها يساق المعلوم مساق غير المعلوم ولكن أهمها:

١- التحقير: كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧]، فالمشركون يعلمون من هو محمد ﷺ إذ هو الصادق الأمين كما سموه قبل البعثة، ولكنهم ساقوا المعلوم مساق غيره وكأنهم لا يعرفون عنه ﷺ سوى أنه رجل ما، ومرادهم بذلك التحقير والحط من شأن المصطفى ﷺ

٢- التقرير: كقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ

ﭐتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ ﴾ [المائدة: ١١٦]، فالغرض من الاستفهام في الآيتين هو التقرير، لأن السائل عالم بالمستفهم عنه... وهذا شأن أساليب الاستفهام القرآني التي أفادت معاني بلاغية(١).

٣- التعريض، كما في قوله تعالى ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [سبأ: ٢٤]، فالله أعلم ورسوله بمن هو على هدى ومن هو في ضلال، وقد سيق الكلام هذا المساق للتعريض بعدم هداهم، وفيه فائدة أخرى وهي استمالة هؤلاء الكفرة وحثهم على التأمل والنظر حتى يصلوا إلى وجه الحق والصواب فيكون ذلك أدعى لهدايتهم وإيمانهم.

٤- التوبيخ: كقول ليلى بنت طريف في رثاء أخيها وكان من الخوارج فقتل في عهد هارون الرشيد:

أيا شجرَ الخابورِ مالَكَ مُورِقًا ... كأنَّكَ لمْ تجْزَعْ على ابْنِ طَرِيفِ(٢)

فهي تعلم أن الشجر لا يجزع ولكنها تجاهلت ذلك فوبخت الشجر لإيراقه ونضرته وعدم جزعه على أخيها، وفي هذا تعريض بغيره من العقلاء وتوبيخ لهم على عدم جزعهم.

٥- المبالغة في الذم والهجاء: كقول زهير بن أبي سلمى:

ومَا أَدْرِي وسوفَ إِخالُ أَدْرِي ... أقومٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِساءُ(٣)

فهو يعلم أن آل حصن رجال، ولكنه تجاهل تلك المعرفة للمبالغة في ذمهم وإفادة أنهم بلغوا في الضعف مبلغًا يحصل معه ذلك اللبس، والشك في كونهم رجالاً، ولذا قال: وسوف إخال أدري، أي: سأعلم في المستقبل إن كانوا رجالاً أم نساء...

---

(١) انظر الجزء الثاني من كتابنا علم المعاني باب الاستفهام.

(٢) الخابور: نهر بديار بكر، وابن طريف: أخوها الوليد وقد قتله يزيد بن مزيد الشيباني في عهد هارون الرشيد.

(٣) إخال: أظن: والقوم: يطلق على الرجال خاصة وعلى ما يعم الرجال والنساء والمراد هنا الأول. وجملة (وسوف إخال أدري) معترضة؛ وإخال أيضًا اعتراض.

٦- المبالغة في المدح والثناء: كما في قول البحتري:

أَلَـمْعُ بَـرْقٍ سَرَى أمْ ضَـوْءُ مِـصْبَاحِ ... أمْ ابْتِـسَامَتُهَا بـالمنظرِ الـضَّاحِي[1]

فهو يعلم أن الذي ظهر هو ابتسامتها، ولكنه تجاهل ذلك للمبالغة في مدحها، وإفادة أنها بلغت في الحسن مبلغًا يحصل معه ذلك اللبس...

ومثله قول النابغة الذبياني:

ألمحةٌ مِـن سَـنَا بَـرْقٍ رَأي بَـصَرِي ... أمْ وَجْـهُ نُعْـمٍ بـدَا لِي أم سَـنَا نـارِ

٧- التدله في الحب: كما في قول العرجي:

بِـالله يَـا ظَبَيَـاتِ الْقَـاعِ قُلْـنَ لنَـا ... لَـيْلاَيَ مِـنْكُنَّ أمْ لَـيْلَى مِـنَ الْبَشَرِ[2]

فهو يعلم أن ليلاه من البشر، ولكنه لفرط حبه وشدة هيامه وقوة صبابته، تجاهل تلك المعرفة، وساق الكلام مساق من لا يعلم أنها من البشر، وكأن الحب قد أدهشه وسلب عقله فصار لا يدري: أليلاه من البشر أم من الظبيات...

ومثله قول ذي الرمة:

أيـا ظَبْيَـةَ الْوَعْـسَاءِ بـينَ جُلاَجـلٍ ... وبـينَ النَّقَـا أَأَنْـتِ أمْ أُمُّ سَـالمِ[3]

فقد صار لفرط حبه وشدة غرامه بأم سالم، لا يدري أهي أم سالم أم ظبية الوعساء.

وهو يريد بهذا التجاهل: إظهار التدله في حبها وعشقها.

❊❊❊

(١) سرى: ظهر ليلاً والمنظر الضاحي: الوجه الظاهر.

(٢) القاع: المستوى من الأرض.

(٣) الوعساء: الرابية: اللينة من الرمل تنبت البقول الحارة، وجلاجل والنقا موضعان.

تأكيد المدح بما يشبه الذم

تأكيد المدح بما يشبه الذم أسلوب يقوم على مفاجأة السامع بصفة من صفات المدح حيث كان يتوقع صفة ذم، وذلك باستخدام أداة من أدوات الاستثناء أو الاستدراك.

ويتحقق التأكيد والمفاجأة بهذا الأسلوب سواء أكان المستثنى منه مثبتًا أم منفيا، وسواء وجد المستثنى منه أم كان الاستثناء مفرغًا، على نحو ما سترى في الشواهد، كما يتحققان أيضًا سواء أكان الاستثناء متصلاً أم منقطعًا، لأن الأصل في الاستثناء أن يكون متصلاً، ومثل تأكيد المدح بما يشبه الذم، تأكيد الذم بما يشبه المدح وسيأتي الحديث عنه، أما تأكيد المدح بما يشبه الذم فله ضربان:

أولهما: أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخول صفة المدح المستثناة في صفة الذم المنفية... كقول النابغة الذبياني:

ولا عَيْبَ فيهِمْ غيرَ أنَّ سيوفَهُمْ ... بهنَّ فُلُولٌ من قِرَاعِ الكتائِبِ

فالعيب صفة ذم وقد نفاها الشاعر عن ممدوحيه ثم استثنى منها صفة مدح وهي: أن سيوفهم بها فلول من قراع الكتائب وذلك ينم عن شجاعتهم وكثرة قتالهم... فهؤلاء لا عيب فيهم سوى الشجاعة، إن كانت الشجاع عيبًا، وكون الشجاعة عيبًا محال، فيكون ثبوت العيب لهم من المحال...

ونظيره قول ابن نباتة:

ولا عَيْبَ فيهَا غيرَ سِحْرِ جُفُونهَا ... وأَحْبِبْ بهَا سَحَّارةً حين تَسْحَرُ

ففتاته لا عيب فيها سوى الجمال وسحر الجفون، لو عد سحر الجفون عيبًا، وكونه عيبًا محال...

ومنه قول صفي الدين الحلي:

لا عَيْبَ فِيهِمْ سِوَى أنَّ النَّزِيلَ بِهِمْ ... يسلُو عن الأهلِ والأوطانِ والْحَشَمِ

فكون النزيل بهم يسلو عن الأهل والوطن والحشم ليس عيبًا بل هو دليل كرمهم وبرهان حسن ضيافتهم.

وقول الآخر:

ولا عَيْبَ فينَا غَيْرَ أن سماحَنَا أَضَرَّ بِنَا والبَأْسَ من كلِّ جانِبِ
فَأفْنَى الرَّدَى أَعْمَارَنَا غَيْرَ ظالمٍ وَأَفْنَى النَّدَى أموالَنَا غَيْرَ عائبِ

فكون السماح والبأس أضر بهم ليس عيبًا، بل هو توكيد لنفي العيب، ومما زاد من لطافة المعنى وجماله هذا الاحتراس البديع: "غير ظالم، وغير عائب".

ومنه قول ابن الرومي:

ليسَ لَهُ عيبٌ سِوَى أَنَّهُ لا تقعُ العينُ على شِبْهِهِ

جعل انفراده بالحسن وعدم وقوع العين على شبيه له عيبًا فزاد بهذا من حسنه وأكد جماله...

وقول حاتم الطائي:

وما تشتكِي جارَتِي غيرَ أَنَّنِي إذا غَابَ عنهَا بعلُهَا لا أزُورُهَا
سَيَبْلُغُها خيرِي ويَرْجِعُ أهلُهَا إليهَا ولمْ تُقْصَرْ عليَّ سُتُورُهَا

فشكوى الجارة صفة ذم وقد نفاها الشاعر ثم استثنى منها صفة مدح وهي أنه يحفظ جاره في عرضه عند غيابه، فيصل إلى تلك الجارة المال والخير وقضاء الحاجات ويرجع إليها أهلها ولم يقصر سترها عليه، وبهذا تأكد المدح لكونه مدحًا على مدح. ومما جاء في التنزيل من هذا الضرب قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، فما قبل إلا نفي لسماع اللغو والتأثيم وما بعدها إثبات للتحية بالسلام وكلاهما مدح...

ومثله قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم: ٦٢]، فما قبل أداة الاستثناء نفي لسماع اللغو، وما بعدها إثبات للسلام، وكلاهما مدح وتكريم...

ومنه قوله عز وجل: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ

ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٥٩]، وقوله: ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٨]، فما قبل إلا في الآيات الكريمة صفة ذم، وهي: النقم بمعنى الطعن والعيب وقد جاء منفيًا نفيًا صريحًا أو بالاستفهام الذي أفاد النفي، وما بعد إلا صفة مدح وهي: الإيمان بالله وآياته وما أنزل...

الضرب الثاني: أن يثبت لشيء صفة مدح ويعقب بأداة استثناء أو استدراك تليها صفة مدح أخرى، من ذلك قول الرسول ﷺ: «**أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ بَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ**»[1]، فقد أثبت عليه الصلاة والسلام لنفسه صفة مدح وهي الفصاحة، فلما أتى بعدها بأداة الاستثناء "بيد" أشعر ذلك أنه يريد إثبات وصف مخالف لما قبلها، فلما أثبت أنه من قريش، وقريش أفصح العرب، كان ذلك تأكيدًا للمدح بأسلوب ألف الناس سماعه في الذم.

ومنه قول النابغة الجعدي:

فتَى كمُلَتْ أخلاقُهُ غيرَ أنَّهُ جوادٌ فمَا يُبقِي من المالِ باقيَا

فقد وصفه بكمال الأخلاق وعقب بأداة استثناء (غير) ثم ذكر بعدها صفة مدح أخرى وهي الجود وإفناء المال في العطاء والكرم...

وقول ابن مقرب:

وسَلاَّبُ أرواحِ الْكُمَاةِ لدَى الْوَغَى ولكنَّ مُرجِيهِ لدَى السَّلْمِ سَالِبُهْ

فما قبل (لكن) وصف للممدوح بالجرأة والشجاعة لدى الوغى، وما بعد لكن وصف آخر بالكرم وتحقيق الرجاء... ونلاحظ أن الذي ذكره في البيت أداة استدراك وليس أداة استثناء...

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٣٥ برقم ٥٤٣٧) والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ٤٢ برقم ٩٨) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ولفظه: "أنا أعرب العرب ولدت في بني سعد فأنى يأتيني اللحن".

ومنه قول بديع الزمان الهمذاني:

هو البدرُ إلاَّ أنَّهُ البحرُ زاخرًا سِوَى أنَّه الضِّرْغَامُ لكنَّهُ الْوَبْلُ

وقول الآخر:

أخُو ثقةٍ لا تُهلِكُ الخمرُ مالَهُ ولكنَّهُ قدْ يُهلِكُ المالَ نائِلُهْ

***

وجه تسمية هذا اللون

ووجه تسمية هذا اللون بتأكيد المدح بما يشبه الذم، أن هذا الأسلوب ألف الناس سماعه في الذم، لأن المتكلم عندما يذكر صفة ذم منفية أو صفة مدح مثبتة ثم يعقب بأداة استثناء أو استدراك يتوقع السامع أن المستثنى أو المستدرك سيكون ذمًا؛ لأن هذا ما قد ألفه واعتاده من مثل هذا الأسلوب، ولكن المتكلم يعدل عن ذكر ما قد ألف إلى ذكر صفة مدح يؤكد بها المدح الأول، ولهذا سمي الأسلوب: تأكيد المدح بما يشبه الذم، ومثل هذا يقال في تأكيد الذم بما يشبه المدح، الذي حان الحديث عنه الآن.

***

تأكيد الذم بما يشبه المدح

وتأكيد الذم بما يشبه المدح له ضربان أيضًا:

أولهما: أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشيء صفة ذم بتقدير دخول صفة الذم المستثناة في صفة المدح المنفية، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]، فقبل إلا نفي لذوق البرد والشراب وبعدها إثبات لذوق الحميم والغساق وكلاهما ذم...

ومنه قوله عز وجل: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الحاقة: ٣٥، ٣٦]، فقبل إلا نفي لوجود الصديق الحميم والطعام الطيب وبعدها إثبات لوجود الطعام الخبيث ﴿غِسْلِينٍ﴾ وكلاهما ذم...

ومنه قول الشاعر:

خــلاَ مــن الفــضلِ غــيرَ أنيِّ أراهُ في الحمـــقِ لا يجُـــارَى

فقد نفى عنه الفضل بقوله: (خلا) ثم استثنى من ذلك رؤيته له منغمسًا في الحمق لا يجاريه أحد في الحماقة.

وقول الآخر:

فـإنَّ مَـنْ لامَنِـي لا خـيرَ فيـهِ سـوَى وَصْـفِي لَـهُ بِـأَخَسِّ النَّـاسِ كُلِّهِـمُ

فقبل سوى نفي الخير عنه وبعدها وصفه له بأخس الناس كلهم.

ثانيهما: أن يثبت للشيء صفة ذم ويعقب بأداة استثناء أو استدراك تليها صفة ذم أخرى...

كمـا في قول القائل:

لَئِـيمُ الطِّبَـاعِ سِـوَى أَنَّـهُ جَبَـانٌ يهُـونُ عَلَيْـهِ الْـهَوَانُ

أثبت له صفة اللؤم قبل سوى وصفة الجبن بعدها.

ومنه قول الآخر:

يـا رسـولا أعـداؤُهُ أَرَاذِلُ النَّـا سِ جميعًـا لَكِـنَّهُم في الجحـيمِ

فقد وصفهم بأراذل الناس ثم استدرك فأثبت أنهم في الجحيم.

بلاغة هذين الأسلوبين

وترجع بلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذم أو الذم بما يشبه المدح إلى أمرين:

الأمر الأول. أن كلا منهما بمثابة الدعوى التي أقيم عليها الدليل والبرهان، وذلك أن المتكلم يستدل على نفي الذم أو المدح في الضرب الأول من كل أسلوب، وعلى إثباتهما في الضرب الثاني –يستدل على ذلك– بالتعليق على ما لا يكون، ولا يتحقق له وجود بحال من الأحوال...

فعندما نقول: لا عيب فيك سوى أنك شجاع، فإننا نستدل على نفي العيب عنك بكونك شجاعًا، والمعنى: لا عيب فيك سوى الشجاعة إن كانت الشجاعة عيبًا، وكون الشجاعة عيبًا محال، فثبوت العيب لك محال...

وعندما نقول: فتى كملت أخلاقه سوى أنه كريم، فإننا نستدل على كمال أخلاقه بكونه كريمـًا، والـمعنى لقد كملت أخلاقه إلا من شيء واحد وهو الكرم إن كان الكرم ينقص من كمـال الأخلاق، وكون الكرم ينقص من كمال الأخلاق محال، فيثبت بهذا أنه متصف بكمـال الأخلاق، وكذا يقال في تأكيد الذم بما يشبه المدح، وما من ريب في أن إثبات الشيء بالدليل والبرهان يكون آكد وأبلغ من إثباته مجردًا عن الدليل.

الأمر الثاني: ما فيه من المفاجأة والمباغتة للسامع، فإن المتكلم عندما ينطق بأداة الاستثناء أو الاستدراك يتوقع السامع ويدور في خلده أن المستثنى أو المستدرك سيكون مغايرًا ومخالفًا للمستثنى منه كما هو المألوف من هذا الأسلوب وعندما يأتي المستثنى مؤكدًا للمستثنى منه وعلى خلاف ما كان يتوقع السامع تكون المفاجأة والمباغتة التي تكسب المعنى طرافة وتثير في النفس تنبيهًا، وبهذا يتأكد المدح في أسلوب تأكيد المدح، والذم في أسلوب تأكيد الذم.

***

الـــمذهب الكلامي

الجاحظ أول من أشار إلى هذا اللون من الكلام ثم ابن المعتز الذي عده أحد الفنون الخمسة الأساسية للبديع، ولكنهما لم يحددا مفهومه، بل أشارا فقط إلى أمثلته، كقول الفرزدق:

لكـــلِّ امـــرئٍ نفــسَان: نفـــسٌ كريمـــةٌ وأخـــرَى يُعاصِــيها الفتَــى أَو يُطيعُهَـــا

ونفــسُكَ مــن نَفْــسَيْكَ تَــشْفَعُ لِلنَّــدَى إِذَا قـــلَّ مـــن أحـــرارِهنَّ شَـــفِيعُهَا

وكقول أبي نواس:

إنَّ هـــذا يـــرى –ولا أرَى للأَحْـــ ـــمَقِ- أنيِّ أَعُـــدُّهُ إنْـــسَانَا

ذاكَ في الظـــنِّ عِنْـــدَهُ وَهُـــوَ عِنْـــدِي كَالَّـــذِي لمْ يكُـــنْ وإنْ كَـــانَ كَانَـــا

وكقول إبراهيم المهدي:

الْبِرُّ مِنْكَ وَطَاءُ الْعُذْرِ عِنْدَكَ لِي   فِيمَا فَعَلْتُ فلمْ تَعْذِلْ وَلمْ تَلُمِ
وَقَامَ عِلْمُكَ بِي فَاحْتَجَّ عِنْدَكَ لِي   مَقَامَ شَاهِدِ عَدْلٍ غَيْرِ مُتَّهَمِ (١)

وعندما نتأمل هذه الشواهد نجد أن كل شاعر يدعي دعوى ثم يحاول التماس دليل مقنع يقيمه لها، تمامًا كما يفعل المتكلمون بإيراد الحجج العقلية لدعواهم... ولذا سمي هذا اللون من الكلام باسم "المذهب الكلامي".

وقد عرفه البلاغيون بأنه: "إيراد المتكلم حجة لما يدعيه على طريقة أهل الكلام... أو بمعنى آخر... أن يأتي البليغ لصحة دعواه وإبطال دعوى خصمه بحجة عقلية قاطعة تصح نسبتها إلى علم الكلام؛ إذ علم الكلام عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية القاطعة... وقد نسب ابن المعتز هذا اللون من الكلام إلى التكلف وزعم أنه لا يوجد في القرآن منه شيء...

والصواب أنه قد ورد في النظم الكريم، بل إن القرآن مليء به، وهو فيه غير متكلف، فالمذهب الكلامي شأنه شأن غيره من ألوان البديع، يأتي في الكلام بلا تكلف فيقبل ويأتي متكلفًا فيرد، وما جاء منه في القرآن الكريم فهو غير متكلف ومنه قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢١، ٢٢]، فالمراد بفساد السموات والأرض خروجها عن النظام الذي هما عليه، وقد استدل على وحدانيته تعالى بعدم فساد السموات والأرض، وبيان ذلك أن يقال: لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا، ولكنهما لم تفسدا، فليس فيهما آلهة إلا الله؛ إذ اللازم وهو الفساد باطل، وهذا يقتضي أن يكون الملزوم وهو تعدد الآلهة باطلاً، فانتفى الثاني لانتفاء الأول...

ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. أي: الإعادة أهون عليه من البدء، والأهون أدخل في الإمكان من غيره، فالإعادة ممكنة...

---

(١) الوطاء: خلاف الغطاء.

وقوله عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ ﴾ [الأنعام: ٧٥، ٧٦]، أي: الكوكب يأفل وربي لا يأفل، فالكوكب ليس بربي.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ [المائدة: ١٨]، أي أنتم تعذبون والأبناء لا يعذبون فأنتم لستم أبناء الله، بل أنتم بشر ممن خلق، ومنه قول النبي ﷺ «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا**»(١)، وتمام الدليل أن يقال... لكنكم ضحكتم كثيرًا وبكيتم قليلاً فلم تعلموا ما أعلم.

ومن أشعارهم قول زهير بن أبي سلمى:

وَمَا يكُ من خَيْرٍ أَتَوْهُ فإنَّما ... توارَثَهُ آباءُ آبائِهِمْ قَبْلُ

وهل يُنْبِتُ الخَطِّيَّ إلا وَشِيجُهُ ... وتَنبُتُ إلا في منابِتِهَا النَّخْلُ(٢)

فكما أنه لا تصنع الرماح الخطية الشهيرة إلا من أشجارها ولا تنبت النخل إلا في منابتها فكذلك هؤلاء توارثوا الأمجاد والفضائل عن آبائهم وأجدادهم فهم أصل الفضائل ومنبع المجد...

وقول النابغة يعتذر للنعمان بن المنذر عندما انصرف عنه ومدح آل جفنة من الغساسنة:

حَلَفْتُ فلمْ أَتْرُكْ لنفسِكَ ريبةً(٣) ... وليسَ وراءَ اللهِ للمرءِ مَطْلَبُ

لئنْ كنتَ قدْ بُلِّغتَ عنّي خيانةً ... لَمُبْلِغُكَ الواشِي أغشُّ وأكْذَبُ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الكسوف برقم: (٢/ ١٠٤٤).

(٢) الخطي: الرماح الخطية نسبة إلى مرفأ السفن بالبحرين لأنها تباع به؛ حيث كانت تجلب إليه من الهند فتقوم بالبحرين ثم تباع للعرب، والوشيج: شجر الرماح.

(٣) ريبة: شك ومستراد: موضع طلب الرزق مأخوذ من راد الكلأ أي: طلبه، ملوك وإخوان: أراد بهم آل جفنة من الغساسنة.

ولكنَّنِي كنتُ امرءًا ليَ جانبٌ   من الأرضِ فيهِ مُسْتَرَادٌ ومذهبُ

ملوكٌ وإخوانٌ إذا ما مَدَحْتُهُمْ   أُحَكَّمُ في أموالهِمْ وَأُقَرَّبُ

كفِعْلِكَ في قومٍ أراكَ اصْطَفَيْتَهُمْ   فَلَمْ تَرَهُمْ في مَدْحِهِمْ لكَ أَذْنَبُوا

فالنابغة يدعم اعتذاره للنعمان بالحجج والبراهين التي لا تدع شيئًا من الغضب والنكير إلا أتت عليه إذ يقول له: ليس من العدل التفرقة في الحكم بين مدح ومدح، فأنت أحسنت إلى قوم واصطفيتهم فمدحوك، وأنا أحسن إلى قوم فمدحتهم فكما أن مدح هؤلاء لك لا يعد ذنبًا، فكذلك مدحي لمن أحسن إلي وقربني لا يعد ذنبا...

وقول أبي تمام في مدح المعتصم واستنهاضه لمناجزة الحرب وألا يعول على كلام المنجمين:

دَعِ النُّجُومَ لِطُرَقِيٍّ يَعِيشُ بِهَا   وبالعزائِمِ فانهَضْ أيُّهَا الْمَلِكُ

إن النبيَّ وأَصْحَابَ النبيَّ نَهُوا   عن النجومِ وقدْ أبصرتَ ما مَلَكُوا

فأبوا تمام يرشده إلى فعل النبيﷺ ونهيه عن التنجيم وعن تصديق المنجمين، وقد امتثل الصحابة فملكوا الدنيا وقد أبصرت ما ملكوا، فينبغي عليك الاقتداء بهم وألا تركن لأقوال المنجمين وأكاذيبهم...

ومنه ما يروى أن أبا دلف العجلي قصده شاعر من بني تميم فقال له: ممن أنت؟ قال: من تميم؟ فقال له أبو دلف.

تَمِيمٌ بِطُرُقِ اللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ الْقَطَا   وَلَوْ سَلَكَتْ سُبُلَ الهِدَايَةَ ضَلَّتِ

فقال له التميمي: "بتلك الهداية جئت إليك"، وقد أفحمه بذلك، لأنه إذا كان التميمي لا يسلك سبيل الهداية إلا وضل، وقد سلك الطرق وجاء إليه، فالمجيء إليه إذًا ضلال.

ومنه قول أحد شعراء الأندلس:

لـــو يكـــونُ الحـــبُّ وَصْـــلاً كُلُّـــهُ لمْ تكُـــنْ غَايَتُـــهُ إلاالملَـــلْ
أو يكـــوُنُ الحـــبُّ هَجْـــرًا كلُّـــهُ لمْ تَكُـــنْ غايتُـــهُ إلا الأجَـــلْ
إنَّـــما الْوَصْـــلُ كَمِثْـــل المـــاءِ لا يُـــسْتَطَابُ المـــاءُ إلا بالعَلَـــلْ

فقد قاس الوصل على الماء، فكما أن الماء لا يستطاب إلا بعد العطش، فالوصل مثله لا يستطاب إلا بعد حرارة الهجر.

وبهذا يتضح لنا أن هذا اللون والذي عرف باسم (المذهب الكلامي) يعتمد على سوق البراهين والحجج وعرض الأدلة وإيراد التعليلات الحقيقية للأحكام والدعاوى والقضايا الأدبية التي يعرض لها الأديب، وبقدر ما تكون هذه البراهين وتلك العلل أقرب إلى المنطق والعقل بقدر ما تكون بلاغة هذا الأسلوب وقوة تأثيره.

ما الفرق بين المذهب الكلام وحسن التعليل؟

وكما رأينا فالمذهب الكلامي مبني على سوق الأدلة والعلل، وحسن التعليل أيضًا قائم على إيراد التعليلات الحسنة، ولكنهما يختلفان في نوع العلة المساقة، فالتعليلات في (المذهب الكلامي) تعليلات حقيقية قائمة على العقل والمنطق- كما رأينا في شواهده المذكورة- أما التعليلات في (حسن التعليل)، فهي تعليلات خيالية، قائمة على التصور والتخييل، كما سنرى في دراستنا لهذا اللون.

***

الرجوع

وهو أن يعود المتكلم إلى كلام ذكره فينقضه لنكتة بلاغية كما في قول زهير بن أبي سلمى:

قِفْ بالديارِ الَّتِي لمْ يَعْفُهَا الْقِدَمُ   بَلَى وَغَيَّرَهَا الأرواحُ والدِّيَمُ[١]

فقد ذكر في صدر البيت أن تطاول الزمن وتقادم العهد لم يغير من هذه الديار فهي ما تزال شاخصة ماثلة كعهده بها أيام كان يعمرها الأحبة، ثم عاد في عجز البيت إلى هذا الكلام فنقضه وأبطله، وأثبت أن القدم قد عفاها، وأن الرياح والأمطار قد غيرتها، وسر هذا الصنيع هو تصوير الكآبة والحزن، والألم والدهشة، والحيرة التي سيطرت على عقله، واستولت على فكره، فدفعته إلى الإخبار أولاً بما لا تقره الحقيقة فلما ثاب إلى رشده، تدارك كلامه وصحح مقاله...

ومثله قول حسان:

لاَ أَسْرِقُ الشُّعَرَاءَ مَا نَطَقُوا   بَلْ لا يُوَافِقُ شِعْرَهُمْ شِعْرِي

ذكر أولاً أنه لا يتأثر بمن سبقه من الشعراء وهذا معنى قوله: "لا أسرق الشعراء ما نطقوا" ثم رجع فذكر أنه يتأثر بهم وبما قالوه من شعر ولكن لا يوافق شعره شعرهم...

وسر هذا الصنيع هو الفخر بشعره وإبراز قوته وأصالته وتفوقه على غيره من الشعر، فقد دفعه هذا إلى نفي التأثر، ولما عاد إلى عقله وفكره وأدرك أن التأثر واقع لا محالة؛ حيث لم يترك السابق للاحق شيئًا، كما يقول عنترة:

ما أرانَا نقولُ إلا مُعَارًا   أو مُعَادًا من قوْلِنَا مَكْرُورًا

عندما أدرك ذلك عاد إلى كلامه السابق فنقضه مصححًا له ومثبتًا وقوع التأثر ولكن على الرغم من وقوعه فشعره هو الأقوى والأفصح: "لا يوافق شعرهم شعري".

---

(١) يعفوها: يبليها ويغيرها، الأرواح: جمع ريح برد يائها في الجمع فأصل ريح روح، والديم: جمع ديمة وهي السحابة الكثيرة المطر.

ومنه قول الآخر:

أَلَـيسَ قلـيلاً نظـرةٌ إنْ نَظَرْتُهَـا إليـكِ وكـلاً لـيسَ مِنْـكِ قَلِيـلُ

فقد ذكر أن نظرة منه إليها تعد قليلة فهي لا تشفى غليله ولا تروي ظمأه، ثم عاد فنقض ذلك وأبطله، وذكر أن ما تسمح به وتجود، ويقع منها، لا يعد قليلاً، ولو كان قليلاً، وسر هذا الرجوع هو تحيره واضطرابه، وفرط حبه لها وهيامه بها، فقد دفعه ذلك إلى ذكر أن النظرة إليها لا تكفي ولا تشفي، فلما ثاب لرشده وعاد لعقله وأدرك إباءها وتمنعها، عاد إلى كلامه السابق فنقضه وصححه وأثبت أن القليل منها يعد كثيرًا...

فإذا لم يكن الرجوع لنكتة بلاغية، بل لمجرد تصحيح خطأ وقع من المتكلم، كقولنا: أنفقت ثلاثين بل خمسين درهمًا، فلا يعد ذلك من الرجوع البلاغي.

***

المزاوجة

وهي أن يزاوج المتكلم بين معنيين واقعين في الشرط والجزاء وذلك بأن يرتب على كل منهما معنى واحدًا... ففي قول البحتري مادحًا المتوكل عندما أصلح بين بني تغلب:

وفرسـانُ هيجـاءَ تجـيشُ صُـدُورُهَا بأحقادِهَـا حَتَّـى تَـضِيقَ دُرُوعُهَـا

إذا احْتَرَبَـتْ يومًـا ففاضَـتْ دماؤُهَـا تَـذَكَّرَتِ القُرْبَـى فَفَاضَـتْ دُمُوعُهَـا

زاوج بين (احترابهم) الواقع شرطًا، وبين (تذكرهم القربى) الواقع جزاء حيث رتب على كل منهما إفاضة شيء، فقد ترتب على احترابهم إفاضة الدماء، وترتب على تذكرهم القربى إفاضة الدموع.

ومنها قوله أيضًا:

عـلى أنهَـا مَـا عنـدَهَا لِـمُواصِلٍ وِصَـالٌ ولا عِنْـدَهَا لِمُـصْطَبِرٍ صَـبْرُ

إذا مـا نهَـى النَّـاهِي فلـجَّ بيَ الهـوَى أصـاخَتْ إلى الـواشِي فلجَّ بها الْـهَجْرُ

فقد زاوج بين (نهى الناهي) الواقع شرطًا، وبين (إصاختها إلى الواشي) الواقع جوابًا؛ إذ رتب على كل منهما (لجاج شيء) فلجاج الهوى مرتب على نهي الناهي له عن حبها، ولجاج الهجر مرتب على إصاختها إلى وشي الواشي...

ومنها قول الآخر:

إذا مَا بَدَتْ فَازْدَادَ منهَا جمَالهُا نَظَرْتَ لهَا فَازْدَادَ مِنِّي غرَامُهَا

رتب على كل من الشرط والجزاء زيادة شيء، فازدياد جمالها مرتب على ظهورها، وازدياد غرامه بها مرتب على نظره لها عند بدوها.

سر بلاغة المزاوجة

ويكمن سر بلاغة المزاوجة فيما فيها من المفاجأة، ومواجهة المخاطب بغير ما يترقب، وملاقاته بغير ما ينتظر ويتوقع، فمثلاً في قول البحتري السابق:

إذا مَا نَهَى النَّاهِي فلجَّ بيَ الهُوَى أصاخَتْ إلى الواشِي فلجَّ بهَا الْهَجْرُ

عندما يقف المخاطب على حال العاشق وأنه لا يستجيب لنهي الناهي له عن حبها، بل يتمكن الحب في نفسه ويشتد ثباته، ويلج به الهوى... عندما يقف على هذه الحال يتوقع أن يكون المعشوق كذلك، وأن الغرام بينهما متبادل، والحب سواء، ولكنه يفاجأ بأنها تمعن في هجر عاشقها وتسرف في قطيعته وتصغي للواشي.

فالمخاطب عندما يسمع (لج بها) يتوقع أن يكون الذي لج بها (هوى) وهو ما لج بصاحبها، حتى يتواءما في الحب، ويستويا في الصبابة والغرام، وعندما يقف على متعلق (لج) وهو (الهجر) يعلم أنه ليس من نوع ما لج بعاشقها، ومن ثم كان لقاء المخاطب بغير ما يتوقع... وما من شك في أن مفاجأة المخاطب ولقاءه بغير ما ينتظر مما يؤثر في النفس ويؤكد المعاني ويزيدها رسوخًا في الأذهان واستقرارًا في الوجدان.

***

الهزل يراد به الجد

هو ذكر الشيء على سبيل الهزل والمداعبة، واللعب، والممازحة، ويقصد به أمر صحيح ومعنى جاد، كما في قول أبي نواس يهجو تميمًا:

إذَا مَا تميميٌّ أتاكَ مُفَاخِرًا   فقُلْ عَدِّ عن ذَا كَيْفَ أَكْلُكَ للضَّبِّ

فالضب حيوان صغير ذنبه كثير التعقد، وكان أشراف العرب يعافون أكله، فعندما يأتي التميمي مفتخرًا، وتقول له: دع هذا الافتخار، كيف تفتخر وأنت تأكل الضب؟ تكون بهذا قد هجوته بأسلوب ظاهره الهزل والمزاح، وإذا صار الهزل طريقًا للجد كان أوجع في الهجاء وأبلغ في الإقذاع والإيلام...

ومثله قول جرير في هجاء تغلب:

والتَّغْلِبِيُّ إذا تَنَحْنَحَ للقِرَى   حَكَّ استَهُ وتمثَّلَ الأمثَالاَ

فقد سلك في الهجاء أسلوب الهزل: "تنحنح... حك استه" ولذا كان أقوى إيجاعًا وأشد إيلامًا...

وقوله في هجاء الفرزدق:

لهَا بَرَصٌ بِجَانِبِ أَسْكُتَيْهَا   كَعَنْفَقَةِ الفرزدقِ حينَ شَابَا

ونحوه قول الآخر:

وإذا أشَارَ محدثًا فكأنَّهُ   قِرْدٌ يُقَهْقِهُ أو عجوزٌ تلطُمُ

فقد سلك كل منهما في الهجاء مسلك المزاح والهزل، فكان أقوى إيلامًا وأشد إيجاعًا.

ومنه قول امرئ القيس:

أَيَقْتُلُنِي وَالمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي   وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوالِ

وقد علِمَتْ سلمَى -وإن كانَ بعلَهَا-   بأنَّ الْفَتَى يهْذِي وليس بِفَعَّالِ

سلك سبيل الهزل في هجاء بعلها بقوله: "بأن الفتى يهذي وليس بفعال"، وهذا أشد في تصوير ضعفه وأبلغ في الاستخفاف والاستهزاء به.

بلاغة هذا الأسلوب

وتكمن بلاغة هذا الأسلوب في أن الهزل إذا صار طريقًا للجد كان أبلغ وأقوى في تصوير المعنى وإبرازه من أن يقصد إلى الجد رأسًا؛ كما هو واضح في الشواهد المذكورة.

الفرق بينه وبين أسلوب التهكم

أسلوب "الهزل يراد به الجد" ظاهره -كما قلنا- هزل ومزاح والمقصود منه معنى صحيح وأمر جاد... أما أسلوب التهكم فظاهره جد وباطنه تهكم أو مزاح... كقول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٩]، فظاهر الآية الجد، والمراد منها: التهكم والسخرية، وكما تقول لصديقك البخيل: "تصدق علينا وجد فأنت حاتم" فظاهر كلامك الجد، ومرادك منه الهزل والمزاح... ولذا فالأسلوبان متناقضان.

***

حسن التعليل

وهو أن يدعي المتكلم علة للشيء غير علته الحقيقية على جهة الاستطراف لتحقيقه وتقريره... وذلك لأن الشيء إذا كان معللاً كان آكد في النفس وأرسخ من إثباته مجردًا عن التعليل.

ففي قول ابن الرومي:

لِمَا تُؤْذِنُ الدنيَا بِهِ من صُرُوفِهَا ... يكونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ ساعةَ يُولَدُ
وإلاَّ فمَا يُبْكِيهِ منهَا وإنَّهَا ... لأَرْحَبُ ممَّا كانَ فيهِ وأرغَدُ

نراه قد علل بكاء الطفل ساعة مولده بما تؤذن الدنيا به من صروفها، وبالعناء الذي سيلقاه هذا المولود في حياته، وتلك علة خيالية التمسها الشاعر لظاهرة البكاء لحظة ميلاد الطفل، وهي تعبر عن نفسية الشاعر وحياته وتشاؤمه المعهود؛ إذ ربط بين آلام الحياة وصروف الدهر وبين بكاء الطفل ساعة المولد، ولا شأن للطفل بهذه المتاعب، وإنما هي نظرة ابن الرومي المتشائمة للحياة...

ونرى أحد شعراء الأندلس يعلل بكاء الطفل عند مولده تعليلاً آخر يختلف عن تعليل ابن الرومي، إذ يقول مهنئًا بمولود:

لمْ يَسْتَهِلَّ بُكًا ولكِنْ مُنْكِرًا ... أنْ لمْ تُعَدَّ لَهُ الدُّرُوعُ لفائِفَا

فقد علله بأن الطفل ينكر لفائفه المعتادة ويريدها دروعًا وسيوفًا، وكأن الشاعر يتنبأ بما سيكون عليه الطفل من الشجاعة والقوة وهذا يناسب المقام، مقام التهنئة بالمولود...

وانظر إلى قول أبي العلاء المعري في رثاء أبي إبراهيم العلوي معللاً كلفة البدر:

ومَا كُلْفَةُ الْبَدْرِ الْمُنيرِ قديمةٌ ... ولكنَّهَا في وجْهِهِ أثَرُ اللَّطْمِ

وقول ابن القيسراني معللاً كلفة البدر أيضًا:

وَأهْوَى الَّذِي أَهْوَى لَهُ الْبَدْرُ ساجِدًا ... أَلَسْتَ تَرَى في وَجْهِهِ أثَرَ التُّرْبِ

تجد اختلافًا في التعليلين حيث عللها الأول بأثر اللطم، وعللها الثاني بسجود البدر لمن أحبه وهواه، وقد ناسب ذلك المقام في كل؛ إذ المقام الأول مقام رثاء، والمقام الثاني مقام حب وغزل...

هذا وينبغي أن نفرق بين التعليل العلمي والتعليل الأدبي، فالتعليل العلمي مبني على الحقائق الثابتة والتجارب المعملية، أما التعليل الأدبي فمبني على الخيال والتماس علل غير العلل الحقيقية للأشياء وهذه العلل الخيالية تكون لأغراض متعددة كالمبالغة في المديح وكإدخال السرور على الممدوح ونحو ذلك، وينبغي أن تكون ملائمة للمقام وغير متنافية مع الذوق والآداب الإسلامية، وإلا كانت سوء تعليل لا حسن تعليل، كما في قول ابن هانئ الأندلسي:

ولو لمْ تُصَافِحْ رِجْلُهَا صَفْحَةَ الثَّرَى ... لمَا كُنْتُ أدْرِي عِلَّةً لِلتَّيَمُّمِ

فقد علل التيمم بما يتنافي مع آداب الإسلام إذ جعل علته مصافحة رجل الفتاة للثرى الذي يكون به التيمم.

وقد رأينا كيف جاء تعليل ابن الرومي بكاء الطفل ساعد يولد غير ملائم للمقام، مقام التهنئة بالمولود، ومرد ذلك إلى نظرته المتشائمة كما ذكرنا.

صور حسن التعليل

وقد نظر البلاغيون إلى الشيء المعلل، وهل توجد له علة حقيقية؟ أم لا توجد له علة؟ وإذا وجدت هل ينظر الناس إليها ويسألون عنها أم لا؟ وهل هذا الشيء المعلل وصف ثابت أم غير ثابت؟ وإذا لم يكن ثابتًا فهل هو ممكن، بمعنى أن العرف والعادة يقضيان بإمكان وجوده؟ أم أنه غير ممكن؟... وبناء على هذه النظرات ذكروا لحسن التعليل أربع صور:

الأولى: أن يكون التعليل لشيء ثابت لا تظهر له علة حقيقية أو لا يسأل الناس عادة عن علته نحو الزلازل وسقوط الأمطار والكسوف والخسوف والرياح ونحو ذلك من الظواهر الطبيعية الكونية...

من ذلك قول أحد الشعراء، وقد حدث زلزال في مصر عندما تولى كافور الإخشيدي أمرها فتطير بسببه الناس:

مَا زُلزِلَتْ مصرُ من كيدٍ يُرادُ بِهَا ... لكنَّهَا رَقَصَتْ من عَدْلِهِ فَرَحَا

فقد علل حدوث الزلزال بأن الأرض ترقص فرحًا بعدل كافور؛ والناس عادة لا يسألون عن علة الزلازل...

ومنه قول المتنبي:

لم تَحْكِ نائَلَكَ السَّحَابُ وإنَّمَا ... حُمَّتْ بِهِ فَصَبِيُهَا الرُّحَضَاءُ(١)

فالناس عادة لا يسألون عن علة المطر ولا ينظرون إليها وقد جعلها المتنبي، ما حصل للسحاب من الحمى بسبب عدم محاكاته لعطاء الممدوح.

ومنه قول أبي هلال العسكري:

زَعَمَ الْبَنَفْسَجُ أنَّهُ كَعِذَارِهِ ... حُسْنًا فَسَلُّوا من قَفَاهُ لِسانَهُ(٢)

ففي البنفسج زائدة تحت ورقه لا يظهر لوجودها علة وقد علل أبو هلال

---

(١) تحكي: تشابه، والنائل: العطاء، وحمت: أصيبت بالحمى، والصبيب: ما صب من المطر. والرحضاء: عرق الحمى.

(٢) العذار: بكسر العين هو أول ما يبدو من الشعر على خد الغلام.

وجودها بأنها كاللسان له وقد سل من قفاه عقابًا له على زعمه أنه يشبه عذار الغلام حسنًا...

وقول الشاعر يعلل البياض في جبين الفرس وفي قوائمه:

فكأنَّما لَطَمَ الصَّبَاحُ جَبِينَهُ ... فَاقْتَصَّ منهُ فَخَاضَ في أَحْشَائِهِ

فهو يصور معركة نشبت بين الصباح والفرس، قد بدأها الصباح فلطم جبين الفرس، ولكن الفرس لم يسكت بل ثأر من الصباح، فطرحه أرضًا وخاض بقوائمه في أحشائه، وكان نتيجة هذه المعركة أن ابيضت قوائم الفرس وابيض جبينه، فهو يعلل بياض جبهة الفرس بلطم الصباح له، ويعلل بياض قوائمه بخوضه في أحشاء الصباح... وهذا البياض مما لا يسأل الناس عنه ولا ينظرون إلى علته.

وقول الآخر معللاً ظهور البدر ثم اختفاءه في السحاب:

أرَى بدرَ السَّمَاءِ يَلُوحُ حِينًا ... ويبدُو ثُمَّ يَلْتَحِفُ السَّحَابَا
وذاكَ لأنَّهُ لما تَبَدَّى ... وأبصرَ وجْهَكَ اسْتَحْيَى وغَابَا

فبدو البدر ثم اختفاؤه لا ينظر الناس إلى علته ولا يسألون عن سببه، ولكن الشاعر يعلله بهذا التعليل الطريف وغرضه من ذلك أن يدخل السرور على المخاطب ويؤثر في وجدانه بالتظرف في مدحه والتلطف في الثناء عليه...

الثانية: أن يكون التعليل لشيء ثابت تظهر له علة حقيقية فيتغاضى الشاعر عنها ويثبت له علة خيالية فيها جدة وطرافة وذلك لتقرير هذا الشيء وتحقيقه كما في قول المتنبي:

مَا بِهِ قَتْلُ أعادِيهِ ولكنْ ... يَتَّقِي إخْلاَفَ مَا تَرْجُو الذِّئَابُ

فقتل الأعادي له علة حقيقية وهي إرادة إهلاكهم ودفع مضارهم حتى تأمن النفوس منازعتهم، ولكن المتنبي تغاضى عن هذه العلة وذكر مكانها علة خيالية وهي تمكن الكرم من نفس ممدوحه حتى صار يتقى أن يخيب رجاء الذئاب التي خرجت ترقبه وتنظر اتساع أرزاقها من قتلى أعاديه...

وقول أبي تمام:

لاَ تُنْكِرِي عُطْلَ الكريمِ من الْغِنَى ... فالسَّيْلُ حَرْبٌ للمكانِ الْعَالِي

فقد علل عطل الكريم من الأموال بالقياس على عدم إصابة السيل الأماكن العالية واستقراره عندها إذ يتركها منحدرًا إلى ما دونها من الأماكن الهابطة، وعطل الكريم له علة حقيقية وهي جوده بالأموال، وكثرة إنفاقه.

ومنه قول الآخر:

مُغْرَمٌ بِالثَّنَاءِ صَبٌّ بِكَسْبِ ... المجدِ يهْتَزُّ للسَّمَاحِ ارْتِيَاحَا

لاَ يَذُوقُ الإِغْفَاءَ إلا رجاءَ ... أنْ يَرى طَيْفَ مُسْتَمِيحٍ رواحَا(١)

فالإغفاء له علة حقيقية وهي راحة البدن ولكن الشاعر لم يلتفت إليها وذكر أنه ينام ليرى طيف طالبي العطاء وقد قيده بالرواح ليشير إلى أن العفاة إنما يحضرون في صدر النهار على عادة الملوك، فإذا كان الرواح قلوا، فهو يشتاق إليهم فينام ليأنس برؤية طيفهم...

ونحوه قول الآخر:

وإنِّي لأَسْتَغْشِي وما بيَ نَعْسَةٌ ... لعلَّ خيالاً مِنْكِ يلقَى خيالِيَا

ومن لطيف هذا الضرب قول ابن المعتز:

قالُوا اشتكَتْ عينُهُ فَقُلْتُ لَهُمْ ... مِنْ كَثْرَةِ الْقَتْلِ نَالهَا الْوَصَبُ

حُمْرَتُهَا من دماءِ مَنْ قتَلَتْ ... والدَّمُ في النَّصْلِ شاهِدٌ عَجَبُ(٢)

---

(١) مغرم: مولع. والصب: ذو الولع الشديد، والسماح: الجود... والإغفاء: النوم الخفيف. والمستميح: طالب العطاء... والرواح: العشي.

(٢) الوصب: المرض. والنصل: يطلق على السيف وقد استعير للعين لأنها تقتل مثله، والمراد بقتل العين: نظراتها القاتلة للأحبة.

وقول الآخر:

تقـــولُ وفي قَوْلِهَـــا حِـــشْمَةٌ أَتَبْكِـــي بِعَـــيْنٍ تَـــرَاني بِهَـــا
فقلـــتُ إذا اسْتَحْـــسَنَتْ غـــيرَكُمُ أَمَـــرْتُ الـــدُّمُوعَ بِتَأْديبِهَـــا[١]

فالعلة الحقيقية لحمرة العين: الرمد، وللبكاء: أسبابه من فقد حبيب أو حلول مكروه، ولم يعتد الشاعران بهذين التعليلين، بل علل ابن المعتز حمرة العين بدماء من قتلت من العشاق، وعلل الآخر البكاء بتأديب العين لاستحسانها غير الحبيب.

الثالثة: أن يكون التعليل لشيء غير ثابت يريد المتكلم إثباته وهو ممكن وليس محالا... كما في قول مسلم بن الوليد:

يـــا وَاشِـــيًا حَـــسُنَتْ فينَـــا إســـاءَتُهُ نَجَّـى حِـذَارُكَ إنساني مـن الْغَـرَقِ[٢]

فاستحسان إساءة الواشي بوشايته شيء غير ثابت لم يقض العرف بثبوته ولم تجر العادة به ولكن قد يقع من بعض الناس فهو ممكن وليس محالاً، وقد علله الشاعر بهذه العلة الخيالية، وهي أن حذره من وشاية الواشي منعه من البكاء، فلم يغرق إنسان عينه بالدموع...

ومثله قول الآخر:

وِلقـــد هَمَمْـــتُ بِقَتْلِهَـــا مـــن حبِّهَـــا كـــيمَا تكـــونَ خَـــصِيمَتِي في الْمَحْـــشَرِ
حتَّـــى يَطُـــولَ عـــلى الـــصِّرَاطِ وُقُوفُنَـــا فَتَلَـــذُّ عَيْنِـــي مـــنْ لَذِيـــذِ الْمَـــنْظَرِ

فقد ادعى أمرًا غير ثابت ولا معتاد ولكنه ممكن، ألا وهو هم العاشق بقتل حبيبه، ولذا علله بطول الوقوف معها للمخاصمة يوم المحشر على الصراط فتلذ عينه من منظرها اللذيذ.

الرابعة: أن يكون التعليل لشيء غير ثابت وغير ممكن...

---

(١) الحشمة: الغضب أو الاستحياء.

(٢) الواشي: الساعي بالفساد، وإنساني: المراد إنسان عينه.

كما في قول القائل:

لو لم تكن نِيَّةُ الجَوْزَاءِ خِدْمَتُهُ ... لمَا رأيتَ عليهَا عِقْدَ مُنْتَطِقِ (١)

فنية الجوزاء خدمة الممدوح أمر غير ثابت وغير ممكن الحدوث، وقد أراد الشاعر إثباته فعلله بانتطاق الجوزاء أي بوجود الكواكب حولها فيما يشبه النطاق، وهو ما يسمى نطاق الجوزاء فكأنها تأهبت لخدمة الممدوح.

ما يلحق بحسن التعليل

ويلحق بحسن التعليل ما بنيت فيه العلة على الشك لا على اليقين والإصرار... كما في قول أبي تمام:

رُبيً شَفَعَتْ رِيحُ الصَّبَا لِرِيَاضِهَا ... إلى الْمُزْنِ حَتَّى جَادَهَا وهو هَامِعُ

كأنَّ السَّحَابَ الْغُرَّ غَيَّبْنَ تحتَهَا ... حَبِيبًا فمَا ترقَا لَهُنَّ مَدَامِعُ (٢)

فقد علل هطول الأمطار على الربى بأن السحاب الغر كأنها قد دفنت حبيبًا تحت تلك الربى هي تبكيه دائمًا... وقد ألحق هذا بحسن التعليل لأن الشاعر لم يبنه على اليقين والإصرار، بل بناه على الشك فقال: "كأن".

ومثله قول المتنبي:

رَحَلَ الْعَزَاءُ بِرِحْلَتِي فكأَنَّني ... أَتْبَعْتُهُ الأَنْفَاسَ للتَّشْيِيعِ (٣)

يخبر المتنبي بأن العزاء وهو الصبر قد رحل عنه بارتحاله عن محبوبه، ثم يعلل تلك الأنفاس التي تصعد منه، بأنه قد أتبعها العزاء الذي رحل عنه بارتحاله عن محبوبه -أتبعها إياه- لتشيعه وتودعه، والأنفاس إنما تصعد في العادة للتحسر والتألم لا للتشييع ولم يجعل من حسن التعليل بل عد ملحقًا به لبنائه على الشك دون الإصرار.

---

(١) الجوزاء: برج فلكي حوله نجوم تسمى نطاق الجوزاء والمنتطق: ذو النطاق وهو ما يشد في الوسط وقد يكون مرصعًا بالجواهر كالعقد.

(٢) الربى: جمع ربوة وهي ما ارتفع من الأرض: والصبا: ريح تهب من الشرق... والمزن: واحده مزنة وهي السحاب الأبيض، والهامع: السائل بكثرة. وجادها: أمطرها، والغر: السحاب الممطر الغزير الماء. وترقأ: تسكن.

(٣) التشييع: التوديع، والمعنى: رحل عني العزاء بارتحالي عنك فكأني ودعته، والعزاء: الصبر.

ابتداء الكلام

نبه البلاغيون إلى أن المتكلم ينبغي له أن يتأنق في ثلاثة مواضع من كلامه... في ابتداء الكلام... وعند الانتقال من معنى إلى معنى آخر أو استتباع معنى لمعنى أو إدماج معنيين، أو اقتباس من القرآن والحديث، أو التضمين من كلام الغير... وعد انتهاء الكلام... فإذا لم يتأنق في تلك المواضع، بدا كلامه قبيحًا وعابه الناس ورفضوه وانصرفوا عنه... ومعنى تأنقه أن يبدو كلامه أعذب لفظًا وأحسن نظمًا وأصح معنى وأكثر مطابقة لمقتضى الحال... وعندما نتأمل ابتداءات الكلام نجد أنها تأتي على صور ثلاث وهي:

١ - **حسن الابتداء**: إذا انتقى المتكلم لابتداء كلامه الألفاظ العذبة، الخالية من الثقل والتنافر، وتخير النظم الأجود، البعيد عن التعقيد، وأتى بالمعنى الصحيح، المطابق لمقتضى الحال، وصف ابتداؤه عندئذ بالحسن، وكان ذلك داعيًا إلى أن يقبل المخاطب إلى جميع كلامه فيصغي إليه ويتأمله ويعيه... أما إذا لم يبتدئ ابتداء حسنًا، فإن المخاطب ينفر منه ويعرض عن جميع كلامه فلا يتأمله، ولو كان في غاية الحسن والبلاغة.

فمن الابتداءات الحسنة قول النابغة الذبياني:

كِلِينِي لِهَمٍّ يا أميمةُ ناصبِ وليلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ

وقول امرئ القيس:

قِفَا نبكِ مِنْ ذكرَى حبيبٍ ومنزلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بينَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فقد ابتدأ كل منهما ابتداء حسنًا يلائم حال الحزن والتألم، ولكن النابغة فاق امرأ القيس في هذا الحسن فامرؤ القيس وقف واستوقف، وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل في نصف بيت عذب اللفظ سهل النظم، ثم لم يتفق له ذلك في النصف الثاني، بل أتى بمعان قليلة في ألفاظ غريبة فباين الأول[1]...

(١) انظر المطول ٤٧٨.

أما النابغة، فإن بيته وإن كان أقل معنى إلا أن شطريه متناسبان وألفاظه متلائمة لا غرابة فيها...

ومن ذلك قول المتنبي في ذكر فراقه لسيف الدولة وقصده كافور الإخشيدي:

فِراقٌ ومَنْ فارقتُ غيرُ مُذَمَّمِ وَأَمٌّ ومَنْ يَمَّمْتُ خَيْرُ مُيَمَّمِ

ومثله قول الآخر في وصف ألمه لفراق الأحبة:

زَمُّوا الْجِمَالَ فقلْ للعاذِلِ الجاني لا عاصمَ اليومَ من مِدْرَارِ أجفَاني

٢-**براعة الاستهلال**: وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود بأن يكون فيه إشارة إلى ما سيق الكلام من أجله، فيكون الابتداء مشعرًا بالمقصود ومنبئًا به...

من ذلك قول أبي تمام في تهنئة المعتصم بفتح عمورية، وكان أهل التنجيم قد زعموا أنها لا تفتح في ذلك الوقت:

السيفُ أصدقُ أَنْبَاءً من الْكُتُبِ في حدِّه الحدُّ بينَ الجِدِّ واللَّعِبِ

بِيضُ الصفائِحِ لا سودُ الصحَائِفِ في مُتُونهِنَّ جِلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

ومثله قول الآخر في التهنئة بمولود:

بُشْرَى فقدْ أَنْجَزَ الإِقْبَالُ مَا وَعَدَا وكَوْكَبُ المجْدِ في أُفُقِ العُلاَ صعَدَا

وقول المتنبي في التهنئة بزوال المرض وحلول الشفاء:

المجدُ عُوفِيَ إذْ عُوفِيتَ والكرمُ وزالَ عَنْكَ إلى أعدائِكَ السَّقَمُ

وقول الآخر في الرثاء:

هيَ الدنَيا تقولُ بملءِ فيهَا حذارِ حذارِ من بَطْشِي وَفَتْكِي

فلا يَغْرُرْكُمُو مِنِّي ابْتِسَامٌ فقَوْلِيَ مُضْحِكٌ والفِعْلُ مُبْكِي

ففي هذه الابتداءات بالإضافة إلى أسباب الحسن المذكورة في الصورة الأولى إشارة إلى ما سيق الكلام لأجله، وإشعار بالمقصود منه، ولذا سميت ببراعة الاستهلال.

٣-قبح الابتداء: أما إذا لم يتأنق المتكلم في ابتداء كلامه بانتقاء الألفاظ وتخير النظم الأجود، ولم يراع مقتضى الحال عد ذلك عيبًا وكان ابتداؤه ابتداءً قبيحًا يدعو إلى أن ينصرف الناس عن كلامه ويرفضوه، فمقام المديح والتهنئة مثلاً يقتضي من المتكلم أن يتجنب في ابتدائه ما يتطير به ويتشاءم منه، فإن فعل ذلك رد كلامه، كما روي أن ذا الرمة أنشد هشام بن عبد الملك، وقيل عبد الملك بن مروان قوله:

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الماءُ يَنْسَكِبُ ... كَأَنَّهُ مِنْ كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ

فقال الخليفة: بل عينك أنت، وكان بعين عبد الملك رمش فما تزال تدمع...

ويقال إن ابن مقاتل الضرير أنشد الداعي العلوي صاحب طبرستان.

-مَوْعِدُ أحبابِكَ بالفُرْقَة غدُ-

فقال له الداعي: موعد أحبابك أنت ولك المثل السوء، والفرقة: اسم موضع ولكنه يوهم فراق الأحباب ولذا تطير منه الداعي...

وروي أيضًا أنه دخل عليه في يوم مهرجان وأنشد قوله:

لاَ تَقُلْ بُشْرَى، ولكنْ بُشْرَيَانِ ... غُرَّةُ الدَّاعِي ويومُ الْمِهْرَجَانِ

فتطير لابتدائه بنفي البشرى وقال له: يا أعمى تبتدئ بهذا يوم المهرجان، وقيل بطحه وضربه خمسين عصًا، وقال: إصلاح أدبه أبلغ في ثوابه.

ومنه ما يروى أن إبراهيم بن إسحاق الموصلي دخل على المعتصم بالله وقد بنى قصره بالميدان وجلس فيه، فأنشده مادحًا ومهنئًا:

يا دارُ غَيَّرَكِ الْبِلَى ومحَاكِ ... يا ليتَ شِعْرِي ما الذي أبلاَكِ

فتطير المعتصم بهذا الابتداء وأمر بهدم القصر.

والحسن في مثل هذا قول القطامي:

إِنَّا مُحَيُّوكَ فاسْلَمْ أَيُّهَا الطَّلَلُ ... وإن بُلِيتَ وإنْ طالَتْ بِكَ الطِّيَلُ[1]

---

(١) الطيل بكسر الطاء المشددة وفتح الياء المخففة مدى الدهر.

وقول أشجع السلمي في مطلع قصيدة له في مدح الرشيد:

قَصْرٌ عليه تحيَّةٌ وسَلاَمُ   خَلَعَتْ عليهِ جمَالَهَا الأيَّامُ

***

حسن التخلص

كثيرًا ما يبتدئ المتكلم بغير الغرض المقصود من كلامه ثم ينتقل مما ابتدأ به إلى غرضه فتكون تلك البداية بمثابة التمهيد أو المقدمة، وانتقاله منها إلى غرضه المقصود يسمى خروجًا أو تخلصًا... وفي أثناء التكلم قد ينتقل المتكلم من معنى لآخر... ثم يعود للمعنى الذي انتقل منه ويسمى هذا استطرادًا... وقد يتحدث المتكلم عن معنى من المعاني ويستتبع ذلك الحديث عن معنى آخر... أو يدمج معنى في معنى، أو يضمن كلامه كلام الغير... أو يقتبس من القرآن والحديث... وعندئذ ينبغي للمتكلم أن يتأنق في خروجه، وأن يلائم في استطراده، وأن يراعي المناسبة في استتباعه أو إدماجه أو اقتباسه أو تضمينه وسنعرض لتلك الأمور مبتدئين إن شاء الله بحسن التخلص.

عرفه البلاغيون بأنه الانتقال مما ابتدئ به الكلام من تشبيب أو ذكر للديار أو وصف للخمر ونحو ذلك إلى الغرض المقصود منه الكلام مع رعاية الملاءمة بين ما ابتدئ به وما انتقل إليه، لأن المخاطب يكون مترقبًا ومنتظرًا لهذا الانتقال، فإذا ما جاء حسنًا قد روعي فيه التلاؤم، حرك من نشاطه وكان أدعى للإصغاء والمتابعة، وإن جاء بخلاف ذلك أدى إلى النفور والإعراض...

فمن التخلصات الحسنة قول أبي تمام:

يقولُ في قُومَسٍ قومِي وقدْ أخذَتْ   منَّا السُّرَى وخُطَا الْمَهْرِيَّةِ الْقُودِ

أَمَطْلَعَ الشَّمْسِ تَبْغِي أنْ تَؤُمَّ بِنَا   فقلتُ: كلاَّ ولكنْ مَطْلَعَ الجودِ(١)

حيث انتقل انتقالاً حسنًا من مطلع الشمس إلى مطلع الجود، وهو عبد الله بن طاهر الذي مدحه بهذه القصيدة...

---

(١) قومس: موضع بخراسان، السرى: السير ليلا، المهرية: الإبل، والقود: الطويلة الظهور والأعناق، وتؤم: تقصد.

وقول مسلم بن الوليد:

أجِـدَّكِ مـا تَـدْرِينَ أن رُبَّ ليلـةٍ ... كـأنَّ دُجَاهَـا مـن قُرُونِـكِ تُنْشَرُ
سَـهِرْتُ بهَـا حتـى تجَلَّـتْ بغُـرَّةٍ ... كَغُـرَّةِ يحيَـى حين يُـذْكَرُ جَعْفَـرُ (١)

حيث انتقل من النسيب إلى مدح يحيى بن جعفر انتقالاً حسنًا فقد شبه غرة الصباح الذي بدد الظلام بغرته، فكان في الانتقال من غرة الصباح إلى غرة الممدوح تلاؤم وتناسب...

وقول المتنبي:

خليـليَّ مـالِي لاَ أرَى غَـيْرَ شـاعِرٍ ... فكـمْ منهمُ الـدَّعْوَى ومنِّي القصائِدُ (٢)
فـلا تَعْجَبَـا إنَّ الـسيوفَ كثـيرةٌ ... ولكـنَّ سـيفَ الدَّوْلَـةِ اليـومَ واحـدُ

وروي بسيف الدولة عن أمير حلب، فمعناه القريب: السيف الذي يناضل به، ومعناه البعيد: أمير حلب، ولذا كان الانتقال من تفرده بالشعر إلى انفراد الممدوح بالقوة وبكونه سيف الدولة انتقالاً حسنًا متلائمًا.

وقول البحتري في مدح المتوكل:

كأنَهَـا حـينَ لَـجَّتْ في تَـدَفُّقِهَا ... يـدُ الخليفَـةِ لمَّـا سَـالَ وادِيهَـا

فقد انتقل من وصف البركة إلى المدح انتقالاً حسنًا متلائمًا حيث شبه تدفق مياهها وسيلانه بتدفق يد الخليفة بالعطاء والبذل.

الاقتضاب

فإذا لم يراع المتكلم التناسب والتلاؤم في انتقاله سمي ذلك اقتضابًا وهو مذهب الجاهليين، ومن وليهم من المخضرمين؛ إذ كانوا لا يحسنون التخلص، بل

---

(١) جد: الجد بالكسر الحقيقة وبالفتح الحظ فهو استحلاف بالحقيقة أو بالحظ ومنصوب بنزع الخافض أي: أبجدك، والقرون: خصل الشعر.

(٢) الدعوى: ادعاء الشعر.

ينتقلون من غرض لآخر بقولهم: "دع ذا" أو "عد عنه" أو "عد عما ترى" ونحو ذلك... كما في قول زهير:

فَعَدِّ عمَّا ترَى إذ فاتَ مَطْلَبُهُ   أمسَى بذاكَ غُرابُ الْبَيْنِ قدْ نَعَقَا

فقد انتقل من الغزل إلى غرضه المقصود بقوله: "عَدِّ عما ترى" فلم يحسن التخلص... وهذا لا يعني أن المتقدمين كانوا لا يراعون التناسب في انتقالهم ولا يحسنون التخلص على طول الخط، بل كان منهم من يراعي ذلك، فزهير نفسه الذي لم يحسن التخلص في البيت المذكور، نراه يحسنه في قوله:

إنَّ البخيلَ ملومٌ حيثُ كانَ ولـ   ـكنَّ الجُوَادَ على عِلاتِّهِ هَرِمُ

بل إن من المتأخرين من كان يسلك مسلك القدماء في الاقتضاب كما في قول أبي تمام:

لو رأى اللهُ أنَّ في الشَّيْبِ خيرًا   جاوَرَتْهُ الأبرارُ في الْخُلْدِ شِيبَا

كُلَّ يومٍ تُبدِي صُرُوفُ الليالِي   خُلُقًا من أبِي سَعِيدٍ غَرِيبًا

فقد انتقل إلى مدح أبي سعيد انتقالاً مقتضبًا بلا تخلص حسن.

ومن الاقتضاب ما يكون قريبًا من التخلص، كقول القائل بعد حمد الله تعالى والثناء عليه، "أما بعد" وكلفظ "هذا" كما في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص:٤٩]، وقوله عز وجل: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ [ص:٥٥]، ومنه قول الكاتب عند الانتقال من موضوع لآخر: "هذا باب... هذا فصل..."

هل يقع حسن التخلص في القرآن؟

اختلف في وقوع التخلص في القرآن الكريم، فقيل: لا يقع فيه لأنه يأتي في الغالب متكلفًا، والقرآن لا تكلف فيه، وقيل: إنه قد وقع فيه... وهذا هو الصواب، فكل من "الاقتضاب" و"التخلص"، قد وقعا في القرآن الكريم ولكن بلا تكلف، وهذا شأن جميع الفنون البلاغية في الذكر الحكيم... وقد رأينا الاقتضاب في الآيتين السابقتين... أما التخلص فكما في قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ

أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف ١-٤]، فالسورة الكريمة موضوعة لقصة يوسف -عليه السلام- وقد افتتحت بذكر القرآن، ثم انتقل بحسن تخلص من الافتتاح إلى المقصود.

***

الاستطراد

هو الانتقال من معنى إلى معنى آخر متصل به لمناسبة ثم الرجوع إلى المعنى الأول... وبهذا يتضح الفرق بينه وبين حسن التخلص، فالاستطراد يعاد فيه ثانية إلى المعنى الذي انتقل عنه، أما التخلص فهو انتقال بلا عودة كما أن الاستطراد يكون الانتقال فيه مفاجئًا للمخاطب أما الانتقال في التخلص فلا مفاجأة فيه، لأن المخاطب يترقبه وينتظره...

فمن شواهد الاستطراد قوله عز وجل: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فقد انتقل من الحديث عن آدم عليه السلام، وكيف زين الشيطان له ولزوجته تلك الشجرة ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة... ثم كان الهبوط إلى الأرض... انتقل من ذلك في الآيات السابقة إلى الحديث عن لباس التقوى في هذه الآية إظهارًا للمنة فيما خلق الله من اللباس، ولما في العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة وإشعارًا بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى(١)... ثم عادت الآيات ثانية إلى الحديث عن قصة آدم ووسوسة الشيطان له عقب هذه الآية: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ

(١) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٧٦.

لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٣- ١٦]، فقد وقع الاستطراد من وصية لقمان لابنه إلى وصيته -سبحانه وتعالى- لعباده لما بينهما من المناسبة، ثم عاد إلى ما كان عليه من وصية لقمان لابنه...

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٨، ٧٩]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾ [المزمل: ١- ٦]، فقد استطرد في الآية الأولى حيث وسط ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ بين ذكر الليل... واستطرد كذلك في الثانية حيث وسط ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ بين ذكر أوصاف الليل وبيان أحكامه.

ومن أقوالهم... قول السموءل بن عاديا:

وإنّـا لقـومٌ مـا نـرَى القتـلَ سُـبَّةً إذا مـا رأتـهُ عـامِرٌ وسَـلُولُ
يُقـرِّبُ حـبُّ المـوتِ آجـالاً لنـا وتكرهُـهُ آجالُـهُمْ فتطُـولُ

فقد استطرد من مدح قومه والفخر بأمجادهم ومآثرهم إلى هجاء قبيلتي عامر وسلول، ثم عاد بعد ذلك إلى غرضه المنشود...

وقول زياد الأعجم:

إذا مـا اتَّقـى اللهَ الفتـى وأطاعَـهُ فلـيسَ بِـهِ بـأسٌ وإن كـانَ مـن جُـرمِ

فقد استطرد من الوعظ إلى ذم قبيلة جرم ثم عاد بعد ذلك إلى غرضه المقصود من الوعظ...

بلاغة الاستطراد

وتكمن بلاغة الاستطراد فيما يحققه من عنصر المفاجأة أو المباغتة فبينما المخاطب مشغول بالمعنى المسوق له الكلام؛ إذ بالمتكلم يفاجئه بالمعنى الآخر الذي يستطرد إليه... كما ترجع بلاغة الاستطراد أيضًا إلى دفع الملل أو السأم عن السامع وبخاصة عندما يطول ويمتد الكلام في بيان الغرض المقصود منه، عندئذ قد يحتاج السامع إلى ما يدفع الملل وينشط الذهن وينبه الفكر... واقرأ في "البيان والتبيين" للجاحظ، فسترى أنه كثيرًا ما يستطرد بأن يحكي نادرة أو يعرض فائدة، أو يشير إلى حادثة ثم يعود إلى غرضه الأساسي، بعد أن يكون السامع قد استراح بهذا الاستطراد وتجدد نشاطه وتيقظ ذهنه فيصغي بدقة إلى الكلام المنشود.

هذا ولا يخلو المعنى المستطرد إليه من مزايا بلاغية يقصد إليها، كما رأيت في الشواهد المذكورة.

***

الاستتباع

الاستتباع هو المدح بشيء على وجه يستتبع المدح بشيء آخر... فهو خاص بغرض المديح وهذا هو الفرق بينه وبين "الإدماج" الآتي ذكره.

ومن شواهد الاستتباع قول المتنبي يمدح سيف الدولة:

نَهَبْتَ من الأعمارِ ما لَوْ حَوَيْتَهُ ... لَهُنِّئَتِ الدُّنَيا بأنَّك خالِدُ

فقد مدحه بأنه بلغ الغاية في الشجاعة والفتك بأعدائه إذ كثر قتلاهم بحيث لو ورث أعمار هؤلاء القتلى لخلد في الدنيا... واستتبع هذا مدحه بكونه سببًا في صلاح الدنيا ونظامها حيث جعل الدنيا مهنأة بخلوده، وهذا يقتضي اتصافه بكل صفة حميدة، فهو لم يظلم أحدًا من مقتوليه، بل قتلهم عدلاً وإصلاحًا، وعلى الرغم من أن النهب يكون للأموال، فإن سيف الدولة قد نهب أعمارهم، تلك هي التي تعنيه، فهو لم يطمع في أموال قتلاه، وإنما نهب أعمارهم حتى لا يعيثوا في الأرض مفسدين... فقد مدح المتنبي سيف الدولة بشيء على وجه استتبع مدحه بشيء آخر...

ومثله قوله في رده رسل الروم لطلب الهدنة:

إلى كـمْ تَـرُدُّ الرُّسْـلَ عـمَّا أَتَـوْا لَـهُ   كـأنَّهم فـيمَا وَهَبْـتَ مَـلاَمُ(١)

فقد مدحه بالشجاعة على وجه استتبع مدحه بالكرم لعصيانه اللوم الذين يلومونه لكثرة هباته.

***

الإدماج

أما الإدماج فهو أن يضمن كلام سيقَ لمعنى معنى آخر... فهو أعم من الاستتباع، لأن الاستتباع خاص بالمديح، أما الإدماج فيشمل المديح وغيره... ولذا فإن الأولى أن يجعلا فنًا واحدًا، وأن يدخل الاستتباع في الإدماج...

ومن شواهده قول المتنبي أيضًا:

أُقَلِّـبُ فيـهِ أجفَـاني كـأنِّي   أَعُـدُّ بِهـا عـلى الـدَّهْرِ الـذُّنُوبَا

فالبيت مسوق لوصف الليل بالطول، وقد ضمن هذا الوصف الشكاية من الدهر؛ إذ قوله: "أقلب فيه أجفاني" كناية عن طول الليل وامتداده، وهذا هو المعنى الذي سيق البيت من أجله... وقوله: "كأني أعد بها على الدهر الذنوبا" كناية عن الشكوى من الدهر، وهذا التشكي لم يسق له الكلام بل جاء ضمنًا وتابعًا للمعنى الأول.

ومثله قول ابن المعتز في وصف "الخِيرِيّ" وهو ورد أصفر اللون.

قـدْ نفـضَ العاشـقُونَ مـا صـنعَ الـْ   ـهَجْرُ بِـأَلْوَانهِم عـلى وَرَقِـهِ

فالغرض المسوق له الكلام هو وصف الورد بالصفرة وقد ضمن هذا الوصف: الحديث عن الغزل والعشاق وما يصنعه الهجر من صفرة في الوجه وتغير في اللون...

---

(١) ملام: مصدر لام يلوم، يقال: لامَهُ يَلُومُه لَوْمًا ومَلامًا ومَلامَةً ولَوْمَة فهو مليم وملوم استحق اللوم، واللُّوَّم جمع اللائم مثل راكع ورُكَّع ... انظر لسان العرب مادة: لوم.

وقول ابن نباتة:

ولابــدَّ لي مــن جَهْلَــةٍ في وِصَــالِهِ فمَــنْ لي بِخِــلٍّ أُودِعُ الحِلْــمَ عنــدَهُ

فالكلام مسوق للغزل، وقد أدمج فيه الفخر بكونه حليمًا، وكني عن هذا الفخر بالاستفهام عن وجود صاحب صالح لأن يودعه حلمه... ثم أدمج في الفخر الشكوى من الزمان وتغير الخلان، حتى لم يبق فيهم من يصلح لهذا الإيداع، وذلك بإخراج الاستفهام مخرج الإنكار... وقد نبه بهذا الإنكار وبإيثاره التعبير بلفظ "أودع" إلى أنه لم يعزم على مفارقة حلمه جملة من أجل هذا الحبيب الذي يتطلب وصله "الجهل"، وإنما سيودع حلمه لهذا المعنى، فما هي إلا جهلة أو جهلتان ثم يستعيد حلمه ويسترده ممن أودعه عنده، إن وجد خِلاً يصلح لهذا الإيداع.

ومنه نثرا ما كتبه عمرو بن مسعدة أحد ولاة العباسيين إلى الخليفة المأمون: "كَتَبْتُ كِتَابِي إلَى أَمِيرِ الْمُؤمِنِينَ -أعزَّهُ اللهُ- ومَنْ قِبَلِي منْ قُوادِهِ وَأجْنَادِهِ في الطَّاعَةِ والأَنقِيَادِ علَى أَحْسَنِ مَا يَكُونُ عَلَيْهِ طَاعَةُ جُنْدٍ تَأَخَّرَتْ أَرْزَاقُهُمْ واخْتَلَّتْ أَحْوَالُهُمْ..." فقد أدمج طلبه أرزاق الجند ورواتبهم في إخباره عن طاعتهم وانقيادهم للخليفة، وأوضح أن في تأخر تلك الأرزاق اختلالاً لأحوال الجند.

وقد أعجب الخليفة بهذا التضمين، وأخذ يردد النظر في الكتاب قائلاً لأحد الكتاب بحضرته: "ألا ترى إدماجه المسألة في الإخبار..."؟

* * *

الاقتباس

هو أن يضمن المتكلم كلامه شيئًا من القرآن الكريم أو الحديث الشريف دون أن يشعر بذلك بأن يقول "قال تعالى" أو "قال الرسول ﷺ". أو نحوه، فإن أشعر بذلك أو صرح به فلا يكون اقتباسًا، بل يكون استشهادًا أو استدلالاً.

والاقتباس يكون في الشعر كما يكون في النثر، ويجوز أن يحتفظ المقتبس بالنص القرآني أو النبوي، أو أن ينقله إلى معنى آخر، كما يجوز له أن يغير في الألفاظ المقتبسة تغييرا يسيرًا...

وما من ريب في أن الألفاظ المقتبسة من القرآن أو الحديث، تزيد الكلام قوة

وبلاغة كما تضفي عليه حسنًا وجمالاً؛ إذ تبدو وسطه كالضياء اللامع، والنور المشرق... والمتكلم عندما يقتبس يبني كلامه على الالتئام والتلاحم، وبهذا يبدو كلامه قويًا بليغًا...

ومن شواهده في الشعر قول الحماسي:

إذا رُمْتُ عنها سَلْوةً قالَ شافِعٌ   من الحبِّ: ميعادُ السُّلُوِّ المقابرُ
ستبقَى لها في مضمرِ القلبِ والحشَا   سَرِيرَةُ وُدٍّ يومَ تُبْلَى السَّرائِرُ

فقد اقتبس في الشطر الأخير من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ (٩) فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)﴾ [الطارق: ٩، ١٠]، ومنه قول أحد شعراء الأندلس:

حَرْفٌ كمثلِ الصَّاد إلا أنهَا   بعدَ السُّرى جاءَتْ كَحَرْفِ النُّونِ[1]
كَالبَدْرِ قَدَّرَهُ الإلَـهُ مَنَازِلاً   في الأُفْقِ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ

فقد اقتبس من قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]، وواضح أن الشاعر قد غير قليلاً في ألفاظ الآية الكريمة...

ومثله قول الآخر:

وَحُوشِيَ أنْ يقالَ لهَا عِتَابِي   وَمَن ذَا يُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ؟

فقد اقتبس من قوله عز وجل: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ [الروم: ٥٢].

ومنه قول ابن منذر:

قد تُقْطَعُ الرَّحِمُ الْقَرِيبُ وتُكْفَرُ النُّعْـ   ـمَى ولا كَتَقَارُبِ الْقَلْبَيْنِ
يُدْني الْهَوَى ذَا وَيُدْني ذَا الْهَوَى   فَإِذَا هُمَا نفسٌ تُرَى نفسين

---

(١) المراد بالحرف: الناقة كانت قوية نشيطة تشبه حرف الصاد، وبعد السرى أي السير ليلاً تغيرت وضعفت وتقوست فصارت تشبه حرف النون.

فقد اقتبس مع تغيير يسير في الألفاظ من أثر لعبد الله بن عباس وهو قوله: «إِنَّ الرَّحِمَ تُقْطَعُ وَإِنَّ النِّعَمَ تُكْفَرُ ولَنْ تَرَى مِثْلَ تَقَارُبِ الْقُلُوبِ»(١).

ومنه نثرا قول ابن نباتة: «فيا أيها السفلة المطرقون، أما أنتم بهذا الحديث مصدقون ما لكم لا تشفقون؟ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون».. وقول الحريري: «فلما طال أمد الانتظار ولاحت الشمس في الأطمار، قلت لأصحابي: قد تناهينا في المهلة وتمادينا في الرحلة، إلى أن أضعنا الزمان، وبان أن الرجل قدمان، فتأهبوا للظعن، ولا تلووا على خضراء الدمن».

فقد اقتبس الأول من القرآن من قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٣]، واقتبس الثاني من قول الرسول ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ»(٢)، ونلاحظ أن الحريري قد نقل ما اقتبسه إلى معنى آخر، فالمراد بخضراء الدمن في الحديث: المرأة الحسناء في المنبت السوء، والمراد بها في كلامه: سوء المخبر مع حسن المنظر مطلقًا.

ومثله شعرًا قول ابن الرومي مقتبسًا من الآية الكريمة ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧]:

لئِنْ أخطأْتُ في مَدْ حِكَ ما أخطأْتَ في مَنْعِي
لقدْ أنزلْتُ حاجَاتِي بوادٍ غيرِ ذِي زرعِ(٣)

فالمراد، بواد غير ذي زرع، في الآية مكة المكرمة وفي البيت: الرجل الذي لا نفع فيه، ولا يخفى علينا أن معرفة الاقتباس وتحديده تقتضي منا حفظ كتاب الله عز وجل وأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام، وحسن فهمهما وتدبر معانيهما...

***

(١) أثر لابن عباس: رواه البخاري في الأدب المفرد (١/ ١٠١ برقم ٢٦٢) والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٤٩٥ برقم ٩٠٣٢).

(٢) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٩٦ برقم ٩٥٧) والرامهرمزي في أمثال الحديث [١/ ١٢٠ برقم ٨٤] من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) خطأ ابن الرومي نفسه في مدح من مدحه؛ لأنه لا يستحق المدح ولم يخطئه في منعه؛ لأن مادح من لا يستحق المدح لا يستحق العطاء...

التضمين

أما التضمين فيختلف عن الاقتباس بأنه لا يكون من القرآن ولا الحديث، بل يكون من كلام آخر غيرهما، كما أنه لا يكون في النثر بل في الشعر خاصة... وقد عرفوه بقولهم: أن يضمن الشاعر نظمه شيئًا من نظم غيره، مع التنبيه عليه إن لم يكن من الأشعار المشهورة... كما في قول القاضي الفاضل مادحًا:

أيَا صالحَ الآمالِ كمْ قلتُ مُثْنِيًا إذا نحنُ أَثْنَيْنَا عليكَ بصالحِ

فقد ضمن بيته شطرًا من بيت أبي نواس:

إذا نحنُ أَثْنَيْنَا عليكَ بصالحٍ فأنتَ كما نُثْنِي وفوقَ الذي نُثْنِي

ومثله قول الحريري:

علَى أنيِّ سأنشُدُ عندَ بيعِي أضاعُونِي وأيَّ فَتًى أضاعُوا

فالمصراع الأخير في البيت مأخوذ من بيت العرجي:

أضاعُوني وأيَّ فتًى أضاعُوا ليومِ كَرِيهَةٍ وسَدَادِ ثَغْرِ

هذا وقد يقتضي اختلاف المعنى أن يبدل الشاعر ويغير تغييرًا يسيرًا في ألفاظ التضمين... على نحو ما نرى في قول أحدهم يصف يهوديًا أقرع:

أقولُ لِمَعْشَرٍ غَلَطُوا وغَضُّوا عن الشيخِ الرشيدِ وأنكَروهُ

هو ابنُ جلا وطَلاَّعُ الثَّنَايَا متى يضعِ العِمَامَةَ تعرِفُوهُ

فالبيت الثاني من قول سحيم:

أنَا ابنُ جلاَ وطَلاَّعُ الثَّنَايَا متى أَضَعِ العِمَامَةَ تَعْرِفُوني

وقد غير في ألفاظه تغييرًا يسيرًا -كما هو واضح- اقتضاه اختلاف المعنى في البيتين، إذ "جلا" في البيت الأول صفة للشعر، يقال: شعر جلا أي: زال وانمحى، وفي الثاني صفة للرجل، يقال: رجلا جلا بمعنى: كشف الأمور وأوضحها وجلاها، و"الثنايا" في البيت الأول المراد بها: مقدم أسنانه، لأنها كانت بارزة، وفي الثاني تعني الطرق الصعبة...

و"العمامة" في الأول، عمامة الرأس متى وضعها عن رأسه بدا داء الثعلب أي القراع...

وفي الثاني: عمامة الحرب أي: البيضة، فهو متى وضعها على رأسه عرفوا شجاعته...

وبهذا يتضح اختلاف معنى البيتين، وقد اقتضى هذا الاختلاف تغييرًا يسيرًا في ألفاظ التضمين كما ترى...

هذا والتضمين إذا قل بأن كان مصراعًا فما دونه سمي رفوًا أو إيداعًا، وإن زاد عن مصراع سمي استعانة...

وقد يعمد الأديب إلى النص القرآني أو إلى الحديث النبوي أو إلى النثر الجيد فينظمه، ويسمى هذا عقدًا، فإن كان العقد من القرآن أو الحديث فينبغي على الأديب أن يغير فيهما تغييرًا كثيرًا، أو يشير إلى أنه منهما، وإلا كان اقتباسًا... كما أنه قد يعمد إلى النظم فينثره نثرًا جيدًا ويسمى هذا حلاً[١].

***

التلميح

وعندما يذكر الاقتباس أو التضمين يتطرق إلى الذهن معنى "التلميح" فهو قريب منهما... وقد عرفوه بقولهم: "أن يشير الشاعر أو الناثر إلى قصة أو مثل أو شعر دون أن يورد ألفاظه"...

ومثاله قول ابن حزم الأندلسي:

لئنْ أصبحتُ مرتحلاً بشخصي … فروحِي عندكم أبدًا مقيمُ

ولكن للعيَانِ لطيفُ معنًى … لهُ سألَ المعاينَةَ الكليمُ

فهو يشير إلى طلب موسى -عليه السلام- الرؤية وهو ما جاء في قول رب العزة والجلال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

(١) ارجع إلى الإيضاح جـ ٤ ص ١٣٨ وما بعدها.

ومنه قول أبي تمام:

فَرُدَّتْ علينَا الشمسُ والليلُ راغمٌ   بشمْسٍ لَهُم من جانبِ الخِدْرِ تَطْلُعُ
فوَاللهِ ما أدرِي أَأَحْلَامُ نائمٍ   أَلَمَّتْ بِنَا أمْ كانَ في الركبِ يوشَعُ

فهو يشير إلى قصة يوشع بن نون فتى موسى -عليهما السلام- فقد روي أنه قاتل الجبارين يوم الجمعة، فلما أدبرت الشمس خاف أن تغيب دون أن يفرغ من قتالهم وعندئذ يدخل في السبت فلا يحل له قتالهم. فدعا ربه فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم...

ومنه قول الآخر:

خُذوا بدمِي هذَا الغزالَ فإنَّهُ   رمَاني بِسَهْمَيْ مُقْلَتَيْهِ على عَمْدِ
ولا تقتلُوهُ إنَّنِي أنا عبدُهُ   ولمْ أرَ حُرًّا قطُّ يُقتَلُ بالعبدِ

فقد أشار إلى الآية الكريمة: ﴿ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ [البقرة: ١٧٨].

ومنه نثرًا قول الحريري في المقامة الساوية «أنَسْتُ مِنْ قَلْبِي الْقَسَاوَةَ، حينَ حَلَلْتُ سَاوَةَ فأَخَذْتُ بِالخَبَرِ المأْثُورِ، في مُدَاوَمَتِهَا بِزِيَارَةِ الْقُبُورِ» فهو يشير إلى قول الرسول ﷺ: «إنَّ الْقُلُوبَ تَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ»، قيلَ ومَا جِلاؤُهَا؟ قال: «تِلاَوَةُ الْقُرْآنِ وزِيَارَةُ القُبُورِ»(١)...

ومنه قوله أيضًا "بت بليلة نابغية"، أشار بهذا إلى قول النابغة الذبياني:

فَبِتُّ كأَنِّي سَاوَرَتْني ضَئِيلَةٌ   من الرُّقْشِ في أَنْيَابِهَا السُّمُّ ناقعُ(٢)

هذا "والتلميح أو التضمين"، شأنهما شأن الاقتباس في أن كلا منهما يحتاج من

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٩٧)، والخطيب (١١/ ٨٥) والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٥٢ برقم ٢٠١٤)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٩٨) برقم ١١٧٨)، ولفظه: "إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد" قيل: وما جلاؤها؟ قال: "كثرة ذكر الموت وتلاوة القرآن".

(٢) ساورتني: أصابتني. والضئيلة: الحية الدقيقة والأفعى كلما كبرت صغر جسمها، والرقش: مفردها رقشاء وهي الحية المنقطة بسواد وبياض، والناقع: الشديد.

الدارس إلى حفظ القرآن والسنة وفقهها، وحفظ الكثير من الأدب شعره ونثره، ومداومة القراءة والاطلاع في مختلف كتب الأدب وشتى ميادينه.

آراء العلماء في الاقتباس من القرآن

اختلفت آراء الفقهاء والعلماء في جواز الاقتباس من القرآن الكريم، فبعضهم منعه، وبعضهم أجازه مطلقًا، وبعضهم أجازه بشرط ألا يتنافى مع مبادئ الدين وقيم الإسلام، فلا يجوز الاقتباس في معرض الهزل والسخف، ولا اقتباس ما نسبه الله عز وجل إلى نفسه، كما روي أن أحد الولاة وقع على شكاية رفعت إليه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾، ولا أخذ شيء من القرآن وجعله بيتًا من الشعر، كما في قول القائل:

كتـــبَ المحبـــوبُ ســـطرًا في كتـــابِ اللهِ مَـــوْزُونْ
لـــن تنـــالُوا الـــبرَّ حَتَّـــى تُنْفِقُـــوا ممَّـــا تحُبُّـــونْ

لأن هذا يتنافى مع نفي الشعر عن القرآن... إلى غير ذلك مما يتناقض مع تعاليم الدين، أما إذا لم يتعارض الاقتباس مع روح الدين وقيمه ومبادئه، فلا غبار عليه، وهذا الرأي هو ما نراه أولى بالقبول والترجيح على نحو ما مر بنا في شواهد الاقتباس... أما الاقتباس من الحديث الشريف فلا خلاف في جوازه، لأن الحديث تجوز روايته بالمعنى وهو ما لا يجوز في القرآن الكريم.

* * *

الانتهاء

هذا هو الموضوع الثالث الذي ينبغي للمتكلم أن يتأنق فيه؛ لأن الانتهاء آخر ما يعيه السامع ويرتسم في ذهنه فإذا جاء حسنًا جبر ما يكون قد وقع قبله من تقصير وعدم وفاء. وإن جاء سيئًا فقد ينسى محاسن ما قبله.

حسن الانتهاء

وحسن الانتهاء يتم بمراعاة ما روعي في حسن الابتداء من تخير الألفاظ. والنظم الجيد وصحة المعنى ومطابقته لمقتضى الحال...

من ذلك قول أبي نواس:

فبقيتَ للعلمِ الذي تَهْدِي لَهُ ... وتقاعَسَتْ عن يومِكَ الأيّامُ

فقد أنهى قصيدته وهي في مدح المأمون، نهاية حسنة حيث دعا له أن يبقى للعلم هاديًا، وأن تتقاعس الأيام عن يومه...

ومنه قوله:

وإنّي جديرٌ إذ بلغتُكَ بالمنَى ... وأنتَ بما أَمّلْتُ منكَ جَديرُ

فإنْ تولِني منكَ الجميلَ فأهلُهُ ... وإلاّ فإنّي عاذرٌ وشكُورُ

فقد أنهى قصيدته وهي في مدح الخصيب بن عبد الحميد المرادي، نهاية جيدة، لأن الشكر وقبول العذر يقتضيان انقطاع الكلام وانتهاءه.

ومنه قول أبي تمام في خاتمة قصيدته في مدح المعتصم وفتح عمورية:

إنْ كانَ بينَ صروفِ الدهرِ من رحمٍ ... موصولةٍ أو ذمامٍ غيرِ مُقْتَضَبِ

فبينَ أيّامِكَ اللاتي نُصِرْتَ بهَا ... وَبَيْنَ أيّامِ بدرٍ أَقْرَبُ النَّسَبِ

أَبْقَتْ بني الأَصْفَرِ الْمِمْرَاضِ كَإِسْمِهِمُ ... صُفْرَ الْوُجُوهِ وجَلَّتْ أَوْجُهَ الْعَرَبِ (١)

فقد اختتم القصيدة ختمًا حسنًا، ويكمن هذا الحسن في تحقيق النصر ونهاية الفتح الذي يؤذن بانتهاء الكلام...

براعة الانتهاء

إذا كان في نهاية القصيدة بالإضافة للأمور المذكورة ما يشعر وينبئ بانتهاء الكلام، سمي ذلك براعة الانتهاء...

كما في قول المعري:

بقيتَ بقاءَ الدَّهْرِ يا كَهْفَ أَهْلِهِ ... وهذا دُعَاءٌ لِلْبَرِيَّةِ شَامِلُ (٢)

---

(١) صروف الدهر: حوادثه، والذمام: الحق، والمقتضب: المقطوع، بني الأصفر: الروم، والممراض: صيغة مبالغة من المرض، يعني أن صفرتهم ناجمة عن مرض وليس خلقة فيهم.

(٢) الكهف: الغار في الجبل والمراد به هنا: الملجأ على سبيل الاستعارة، وكان دعاؤه دعاء شاملاً للبرية كلها، لأن بقاءه سبب لصلاحهم واستقامة حالهم.

فالدعاء للبرية يشعر بانتهاء الكلام...

ومثله قول المتنبي:

فلا حَطَّتْ لكَ الهيجَاءُ سَرْجًا ولا ذاقَتْ لكَ الدُّنْيَا فِرَاقَا

فدعاؤه لسيف الدولة يشعر وينبئ بانتهاء الكلام... هذا وعندما نتأمل فواتح السور في الذكر الحكيم وخواتمها والانتقال فيها من معنى لآخر نجد أن ذلك وارد على أحسن وأتم وجوه البلاغة... والمقام هنا لا يتسع لإبراز ذلك وإيضاحه ولذا فسوف نخصه بدراسة مستقلة إن شاء الله تعالى.

* * *

الجناس

ورد الجناس كثيرًا في النظم الكريم، وفي الحديث الشريف، كما ورد في الشعر والنثر قديمه وحديثه... فمن شواهده في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم: ٥٥]، وقوله عز وجل: ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [النمل: ٤٤]، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾ [الروم: ٤٣]...﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٦]، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الصافات: ٧٢]، ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٨٣]، وفي الحديث الشريف: «اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وآمِنْ رَوْعَاتِنَا...»[1]. «اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي»[2]... «الخَيْرُ معْقُودٌ بِنَواصِي الخَيْلِ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[3].

ومن أقوالهم قول امرئ القيس:

وإنْ كنتِ قدْ ساءتكِ منِّي خليقةٌ   فَسُلِّي ثيَابِي مِن ثِيابِكِ تَنْسُلِ

وقول زهير بن أبي سلمى:

كأنَّ عَيْنِي وقدْ سالَ السَّلِيلُ بِهِمْ   وَعَبْرَةٌ مَا هُمُ لَوْ أَنَّهُمْ أَمَمُ[4]

وقول النعمان بن بشير:

أَلَمْ تَبْتَدِرْكُمْ يومَ بَدْر سُيُوفُنَا   ولَيْلُكَ عَمَّا نَابَ قومَكَ نائِمُ

وقول جرير في هجاء الفرزدق:

فمَا زَال معقولاً عقالٌ عن النَّدَى   وما زَالَ محبوسًا عن المَجْدِ حابسُ[5]

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٠٩٦٦).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (٣٨٢٣).

(٣) رواه البخاري في كتاب المناقب برقم (٣٦٤٣) ومسلم في كتاب الإمارة برقم (٩٩/ ١٨٧٣).

(٤) السليل: الوادي، وعبرة ما هم: أي: هم لي عبرة وسبب بكائي، وأمم: بين القرب والبعد.

(٥) عقال وحابس: من أجداد الفرزدق.

وقول الفرزدق:

«خُفَــافٌ» أَخَــفَّ اللهُ عنــهُ ســحابَهُ وأَوْسَعَهُ مــن كــلِّ سَــافٍ وحَاصِــبِ[١]

والجناس -كغيره من ألوان البديع- إذا صدر عن طبع وجاء عفوًا كان له وقعه وأثره في المعنى، أما إذا تكلف وتصنع، بدا ثقيلاً ورغبت عنه النفوس وجافته الأذواق... يقول الإمام عبد القاهر: "أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعًا حميدًا، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدًا، أتراك استضعفت تجنيس أبي تمام في قوله:

ذهبَــتْ بمُذْهَبِــهِ الــسماحةُ فــالْتَوَتْ فيــهِ الظُّنُــونُ أمَــذْهَبٌ أمْ مُــذْهَبُ

واستحسنت تجنيس القائل:

حتَّى نجَا من خَوْفِهِ ومَا نجَا[٢].

وقول المحدث:

نــاظِرَهُ فــيمَا جَنَــى نَــاظِرَاهُ أوْ دَعَــانِي أَمُــتْ بمَــا أَوْدَعَــانِي

لأمر يرجع إلى اللفظ؟... أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت في الثاني؟... ورأيتك لم يزدك بِمَذْهَبٍ ومُذْهَبٍ على أن أسمعك حروفًا مكررة، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك كأنه لم يزدك، وقد أحسن الزيادة ووفاها..."[٣].

هذا وقد فطن العلماء منذ القدم إلى فن الجناس، وكتبوا عنه وحاولوا تحديد مفهومه...

---

(١) خناف: اسم شخص. والسافي: الريح التي تسفي التراب، والحاصب: الريح الشديدة التي تحمل التراب والحصباء أي: الحصى الصغار.

(٢) نجا الأولى من النجو، وهو ما يخرج من البطن، يريد أنه من خوفه أحدث . و"نجا" الثانية من "النجاة".

(٣) أسرار البلاغة ص ١٧.

فقد أشار إليه الخليل بقوله: "الجنس لكل ضرب من الناس والطير والعروض والنحو، فمنه ما تكون الكلمة تجانس الأخرى في تأليف حروفها ومعناها وما يشتق منها مثل قول الشاعر:

يومَ خَلجْتُ على الخليجِ نُفُوسَهُمْ[١]

أو يكون تجانسها في تأليف الحروف دون المعنى مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [النمل: ٤٤].

وللأصمعي كتاب ينسب إليه يسمى "كتاب الأجناس"... وابن المعتز يعده من الفنون الأساسية للبديع[٢]. ثم ما لبث أن نما الجناس وتشعبت فروعه وكثرت أنواعه وتعددت مصطلحاته... ولعل ذلك يرجع إلى إسراف الشعراء وإكثار الكتاب من هذا اللون وتفننهم في صنوفه وأشكاله وبخاصة في العصور المتأخرة... والذي يعنينا الآن أن نقف على مفهوم الجناس وأثره في المعنى، وأن نعرف أنواعه بعيدًا عن التقسيمات المملة والتي يتداخل معظمها، ولا يجد الدارس من الوقوف عليها كبير فائدة.

تعريف الجناس: الجناس والتجنيس والمجانسة والتجانس كلها ألفاظ مشتقة من الجنس، يقال: تجانس الشيئان إذا دخلا تحت جنس واحد، ويقال: كلمتان متجانستان أي: شابهت إحداهما الأخرى، فكأنه قد وقع بينهما مجانسة، وحكي عن الخليل: هذا يجانس هذا أي: يشاكله...

والجناس عند البلاغيين: تشابه اللفظين في النطق واختلافهما في المعنى... كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ فقد اتحد لفظا ﴿ ٱلسَّاعَةُ ﴾، ﴿ سَاعَةٍ ﴾ نطقًا واختلفا معنى؛ إذ المراد بالساعة الأولى القيامة، وبالثانية: المدة الزمانية.

(١) خلجت نفوسهم: طعنتها بالرمح.

(٢) انظر البديع ص ٢٥.

أنواعه: والجناس نوعان:

١-جناس تام.

٢-جناس غير تام.

فالتام ما اتفق فيه اللفظان المتجانسان في أربعة أمور: نوع الحروف وعددها وهيئاتها وترتيبها... وغير التام: ما اختلف فيه اللفظان المتجانسان في واحد أو أكثر من الأمور المذكورة.

الجناس التام: وهذا النوع من الجناس ينقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام: المماثل... والمستوفي... وجناس التركيب..

١-**المماثل**: وهو ما اتفقت فيه الكلمتان المتجانستان في نوع الأحرف وعددها وهيئاتها وترتيبها، وكانتا من نوع واحد من أنواع الكلمة، اسمين أو فعلين أو حرفين... كما في قوله تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ** ﴾ [الروم: ٥٥]، فالجناس بين ﴿ **ٱلسَّاعَةُ** ﴾ و ﴿ **سَاعَةً** ﴾ وهما اسمان ومنه قوله عز وجل: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: ٤٣]، فالأبصار الأولى جمع بصر وهو النظر، والثانية جمع البصر وهو العقل... فالكلمتان في كل آية اختلفتا معنى واتفقتا نطقا في نوع الحروف وعددها وهيئاتها وترتيبها، وهما اسمان كما لا يخفى...

ومن ذلك قول أبي تمام:

إذا الخيلُ جابَتْ قَسْطَلَ الحربِ ... صُدُورَ العَوَالِي فِي صُدُور الكَتَائِبِ(١)

فالمراد بصدور العوالي: أعالي الرماح، وبصدور الكتائب: نحورها.

ومنه قول البحتري:

إذا الْعَيْنُ راحَتْ وهيَ عينٌ على الْجَوَى ... فليسَ بِسِرٍّ ما تُسِرُّ الأضَالِعُ

---

(١) القسطل: الغبار. وصدعوا: أمالوا. والعوالي: جمع عالية وهي الرمح.

فالعين الأولى: العين الباصرة، والثانية: الربيئة أو الجاسوس... وبين "بِسِرٍّ وِ"تُسِرُّ" جناس غير تام سيأتي بيانه.

وقول المعرى:

تقـــولُ أنـــتَ امْـــرُؤٌ جـــافٍ مُغَالِطَـــةً   فقلـــتُ: لا هوَّمَـــتْ أجفـــانُ أجفانَـــا(١)

فأجفان الأولى: جمع جفن وهو غطاء العين، والثانية: اسم تفضيل بمعنى: أكثرنا جفاء...

وقول أبي نواس:

عبـــاسُ عبـــاسٌ إذا احتـــدمَ الـــوغَى   والفـــضْلُ فـــضلٌ والربيـــعُ ربيـــعُ

فعباس الأولى، والفضل الربيع أعلام، وعباس الثانية من العبوس، وفضل من التفضل والزيادة، وربيع: فصل الربيع وزمانه.

ومن أمثلة الجناس المماثل بين فعلين، قولـهم: «فُلاَنٌ يَضْرِبُ بالْبَيْدَاءِ فَلاَ يَضِلُّ، ويَضْرِبُ بالْهَيْجَاءِ فلاَ يَكِلُّ...».

فالضرب الأول بمعنى: قطع المسافة، والثاني بمعنى: الحمل على الأعداء... وقولهم: «قَالَ فُلانٌ عِنْدَنَا فَقَالَ لَنَا»، قال الأولى من القيلولة والثانية من القول... ومن أمثلة الجناس المماثل بين حرفين، قولهم: "قد ينزل المطر شتاء وقد ينزل صيفًا".

فقد الأولى للتكثير والثانية للتقليل. وقولهم: "من الناس من يعمل من الشروق إلى الغروب..." فمن الأولى بمعنى: التبعيض، ومن الثانية تفيد الابتداء.

٢-**المستوفى**: وهو ما اتفقت فيه الكلمتان في نوع الأحرف وعددها وهيئاتها وترتيبها واختلفتا في نوع الكلمة، بأن تكون إحداهما فعلاً والأخرى اسمًا أو حرفًا، أو إحداهما اسما والأخرى حرفًا...

فمن الجناس بين الاسم والفعل قول الشاعر:

وسَـــمَّيْتُهُ يحيَـــى ليَحْيَـــا فلـــمْ يكُـــنْ   إلى ردِّ أَمْـــرِ اللهِ فيـــهِ سَـــبيلُ

---

(١) هومت: بفتح الواو المشددة: بمعنى تحركت.

فيحيى الأولى اسم، والثانية فعل...

ومنه قول الآخر:

إذا رمـــاكَ الـــدَّهْرُ في مَعْـــشَرٍ   وأجمَـعَ النــاسُ عــلى بُغـضِهِمْ
فــدَارِهِمْ مــا دُمْـتَ في دارِهِــمْ   وأَرْضِـهِمْ مــا دُمْـتَ في أَرْضِـهِمْ

فدارهم الأولى فعل من المداراة والثانية اسم، وأرضهم الأولى فعل من الإرضاء والثانية اسم...

ومنه قول المعرى:

لــو زارنَــا طيــفُ ذاتِ الخــالِ أحيانًــا   ونحــنُ في حُفَــرِ الأَجْـدَاثِ أحْيانَــا

«فأحيانَا» الأولى اسم بمعنى من وقت لآخر، و«أحيانا» الثانية فعل بمعنى بعث فينا الحياة من جديد... ومن الجناس بين الفعل والحرف، قولهم: "قاتل فلان على جواده فعلا" فعلى الأولى حرف والثانية فعل...

ومنه قول الشاعر:

عــلاَ نَجْمُــهُ في عــالمِ الــشِّعْرِ فَجْــأَةً   عــلى أنَّــه مــا زالَ في الــشِّعْرِ شــاديَا

"فعلا" الأولى فعل بمعنى ارتفع و "على" الثانية حرف جر.

ومنه قول الآخر:

ولـــو أنَّ وصــــلاً علَّلُــــوهُ بِقُرْبِــــهِ   لمــا أنَّ مِــنْ حَمْــلِ الــصَّبَابَةِ والْجَــوَى

فأنَّ الأولى حرف توكيد ونصب، وأنَّ الثانية فعل ماض من الأنين... ومن الجناس بين الحرف والاسم قولهم: "هويت في حفرة فسقطت من في أسناني" ففي الأولى حرف جر، والثانية اسم...

٣-**جناس التركيب**: وهو ما كان كل لفظ من لفظيه مركبًا أو أحدهما مركبًا والآخر مفردًا...

من ذلك قول البستي:

إلى حتْفِــــي ســــعَى قَــــدَمِي   أَرَىَ قَــــــدَمِي أراقَ دَمِـــــي

فكل لفظ من لفظي الجناس مركب من كلمتين: "أرى قدمي"، "أراق دمي".

ومثله قول الآخر:

وكـــمْ لجبَــاهِ الــرَّاغِبينَ إليــهِ مِــنْ   مجَــالِ سُــجُودٍ في مجَــالِسِ جُــودِ

ومن ذلك قول البستي أيضًا:

إذا مَلِـــكٌ لمْ يكُـــنْ ذَا هِبَـــةْ   فدَعْـــهُ فدولتُـــهُ ذاهِبَـــةْ

فاللفظ الأول مركب من مضاف ومضاف إليه والثاني مفرد بمعنى: زائلة فانية...

ومنه قول الآخر:

طَرَقْـتُ الْبَـابَ حتَّـى كـلَّ متْنِـي   فلــمَّا كَــلَّ مَتْنِــي كَلَّمَتْنِــي

فالجناس بين كلمتي: كلمتني وكل متني، إحداهما مفردة والأخرى مركبة... ومثله قول الآخر:

نَــاظِرَاهُ فِــيمَا جَنَــى نَــاظِرَاهُ   أوْ دَعَــانِي أمُــتْ بــمَا أَوْدَعَــانِي

فأودعاني الأولى مكونة من "أو وفعل الأمر" والثانية فعل ماض... هذا ولا يعد إسناد الفعل إلى الضمائر المتصلة أو إضافة الاسم إلى الضمير تركيبًا، ولذا فالجناس بين "ناظراه وناظراه" في البيت جناس مفرد.

ومنه قول الآخر:

لاَ تَعْرِضَـنَّ عَـلَى الـرُّوَاةِ قَـصِيدَةً   مـا لَمْ تُبَـالِغْ بَعْـدُ في تَهْـذِيبهَا

فَمَتَـى عَرَضْـتَ الـشِّعْرَ غَـيْرَ مُهَـذَّبِ   عَـدُّوهُ مِنْـكَ وَسَاوِسًـا تَهْـذِي بِهَـا

فالجناس بين "تهذيبها وتهذي بها" الأولى مفردة والثانية مركبة من الفعل "تهذي" والجار والمجرور "بها".

ومثله قوله:

سَـلْ سَـبيلاً إلى النَّجـاةِ ودَعْ دَمْـــ   ـعَ عَيْنِــي يجْـرِي سَلْـسَبيلا

فالجناس بين "سل سبيلا وسلسبيلا" الأولى مركبة والثانية مفردة.

ومن ذلك قول الحريري:

والمكرُ مهما اسْطَعْتَ لاَ تأْتِهِ ... لِتَقْتَنِي السُّؤْدَدَ والمُكْرُمَهْ

فاللفظ الأول مركب من كلمة "المكر" والميم والهاء من "مهما"، واللفظ الثاني مفرد "المكرمة".

ومثله قوله أيضًا:

ولا تُلهِ عنْ تِذكَارِ ذَنْبِكَ وابْكِهِ ... بِدَمْعٍ يحاكِي الْمُزْنَ حالَ مَصَابِهِ

وَمَثِّلْ لِعَيْنَيْكَ الحِمَامَ ووقعَهُ ... وَرَوْعَةَ مَلْقَاهُ ومُطْعَمَ صَابِهِ

فاللفظ الأول مفرد وهو "مصابه"، والثاني مركب من الميم الأخيرة من "مطعم" وكلمة "صابه"...

وبهذا يتضح لنا أن الجناس المركب، قد يكون كلا لفظيه مركبًا ويسمى هذا جناسا ملفقًا وقد يكون أحدهما مفردًا والآخر مركبًا من كلمة وجزء كلمة والبلاغيون يسمون هذا مرفوا... وقد يكون أحد اللفظين مفردًا والثاني مكونًا من كلمتين، فإن تشابها لفظًا وخطًا سماه البلاغيون: متشابهًا، وإن تشابها لفظًا واختلفا خطًا سموه: مفروقًا... ولا أرى ضرورة للوقوف على هذه التسميات أو تلك المصطلحات...

هذا وعلى الرغم من أن هذا النوع من الجناس -الجناس المركب- قد كثر في العصور المتأخرة حتى غلب على كثير من الشعراء، فإنا نرى شعر العصور الأولى، شعر الفطرة السليمة والطبع القويم قد خلا منه، ويرجع السبب في ذلك إلى أن هذا النوع من الجناس لا يخلو من التكلف، فأنت تلاحظ أن التكلف والتصنع باديان على ما أوردنا من شواهده وأمثلته...

الجناس غير التام: وهو ما اختلف فيه اللفظان في واحد أو أكثر من الأمور الأربعة المذكورة وهي: نوع الأحرف وعددها وهيئاتها وترتيبها، ويأتي هذا الجناس على أنواع:

١-**الجناس المضارع أو اللاحق**: وهو ما اختلفت فيه الكلمتان في نوع الأحرف، ويشترط ألا يقع الاختلاف بأكثر من حرف، فإن كان الحرفان اللذان وقع فيهما الاختلاف متقاربين في المخرج سمي الجناس مضارعًا كما في قوله عز وجل: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٦]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيرُ إِلى يَومِ الْقِيَامَةِ»[١]... وقول الحريري: "بيني وبين كني ليل دامس وطريق طامس..." وإن كانا متباعدين في المخرج سمي لاحقًا" كما في الآيات الكريمة: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة: ١]، ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل: ٢٢]، ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ [غافر: ٧٥]، ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٨٣]، ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [العاديات ٦-٨]... ومن أقوالهم في ذلك قول ابن هرمة:

وَأَطْعَنُ للقرنِ يومَ الوغَى ... وَأَطْعَمُ في الزمنِ الماحلِ

وقول البحتري:

هلْ لما فاتَ من تَلاَقٍ تَلاَفِ ... أم لشَاكٍ من الصَّبَابَةِ شَافِ

وقول الحريري: "لا أعطي زمامي لمن يخفر ذمامي، ولا أغرس الأيادي في بلاد الأعادي...".

وقول الآخر:

إنَّ المكارمَ في المكَارِهِ ... وَالمُغَانِمَ في المغارِمِ

٢-**الجناس الناقص**: وهو ما اختلف فيه اللفظان في عدد الأحرف، وسمي ناقصا؛ لأن أحد اللفظين ينقص عن الآخر حرفًا أو حرفين، ولا يكون النقصان بأكثر من ذلك، فمما نقص فيه أحد اللفظين عن الآخر حرفًا قوله تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة برقم (٩٩/ ١٨٧٣)، والبخاري في كتاب المناقب برقم (٣٦٤٣).

ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: ٢٩، ٣٠]، فالجناس بين (السَّاقُ والمساق)، وقد نقصت الأولى عن الثانية حرفًا... ومنه قولهم: "جَدِّي جَهْدِي"، و"من جَدَّ وَجَدَ"، والتشديد لا يعتد به في الجناس الناقص... وقولهم: "سَالٍ مِنْ أَحْزَانِهِ سَالِمٌ من زَمَانِهِ، حامٍ لعِرْضِهِ حَامِلٌ لِغَرَضِهِ"... ومنه قول أبي تمام:

يَمُـدُّونَ مِـنْ أَيْـدٍ عَـوَاصٍ عَوَاصِـمِ تَـصُولُ بِأَسْـيَافٍ قَـوَاضٍ قَوَاضِـبِ[(١)]

وقول الآخر:

وســـألتُهَا بإشـــارةٍ عـــن حالِـــهَا وعــليَّ فيهَـــا للْوُشَـــاةِ عُيُـــونُ
فتَنَفَّـسَتْ صـعدًا وقالَـتْ: مـا الهـوَى إلاَّ الهـــوانُ فـــزالَ عنـــهُ النـــونُ

وقول البهاء زهير:

أشـــــكُو وأشـــــكُرُ فِعْلَـــــهُ فاعجَـــبْ لـــشاكٍ منـــهُ شـــاكر
طَـــرْفِي وطَـــرْفُ الـــنَّجْمِ فيـــ ــكَ كلاهُمَـــا سَـــاهٍ وســـاهِرْ

ومما زادت فيه إحدى الكلمتين عن الأخرى حرفين قول حسان بن ثابت ﷺ:

وكُنَّـــا متَـــى يغْـــزُ النَّبِـــيُّ قبيلـــةً نَـــصِل جَانِبَيْـــهِ بالقَنَـــا والقَنَابِـــلُ[(٢)]

وقول الخنساء:

إنَّ البكـــــاءَ هـــــو الـــــشِّفَا ءُ مـــنَ الجـــوَى بـــينَ الجـــوَانِحِ

ولا تكون هذه الزيادة أي: زيادة الحرفين إلا في آخر الكلمة، ولذا سماه بعض البلاغيين: مذيلا، وسموا ما كانت الزيادة فيه بحرف واحد مطرفًا[(٣)].

---

(١) عواص: جمع عاصية، من عصى بمعنى لم يطع أو من عصاه إذا ضربه بالعصا وعواصم: جمع عاصمة أي حافظات لأوليائها وقواض: حاكمات بالقتل، وقواضب: قاطعات.

(٢) القنا: الرماح، والقنابل: جمع قنبلة وقنبل بفتح القاف: الجماعة من الناس أو الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين ونحوه.

(٣) انظر الإيضاح ٤/ ٨٢.

ووجه حسن: هذا النوع كما يقول عبد القاهر، أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة، كالميم من "عواصم" والنون والحاء من "الجوانح" أنها هي الكلمة التي مضت وقد أتى بها للتوكيد، حتى إذا تمكن آخرها في نفسك ووعاه سمعك انصرف عنك ذلك التوهم، وفي ذلك حصول الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها(١)...

٣-**الجناس المحرف**: وهو ما اختلف فيه اللفظان في هيئات الأحرف، أي في الحركات والسكنات، واتفقا فيما عدا ذلك من نوع الأحرف وعددها وترتيبها.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الصافات: ٧٢، ٧٣]، وقول الرسولﷺ: « اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي»(٢)، ومنه قولهم: «لاَ تُنَالُ الْغُرَرُ إلاَّ بِرُكُوبِ الْغَرَرِ»، وقولهم: «جُبَّةُ الْبُرْد جُنَّةُ الْبَرْدِ»، وقولهم: «الْبِدْعَةُ شَرَكُ الشِّرْكِ»(٣).

وقول المعرى:

وَالْحُسْنُ يظهَرُ في بيْتينِ رَوْنَقُهُ ... بيتُ من الشِّعرِ أو بيتٌ من الشَّعرِ(٤)

٤-**جناس القلب**: ويسميه بعضهم "جناس العكس" وهو ما اختلفت فيه الكلمتان في ترتيب الحروف، وهو إما قلب الكل، وذلك إذا جاء أحد اللفظين عكس الآخر في ترتيب حروفه كلها، كما في قولهم: "حُسَامُهُ فَتْحٌ لأَوْلِيَائِهِ حَتْفٌ لأَعْدَائِهِ".

وقول العباس بن الأحنف:

حُسامُكَ فيهِ للأحبَابِ فَتْحٌ ... ورُمحُكَ فيهِ للأعداءِ حَتْفُ

(١) انظر أسرار البلاغة ص ٢٦.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (٣٨٢٣).

(٣) الغرر: بالضم جمع أغر وهو الحسن من كل شيء، وبالفتح التعرض للتهلكة، والبرد: بضم الباء: الثوب وبفتحها ضد الحر وبين جبة وجنة جناس لاحق، والشرك: الحبائل...

(٤) الشعر: بالفتح المقابل للصوف والوبر.

وقول الآخر:

حكَـانِي بَهَـارُ الـروضِ حـينَ أَلِفْتُـهُ وكـلُّ مَـشُوقٍ لِلْبَهـار مُـصَاحِبُ

فقلتُ لَـهُ: مـا بـالُ لَوْنُـكَ شـاحبًا فقـالَ لأنيِّ حـينَ أُقْلَـبُ راهـبُ

فحتف مقلوب حتف، وراهب مقلوب بهار، وهو نبت طيب الرائحة له زهر أصفر ينبت أيام الربيع.

وإما قلب البعض: وهو ما اختلفت فيه الكلمتان في ترتيب بعض الحروف. كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٩٤]. فالجناس في كلمتي: «بين» و «بني» وقد اختلفتا في ترتيب الحرفين الأخيرين. ومنه قول الرسول ﷺ: «اللَّهُمْ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وآمِنْ رَوْعَاتِنَا»(١)، وقول بعضهم: «رَحِمَ اللهُ امرَأً أَمْسَكَ مَا بَيْنَ فَكَّيْهِ وأَطْلَقَ ما بَيْنَ كَفَّيْهِ».

وقول أبي تمام:

بيضُ الصَّفَائِحِ لا سُودُ الصَّحَائِفِ في مُتُـونِهِنَّ جِـلاءُ الـشَّك والرِّيَـبِ(٢)

وقول المتنبي:

مُمَنَّعَـةٌ مُنَعَّمَـةٌ رَدَاحٌ يُكَلِّـفُ لَفْظُهَـا الطَّـيْرَ الْوُقُوعَـا(٣)

فقد وقع التجانس بين: عوراتنا وروعاتنا... وفكيه وكفيه... والصفائح والصحائف... وممنعة ومنعمة... وكل كلمتين قد اختلفتا في ترتيب بعض حروفهما كما ترى...

هذا وقد أطلق بعض البلاغيين مصطلحات على جناس لا يخرج عن الأنواع المذكورة... من ذلك.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٠٩٩٦).

(٢) الصفائح: جمع صفيحة وهي السيف العريض، والصحائف: جمع صحيفة والمراد بها كتب المنجمين... والريب: الشك جمع ريبة...

(٣) رداح: يقال امرأة رداح أي: ضخمة العجيزة، ثقيلة الأوراك تامة الخلق... انظر لسان العرب مادة: ردح.

١-**الجناس المقلوب المجنح**: إذا وقع أحد المتجانسين في جناس القلب الكلي في أول الكلام والآخر في آخره سمي مقلوبًا مجنحًا، كما في قول الشاب الظريف:

أَسْكَرَني باللَّفْظِ والمُقْلَةِ الْـ ... ـكَحْلاَءِ والْوَجْنَةِ والكَاسِ
سَاقٍ يُرِيني قَلْبُهُ قَسْوَةً ... وكلُّ سَاقٍ قَلْبُهُ قَاسِ

فالجناس بين "ساق" في أول البيت و"قاس" في آخره" وقد قلبت حروفهما قلبا كليا، ولا يخفى علينا الجناس التام بين "قَلْبُهُ" في الشطر الأول و "قَلْبُهُ" في الشطر الثاني، فمعناه في الشطر الأول: قلب القاسي، ومعناه في الشطر الثاني قلب حروف الكلمة، كلمة "ساقٍ" فعند قلب حروفها قلبا كليًّا تصير إلى "قاس".

ومثله قول الآخر:

لاحَ أنوارُ الهدَى ... في كفِّهِ منْ كلِّ حال

٢-**الجناس المزدوج**: وإذا تتابعت الكلمتان المتجانستان من أي نوع من أنواع الجناس المذكورة، سمي جناسًا مزدوجًا أو مكررًا أو مرددًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]، وقوله ﷺ: "الْمُؤمِنُونَ هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ"[١]، وقولهم: "مَنْ طَلَبَ وَجدَّ وَجدَ، وَمَنْ قَرَعَ بَابًا وَلَجَّ وَلَجَ...".

وقول أبي تمام:

يمدُّونَ من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ ... تصولُ بأسيافٍ قواضٍ قواضبِ

إلى غير ذلك من الشواهد التي مرت بك.

٣-**الجناس المصحف**: ويقال له أيضًا: الجناس المرسوم، وهو أن تتماثل الكلمتان المتجانستان في الخط والرسم، وتختلفان في النقط، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، «فيحسبون ويحسنون» متماثلان رسمًا وخطًا مختلفان نقطًا... ومنه قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٧٢ برقم ٨١٢٨).

يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ [الشعراء: ٧٩: ٨٠]، وقول علي -كرم الله وجهه-: قَصِّرْ ثِيَابَكَ فَإِنَّهُ أبقى وَأَتْقَى وأَنْقَى..."، وقولهم: "خُلْفُ الْوَعْدِ خُلُقُ الْوَغْدِ".

ومنه شعرا قول أبي فراس الحمداني:

مِــــنْ بحــــرِ جُـــودكَ أغـــتَرِفْ وبفـــــضلِ عِلْمِــــكَ أعــــتَرِفْ

وقول الآخر:

فـــإنْ حلُّـــوا فلـــيسَ لَـــهُمْ مَقَـــرُّ وإنْ رَحَلُـــوا فلـــيسَ لَـــهُمْ مَفَـــرُّ[(١)]

وقول أبي تمام:

رُبَّ خَفْـــضٍ تحـــتَ الثَّـــرَى وغِنَـــاءٍ مـــن عَنَـــاءٍ ونَـــضْرَةٍ مـــن شُـــحُوبِ

وقول البحتري:

ولمْ يَكُـــنِ الْمُـــغْتَرُّ بـــالله إِذْ سَرَى لِيُعْجِـــزَ والْـــمُعْتَزُّ بـــالله طَالِبُـــهُ

ولا يخفى عليك أن هذا يرجع إلى الجناس المضارع أو اللاحق حيث اختلفت الكلمتان في نوع الأحرف واتفقتا فيما عدا ذلك من عدد الأحرف وترتيبها وهيئاتها.

❊❊❊

ما يلحق بالجناس

ألحق البلاغيون بالجناس نوعين:

الأول: جناس الاشتقاق: وهو أن يجمع اللفظين الاشتقاق، بمعنى أن يرجع اللفظان إلى أصل واحد في اللغة، ويسمى هذا: "جناس الاشتقاق"، وهذا النوع من الجناس يكثر في كلام القدماء شعره ونثره، وفي النظم الكريم والحديث الشريف كثير منه، وهو الذي لفت نظر العلماء الأوائل الذين تحدثوا عن الجناس وفطنوا لشواهده، كالخليل والأصمعي وابن المعتز وغيرهم، وقد كان الرماني يسميه: "تجانس المناسبة" وعني به الجناس الذي يدور في المعاني التي يجمعها أصل واحد ترجع إليه، وكشف عن أسرار بلاغته في كثير من آي الذكر الحكيم، فمن ذلك قوله

---

(١) ولاحظ الجناس الناقص بين حلوا ورحلوا.

تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ [التوبة: ١٢٧]، فقد جونس بالانصراف عن الذكر صرف القلب عن الخير، والأصل فيه واحد وهو الذهاب عن الشيء، أما هم فذهبوا عن الذكر وأما قلوبهم فذهب عنها الخير، وقد رتب صرف قلوبهم عن الخير على انصرافهم عما أنزل الله من الآيات، وكأن انصرافهم ليس لهم وإنما هو عليهم[١].

ومنه قوله عز وجل: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾[النور: ٣٧]، فتتقلب والقلوب ترجعان إلى أصل واحد، وكذا القول في الآيات الكريمة: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾ [الروم: ٤٣]... ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]. فبين كل من "أقم واليقين".. «الربا ويربي» و﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ جناس الاشتقاق... ومنه قوله ﷺ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٢]، وقول الشافعي رحمه الله وقد سئل عن النبيذ: "أَجْمَعَ أَهْلُ الْـحَرَمَيِنِ عَلَى تَحْرِيمِه»... فالظلم والظلمات... يرجعان إلى أصل واحد... وكذلك "الحرمين وتحريمه".

ومن جناس الاشتقاق ما يجري في الأعلام كما في قول النبي ﷺ: «أَسْلَمُ سَالَمَها اللهُ وغِفَارٌ غَفَرَ اللهُ لَهَا وعُصَيَّةُ عَصَتِ اللهَ ورسُولَهُ»[٣]. فأسلم وغفار وعصية أسماء قبائل وهي ترجع وما ذكر معها من أفعال إلى أصل واحد فأسلم وسالم يرجعان إلى المسالمة، وغفار وغفر إلى المغفرة وعصية وعصت إلى العصيان...

ومن ذلك ما يروى أن رجلاً من قريش قال لخالد بن صفوان: ما اسمك؟ قال: خالد بن صفوان الأهتم، فقال الرجل: إن اسمك لكذب ما خلد أحد، وإن أباك لصفوان وهو حجر، وإن جدك لأهتم والصحيح خير من الأهتم.

قال خالد: من أي قريش أنت؟ قال: من بني عبد الدار، قال: فمثلك يشتم

---

(١) انظر النكت للرماني ص ١٠٠.

(٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب برقم (٥٧- ٢٥٧٩).

(٣) رواه البخاري (٣/ ١٢٩٣ برقم ٣٣٢٢) ومسلم (٤/ ١٩٥٣ برقم ٢٥١٨).

تميماً في عزها وحسبها، وقد هشمتك هاشم وأمتك أمية وجمحت بك جمح وخزمتك مخزوم وأقصتك قصي فجعلتك عبد دارها وموضع شنارها تفتح لهم الأبواب إذا دخلوا وتغلقها إذا خرجوا..."[1]. فالقرشي وخالد قد اتخذا من كل اسم لفظا مشتقا من أصل مادته.

ومنه شعرا قول امرئ القيس:

لقَدْ طَمَحَ الطَّمَّاحُ من بُعْدِ أرضِهِ ... لِيُلْبِسَني من دائِهِ ما تَلَبَّسَا

وقول زهير:

كأنَّ عَيْنِي وقدْ سَالَ السَّلِيلُ بهم ... وَعَبْرَةٌ مَا هُمُ لَوْ أنَّهُمْ أَمَمُ

وقول النعمان بن بشير:

ألمْ تَبْتَدِرْكُمْ يومَ بدرٍ سيُوفُنَا ... وَليْلُكَ عَمَّا نَابَ قَوْمَكَ نائِمُ

وقول الفرزدق:

خُفَافٌ أخفَّ اللهُ عنهُ سَحَابَهُ ... وَأوْسَعَهُ من كلِّ سافٍ وحاصبِ

وقول جرير:

فمَا زالَ معقولاً عقالٌ عن النَدَى ... وما زالَ محبوسًا عن المجدِ حابِسُ

وقول أبي تمام:

وَأَنْجَدْتُمُ من بَعْدِ إتْهَامِ دارِكُمْ ... فيَا دَمْعُ أَنْجِدْنِي على سَاكني نَجْدِ[2]

وقول البحتري:

يَعْشَى عن المجدِ الْغَبِيُّ ولنْ ترَى ... في سُؤْدَدٍ أربًا لغيرِ أَرِيبِ[3]

---

(١) انظر الصناعتين ٣٣٢.

(٢) أنجدتم: سكنتم نجدًا، وإتهام: سكنى تهامة.

(٣) يعشى: يصاب بالعشي وهو عدم الإبصار ليلاً أو ليلاً ونهارًا... والأرب: الحاجة، والأريب: الماهر.

وقول ابن وهيب:

قَسَمْتَ صُرُوفَ الدَّهْرِ بأسًا ونائلاً   فَمَالُكَ مَوْتُورُ وسَيْفُكَ واتِرُ[١]

ففي كل بيت كما ترى جناس اشتقاق بين: طمح الطماح... سال السليل... تبتدر وبدر... خفاف أخف... معقولاً عقال... محبوسًا حابس... أنجد ونجد... أربًا وأريب... موتور وواتر... وقد كثر هذا النوع من الجناس -كما قلنا- في الشعر القديم، ثم ازدادت كثرته لدى المتأخرين، وكان في القديم يصدر عن طبع ويأتي عفو الخاطر، كما رأينا في الشواهد، أما المتأخرون كأبي تمام، ومسلم بن الوليد ومن سار على نهجهما، فقد خرجوا عن حد القصد والاعتدال في كثير من الأحيان.

شبه جناس الاشتقاق

النوع الثاني: أن يجمع اللفظين ما شابه الاشتقاق ومعنى مشابهة الاشتقاق: أن يوجد في اللفظ جميع ما في الآخر من الحروف أو أكثرها، ولكن لا يرجعان إلى أصل واحد كما في الاشتقاق ولذا كان شبيهًا به وليس إياه... من ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٨]، «فَقَالَ» من القول و«قَالِينَ» من القلي فهما -وإن تشابهت حروفهما- مختلفان لا يرجعان إلى أصل واحد... ومثله قوله عز وجل: ﴿ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقوله جل وعلا: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ [المائدة: ٣١] فمعنى الجني غير معنى الجنة، ومعنى الأرض غير معنى الرضا، ومعنى الرؤية أو الإراءة غير معنى المواراة فاللفظان وإن تشابهت حروفهما لا يرجعان لأصل واحد.

ومن ذلك قول البحتري:

وإذَا مَا رِيَاحُ جُودِكَ هَبَّتِ   صَارَ قَوْلُ الْعَذُولِ فيهَا هَبَاءَ

---

(١) وترة: أصابه بمكروه أو بظلم، ونلاحظ في البيت محسنًا آخر وهو اللف والنشر غير المرتب، فموتور يرجع لنائل وواتر: يرجع لبأس.

"هبت" "من الهبوب" أي: ثارت وهاجت، و"هباء" من هبا يهبو، أي: اختلط يقال: هبا الرماد يهبو أي: اختلط بالتراب، والهباء: الشيء المنبث الذي تراه في البيت من ضوء الشمس شبيهًا بالغبار قال تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، فأصلهما مختلف وقد تشابهت حروفهما.

هذا ولا أرى وجهًا لجعل البلاغيين هذين النوعين ملحقين بالجناس؛ إذ لا فرق بينهما وبين الأنواع السابقة له، إلا أن يقال: إن اللفظين في "جناس الاشتقاق" يرجعان إلى أصل واحد، وحد الجناس تشابه اللفظين نطقا واختلافهما معنى، وذا غير مسلم؛ لأن اللفظين وإن رجعا إلى أصل واحد، فقد صار لكل منهما معنى يختلف عن معنى الآخر، ولو سلم بهذا القول في "جناس الاشتقاق" وعد به ملحقًا بالجناس، فماذا نقول فيما شابه الاشتقاق، وقد رأينا أن لفظيه لا يرجعان لأصل واحد؟... ولذا أرى أن يعد جناس الاشتقاق وما شابهه من أنواع الجناس وألا يجعلا ملحقين به، كما ذكر البلاغيون.

بلاغة الجناس

بعد أن وقفنا على مفهوم الجناس وعرفنا أنواعه المتعددة نعود فنقول: إن الجناس لا يقبل ولا يعد حسنًا إلا إذا طلبه المعنى واستدعاه، وجاء عفو الخاطر، صادرًا عن طبع لا عن تكلف وتصنع... يقول عبد القاهر: "وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسًا مقبولاً، ولا سجعًا حسنًا، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلا ولا تجد عنه حولا، ومن هنا كان أحلى جناس تسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه، وتأهب لطلبه، أو ما هو لحسن ملاءمته –وإن كان مطلوبًا– بهذه المنزلة وفي هذه الصورة..."(١).

والجناس شأنه شأن فنون البديع الأخرى، لا يحمد فيه الإسراف، ولا

(١) أسرار البلاغة ص ٢٠.

يستحسن الإكثار، "لذلك ذم الاستكثار منه والولوع به، وذلك أن المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه؛ إذ الألفاظ خدم للمعاني..."[(١)].

ونستطيع أن نقول إن بلاغة الجناس ترجع إلى الأمور الآتية:

١-التجاوب الموسيقي الصادر عن تماثل الكلمات تماثلاً كاملا أو ناقصًا تطرب له الأذن وتهتز له أوتار القلوب فتتجاوب في تعاطف مع أصداء أبنيتها وهذا يؤكد بجلاء أهمية الجناس في خلق الموسيقى الداخلية في النص الأدبي وبناء ما بين ألفاظه من وشائج التنغيم...

٢-ما يحدثه الجناس من المفاجأة وخداع الأفكار واختلاب الأذهان، إذ يتوهم السامع أن اللفظ مردد، والمعنى مكرر، وأنه لن يجنى منه سوى التطويل والسآمة، وعندما يأتي اللفظ الثاني بمعنى يغاير ما سبقه، تأخذه الدهشة لتلك المفاجأة غير المتوقعة، فاللفظ المشترك إذا حمل على معنى ثم جاء والمراد به معنى آخر، كان للنفس تشوق إليه وتطلع، وعندئذ يقع منها أحسن موقع، لأن المجنس يعيد اللفظة على السامع كأنه يخدعه عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمه كأنه لم يزده وقد أحسن الزيادة ووفاها[(٢)].

٣-لا يخرج الجناس عن نظرية: "تداعي الألفاظ" و "تداعي المعاني" في علم النفس، وله أصله في الدراسات النفسية فهناك ألفاظ متفقة كل الاتفاق أو بعضه في الجرس وهناك ألفاظ متقاربة أو متشابكة في المعنى بحيث تذكر الكلمة بأختها في الجرس وأختها في المعنى، كما يولد المعنى الأول معنى ثانيًا وثالثًا، وهذه الناحية النفسية هي التي تشرح لنا كيف يقع التجنيس للشاعر دون معاناة، إذا كان ملمًا بلغته محسًا بذوقها عالمًا بتصاريفها واشتقاقها... فالدارمي يعرف لغة أن "الخرق" هو الصحراء الواسعة ويعرف لغة أن الناقة التي تخرق الأرض تسمى "خرقاء" وهذه المعرفة تدفعه إلى التجنيس في لين وسهولة فيقول:

وَأَقْطَعُ الخرقَ بالخرقَاءِ لاَهِيَةً إذا الكواكبُ كانَتْ في الدُّنَا سُرُجًا

---

(١) نفس المصدر ص ١٨.

(٢) انظر أسرار البلاغة ص ١٧.

وجرير يعرف أسرة الفرزدق، ويعرف أن من بين أجداده "عقال وحابس" ويعرف كذلك معنى الحبس والعقال في اللغة، فيجري لسانه بهذا الجناس هاجيا الفرزدق:

فَمَا زالَ معقولاً عقالٌ عن النَّدَى وما زالَ محْبُوسًا عن المجدِ حابسُ

والفرزدق يعرف "خُفافًا" ويريد هجاءه فيقرن اسمه بالخفة، لأنه يعلم أن خير السحب أثقلها، وأن السحابة إذا خفت جفت، ولذا يدعو عليه أن يخفف الله سحابه وأن يبدله بها السافيات الحواصب إذ يقول:

خُفَافٌ أخفَّ اللهُ عنهُ سحابَهُ وأوسعَهُ من كلِّ سافٍ وحاصِبِ(١)

والشعر يشاركه النثر في هذه الملاحظة النفسية(٢).

وارجع إلى شواهد الجناس التي مرت بك من آيات كريمة وأحاديث شريفة، وشعر أو نثر صدر الجناس فيه عن طبع وجاء عفوًا، ثم استبدل بالألفاظ المتجانسة مرادفات لها، وانظر بعد ذلك لترى كيف زال الحسن والجمال، وذهب الرونق والبهاء، ومضت بلاغة الجناس التي كنت تشعر بها في تلك الشواهد...

☆☆☆

(١) خُفاف: بضم الخاء وتخفيف الفاء: اسم رجل وهو خُفَافُ بْنَ نُدْبَة السُّلَمِي أحد غربان العرب... انظر لسان العرب مادة: "خفَّ".

(٢) انظر بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ١١٧، وفنون بلاغية ٢٣٣.

السجع

السجع في اللغة: الكلام المقفى، أو موالاة الكلام على روي واحد، وجمعه أسجاع وأساجيع، وهو مأخوذ من سجع الحمام، وسجع الحمام هو هديله وترجيعه لصوته[١].

وفي اصطلاح البلاغة: تواطؤ الفاصلتين أو الفواصل على حرف واحد أو على حرفين متقاربين أو حروف متقاربة، ويقع في الشعر كما يقع في النثر... فمما تواطأت فيه الفواصل على حرف واحد قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤)﴾ [الطور: ١-٤] وقوله عز وجل: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣)﴾ [العاديات: ١-٣]. ومن التواطؤ على حروف متقاربة قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧)﴾ [ص: ٤-٧]، فالباء والدال والقاف حروف متقاربة... وكذا قوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢)﴾ [ق-١، ٢] فالدال والباء حرفان متقاربان...

ومن وقوعه في الشعر قول أبي تمام:

تجلَّى بهِ رُشْدِي وأثْرَتْ بهِ يَدِي ... وفاضَ به ثَمْدِي وأورَى بهِ زَنْدِي

وقول المتنبي:

فنحنُ في جذَلٍ والرُّومُ في وجَلٍ ... والبَرُّ في شُغُلٍ والبَحْرُ في خَجَلِ

هذا ويرى بعض البلاغيين كالسكاكي والخطيب أن السجع لا يكون إلا في النثر، وأنه لا يكون إلا بتواطؤ الفاصلتين أو الفواصل على حرف واحد، فليس منه التواطؤ على حروف متقاربة.

---

(١) انظر القاموس المحيط ولسان العرب مادة سجع والإتقان ٢/ ٩٧.

يقول الخطيب: "السجع تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد، وهذا معنى قول السكاكي: الأسجاع في النثر كالقوافي في الشعر..."(١)، والأولى ما ذكرناه، لأن السجع قد ورد في الشعر كما ورد في النثر، ولأن معظم البلاغيين جعلوا منه التواطؤ على حروف متقاربة.

الفقرة والقرينة الفاصلة

هذه الكلمات تردد كثيرًا في باب السجع وينبغي أن نعرف المراد بكل منها، فالفاصلة هي الكلمة الأخيرة من الفقرة أو القرينة، والفقرة أو القرينة بمعنى واحد وهي الجملة التي تنتهي بالفاصلة، فمثلاً قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر: ١-٢]، الفاصلة كلمة «القمر» في الآية الأولى، و «مستمر» في الآية الثانية والقرينة أو الفقرة، الآية كلها، كل آية فقرة أو قرينة.

شروط حسن السجع

ذكر ابن الأثير شروطًا أربعة ينبغي تحققها حتى يكون السجع حسنًا، فإذا فقدت أو فقد شرط منها لا يكون السجع حسنًا، وتلك الشروط هي:

١- أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة رنانة لا غثة ولا باردة.

٢- أن تكون التراكيب أيضًا صافية حسنة رائقة خالية من الغثاثة وذلك أن المفردات قد تكون حسنة، ولكنها عند التركيب تفقد هذا الحسن، ولذا شرط في التركيب ما شرط في المفرد، ومعنى الغثاثة والبرودة التي ينبغي أن تخلو منها الألفاظ والتراكيب أن يهتم المتكلم بالسجع، ويهمل الألفاظ والتراكيب فتأتي غثة باردة.

٣- أن يكون اللفظ فيه تابعًا للمعنى، لا أن يكون المعنى تابعًا للفظ وإلا كان كظاهر مموه على باطن مشوه.

٤- أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذي دلت عليه أختها، فإذا كان المعنى فيهما سواء فذلك هو التطويل

(١) الإيضاح ٤/ ٩٢.

بعينه، لأن التطويل إنما هو الدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها...[١].

وهذا الشرط الأخير لم يسلم لابن الأثير فقد فنده ابن أبي الحديد ذاكرًا أن السجعة الثانية إذا كانت بمعنى الأولى فهي تؤكد معناها، والتأكيد عمدة البيان، ثم ذكر أن القرآن الكريم قد ورد فيه ذلك في كثير من مواضعه، نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾﴾ [الناس: ١-٣] فالرب هنا والملك والإله بمعنى، فكل سجعة من هذه السجعات قد أعطت معنى الأخرى...

ومثله قوله عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ: ١٤ - ١٦]، فإن الجنات هي البساتين، ولا معنى للبساتين، إلا ما كان محتويا على الحب والنبات، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ [النبأ: ٢٧، ٢٨]، فإن عدم اعتقادهم في الحساب هو تكذيبهم بالآيات، ومثل هذا في القرآن العزيز كثير جدًا...[٢].

والذي نراه أن السجعة الثانية عندما تأتي بمعنى الأولى، فإن كانت مؤكدة لها أو مبينة وموضحة كما رأينا في الآيات، فذلك محمود، لأنه إطناب والإطناب من البلاغة... أما إذا كان تكرارها لا يزيد الأولى شيئًا، فذلك مذموم، لأنه من التطويل والتطويل عي.

ومنه قول الصابئ: "الْحَمْدُ لله الَّذِي لا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِأَلْحَاظِهَا، ولا تَحُدُّهُ الأَلْسُنُ بألفَاظِهَا، ولاَ تُخْلِقُه العُصُورُ بمُرُورِها، ولا تُهْرِمُهُ الدُّهُورُ بكُرُورِهَا، ثُمَّ الصلاةَ على النَّبِيِّ الذِّي لَمْ يَرَ للْكُفْرِ أَثَرًا إلاَّ طَمَسَهُ ومَحَاهُ وَلاَ رَسْمًا إلاَّ أَزَالَهُ وَعفَاهُ" فلا فرق هنا بين مرور العصور وكر الدهور، ولا بين محو الأثر وعفاء الرسم، فالسجعة الثانية مكررة وتكرارها لم يفد الأولى شيئًا، ولم يزد الكلام بهجة ولا أضفى عليه رونقًا، ولذا كان من التطويل المعيب.

---

(١) انظر المثل السائر ١/ ٢٧٦ - ٢٧٩.

(٢) انظر الفلك الدائر على المثل السائر ٤/ ١٧٩.

أنواع السجع

وللسجع أنواع مختلفة بعضها يكون في النثر والشعر، وبعضها يختص بالشعر، فأنواعه المشتركة بين النثر والشعر ثلاثة:

١-المطرف: وهو ما اختلفت فيه الفاصلتان أو الفواصل وزنًا واتفقت رويا، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: ١٣، ١٤]، فوزن ﴿وَقَارًا﴾ يختلف عن وزن ﴿أَطْوَارًا﴾ والروي واحد وهو حرف الراء... ومنه شعرا قول أبي تمام:

تجـلَّى بـه رُشْـدِي وَأَثْـرَتْ بـهِ يَـدِي   وفـاضَ بـه ثَمْـدِي وأورَى بـه زَنْـدِي

فرشدي ويدي: مختلفان وزنًا، متفقان رويًا، أما "رشدي وثمدي وزندي" فمتفقة في الروي والوزن معًا، والمراد بالوزن هنا الوزن العروضي لا الصرفي.

٢-المرصع: وهو أن يكون ما في إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثره مثل ما يقابله من الأخرى وزنًا وتقفية... كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، فالأبرار مثل الفجار، ونعيم مثل جحيم، وزنًا وتقفية...

ومثله قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]، وقوله عز وجل: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾ [العاديات: ١-٥].

وقوله ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ إلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلانِ فيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أعطِ مُنْفِقًا خَلَفًا وَيَقُولُ الآخرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا"[(١)].

ومنه قول الحريري:

"فهُوَ يَطْبعُ الأسْجَاعَ بِجَواهِرِ لَفْظِهِ، ويَقْرَعُ الأَسْمَاعَ بِزَواجِرِ وَعْظِهِ...".

---

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة برقم (١٤٤٢).

ومنه شعرًا قول أبي فراس الحمداني:

وأفعالُنــــا للــــرَّاغبينَ كرامـــــةٌ وأموالُنَـــا للطَّــالبينَ نهَـــابُ(١)

وقول الآخر:

فحريـــقُ جمَـــرةِ سَـــيْفِهِ للْمُعْتَـــدِي ورَحِيــقُ خمْـــرةِ سَـــبْيِهِ للْمُعْتَفِـــي

٣-المتوازي: وهو ما اتفقت فيه الفاصلتان فقط وزنًا وتقفية، كما في قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [الغاشية: ١٣، ١٤]، فإن «مرفوعة» و «موضوعة» متفقتان وزنًا ورويًا... ومنه قوله ﷺ: «اللهُمَّ إنَّا نَجْعَلُكَ في نُحُورِهِم، ونَعُوذُ بكَ مِنْ شُرُورِهِمْ"(٢). فنحورهم وشرورهم، متفقتان وزنًا وقافية.

ومنه شعرًا قول المتنبي:

فــنَحنُ في جَـــذَلٍ والـــرُّومُ في وَجَـــلٍ والْـبَرُّ في شُـغُلٍ والْبَحْـرُ في خَجَـلِ(٣)

فالشطر الأول مسجوع سجعًا متوازيًا، والشطر الثاني من السجع المرصع.

فإن اتفقت الفاصلتان في الوزن دون القافية سمي هذا باسم "الموازنة" كقوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الغاشية: ١٥، ١٦]، فلفظا: "مصفوفة ومبثوثة" متفقان في الوزن لا في القافية، فالأولى على الفاء والثانية على الثاء وهما حرفان متقاربان لا متفقان... ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ [مريم: ٨٣، ٨٤]، «فأزا» و «عدا» اتفقتا وزنًا واختلفتا قافية...

فإن كان ما في إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيها مثل ما يقابله من الأخرى في الوزن دون القافية خص باسم المماثلة كقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ [الصافات: ١١٧، ١١٨].

---

(١) نهاب: غنائم مفردها: نهب أي: غنيمة.

(٢) رواه أبو داود في الصلاة في تفريعات الوتر برقم (١٥٣٧).

(٣) الجذل: الفرح، والوجل: الخوف، والمعنى: نحن فرحون بالنصر والروم في خوف من غاراته، والبر مشتغل بجيشه الممتد والبحر في خجل من غزارة كرمه.

ومنه شعرا قول أبي تمام:

مَهَا الْوَحْشِ إلاَّ أنَّ هاتَا أَوَانِسُ ... قَنَا الخطِّ إلا أنَّ تِلْكَ ذَوَابِلُ

وقول البحتري:

فَأَحْجَمَ لما لَمْ يجدْ فِيكَ مَطْمَعًا ... وأقْدَمَ لما لَمْ يجد عنكَ مهربًا(١)

هذا وكما يقع السجع في كلام شخص واحد، فقد يقع في كلام شخصين، كما حكي أنه قيل لرجل: ما أحسن السجع؟ قال: ما راق في السمع، قيل: مثل ماذا؟ قال: مثل هذا... ومنه ما روي أن النبيﷺ سأل وهم في غزوة هوازن عمن قتل أحد الكفرة فقالوا له: "سَلَمَةُ بْنُ الأَكْوَعْ" فقال عليه الصلاة والسلام: «لَهُ سَلَبُهُ أَجْمَعْ»(٢).

وأما أنواعه الخاصة بالشعر فهي:

١-**التشطير**: وهو أن يجعل كل شطر من شطري البيت سجعتان بحيث تختلف سجعتا كل شطر عن سجعتي الشطر الآخر في القافية.

كما في قول أبي تمام:

تدبيرُ مُعْتَصِمٍ بالله مُنْتَقِمٍ ... للهِ مُرْتَقِبٍ في اللهِ مُرْتَغِبِ

٢-**التصريع**: وهو جعل كل شطر من شطري البيت فقرة، فتكون العروض مقفاة تقفية الضرب، وهذا النوع يحسن في أول أبيات القصيدة، وعند الانتقال من غرض إلى آخر كالانتقال من النسيب إلى المديح، وفيما عدا هذين الموضوعين، يحسن ما قل منه دون ما كثر.

ومن شواهده قول أبي فراس:

بِأَطْرَافِ الْمُثَقَّفَةِ الْعَوَالِي ... تَفَرَّدْتَا بِأَوْسَاطِ المَعَالِي

---

(١) الضمير في أحجم: يرجع للأسد الذي بارزه الممدوح والمعنى أن الأسد أحجم عنه لأنه لم يجد فيه مطمعا لقوته. فلما عرف أنه لا ينجو منه أقدم دهشًا إليه.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الجهاد برقم (٢٦٥٤).

وقول امرئ القيس:

ألاَ عِمْ صَبَاحًا أيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي ... وهَلْ يَنْعَمَنْ مَنْ كانَ في الْعُصُرِ الْخَالِي (١)

وقوله في مطلع معلقته:

قِفَا نبكِ مِنْ ذكرَى حبيبٍ ومنزلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بينَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وفي أثنائها:

أفَاطِمُ مَهْلاً بَعْضَ هذا التَّدَلُّلِ ... وإنْ كُنْتِ قدْ أَزْمَعْتِ صَرْمِي فَأَجْمِلِي

وقول أبي العتاهية:

الْفَقْرُ فيمَا جاوَزَ الْكَفَافَا ... مَنِ اتَّقَى اللهَ رَجَا وخَافَا

٣-أن يكون غير مصروع ولا مشطور... كما في قول الخنساء:

حامي الحقيقةِ محمودُ الخليفة مَهْـ ... دِيُّ الطريقةِ نَفَّاعٌ وضَرَّارُ

وقول أبي تمام:

تجلَّى بهِ رُشْدِي وأثْرتْ بهِ يَدِي ... وفاضَ به ثِمْدِي وأورَى بهِ زَنْدِي

بناء الأسجاع

وفواصل الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز، موقوفًا عليها؛ إذ الغرض أن يزاوج بينها ولا يتم ذلك في كل صورة إلا بالوقف والبناء على السكون... ففي قول قس بن ساعدة الإيادي: "مَنْ عَاشَ مَاتْ، ومَنْ ماتَ فَاتْ، وكُلُّ مَا هو آتٍ آتْ..." وقول الآخر: «ما أبْعَدَ مَا فاتْ، ومَا أَقْرَبَ مَا هُوَ آتْ» لو لم نقف بالسكون لفات الغرض من السجع؛ إذ التاء من "مات وفات" تصير مفتوحة ومن آت تصير مكسورة منونة، وذلك حسب إجراء حركات الإعراب أو البناء على آخر الفواصل، وهذا الإجراء لا يحقق التزاوج بين الفواصل، فوجب الوقوف عليها وتسكين أعجازها.

---

(١) عِمْ: أمر من وَعَم الديار أي: حيَّاها... والطلل: ما شخص من آثار الديار. والعُصُر: الدهر، وقد ضمت عينه مع صاده للوزن... والخالي: الماضي.

السجع من حيث طول الفقر وقصرها

والسجع على اختلاف أنواعه ينقسم من حيث طول فقره وقصرها إلى قسمين:

١-سجع قصير. ٢-سجع طويل.

فالقصير: ما كان مؤلفا من ألفاظ قليلة إذ يبدأ بكلمتين وينتهي إلى تسع كلمات أو عشر... كما في الآيات الكريمة: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ① فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ②﴾ [المرسلات: ١، ٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ⑤﴾ [المدثر: ١-٥]، ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ③﴾ [النجم ١-٣]، ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ① وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ② وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ③﴾ [القمر: ١-٣].

والطويل: ما كان مؤلفًا من ألفاظ طويلة... وتتفاوت درجاته في الطول، إذ يبدأ من إحدى عشرة لفظة، وينتهي إلى عشرين فما فوقها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ⑨ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ⑩﴾ [هود: ٩، ١٠]. وقوله عز وجل: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑫⑧ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ⑫⑨﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤٣ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ④④﴾ [الأنفال: ٤٣، ٤٤].

ويرى البعض أن السجع من حيث طول فقره وقصرها ثلاثة أقسام: طويل

ووسط وقصير. فالقصير يبدأ بكلمتين وينتهي إلى أربع كلمات والوسط يبدأ من خمس إلى عشر، والطويل ما فوق ذلك، ولا أرى فائدة لهذا الاختلاف، كما لا أرى فائدة وراء هذه التقسيمات. فالأولى أن يقال: إن السجع يبدأ بكلمتين وينتهي إلى العشرين أو ما قاربها...

السجع من حيث تساوي فقره وعدم تساويها

والسجع قد تتساوى فقره كما في قوله تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الواقعة: ٢٨-٣٠]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ [الضحى: ٩، ١٠]، وقد تطول الفقرة الثانية طولا لا يخرج بها عن حد الاعتدال كقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النجم: ١، ٢]، وقد تتساوى الأولى والثانية وتطول الثالثة كقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٢]، وقد تكون الثانية أقصر من الأولى قصرًا يسيرًا كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾﴾ [الفيل: ١، ٢].

وهذه الأنواع كلها حسنة وقد وردت في أساليب القرآن الكريم -كما رأينا-، ويذكر البعض أن أحسن السجع ما تساوت قرائنه، ثم ما طالت قرينته الثانية ثم الثالثة ثم ما قصرت قرينته الثالثة قصرًا يسيرًا...

ولا وجه لهذا التفضيل خاصة وأن الكل قد ورد في النظم الكريم، فالأولى أن يقال إن كل نوع منها حسن في موضعه... أما ما يستقبح فهو أن تطول الفقرة الثانية عن الأولى كثيرًا بحيث يخرج بها هذا الطول عن حد الاعتدال، لأن هذا يفوت على السامع لذة الاستمتاع بالقافية لبعدها بعدًا كثيرًا... كما يقبح أن تقصر الثانية عن الأولى قصرًا كثيرًا؛ لأن السجع إذا استوفى أمده من الأولى لطولها ثم جاءت الثانية أقصر منها كثيرًا، كان ذلك كالشيء المبتور، ويبقى السامع كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها... ولم يرد شيء من ذلك في أساليب النظم الكريم.

السجع عبر العصور

السجع مصطلح بلاغي عرف منذ العصر الجاهلي، قبل أن توضع مصطلحات العلوم، ومنذ معرفته في ذلك العصر وحتى الآن، ودلالته لم تتغير ولم تتبدل. وعلى الرغم من أن بعض العلماء قد أطلقوا على هذا الأسلوب في القرآن الكريم اسم "الفواصل" بدلا من السجع، إلا أن دلالته ظلت باقية حتى الآن... وكان للسجع منزلة سنية بين العرب في الجاهلية؛ فلقد كثر في كلامهم، وكان يصدر عن طبع سليم وسليقة قوية وفطرة واضحة...

من ذلك قول أوس بن حارثة موصيًا ابنه: "يا مالك، المنية ولا الدنية، والعتاب قبل العقاب، والتجلد لا التبلد، واعلم أن القبر خير من الفقر، وشر شارب المشتف، وأقبح طاعم المقتف، وذهاب البصر خير من كثير النظر"(١).

وقول قس بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ: "أيها الناس اسمعوا وعوا، من عاش مات ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر وبحار تزخر....".

وقول عبد المطلب بن هاشم يهنئ سيف بن ذي يزن باسترداده ملكه من الحبشة: "إن الله تعالى -أيها الملك- أحلك محلا رفيعًا، صعبًا منيعًا، باذخًا شامخًا، وأنبتك منبتًا طابت أرومته، وعزت جرثومته، وثبت أصله، وبسق فرعه، في أكرم معدن وأطيب موطن..."(٢).

وإلى جانب هذا السجع الفطري، وجد نوع آخر من السجع المتكلف وهو سجع الكهان، كقول سطيح بن مازن وهو من كهان العرب، في تعبير رؤيا ربيعة بن نصر اللخمي أحد ملوك اليمن: "أحلف بما بين الحرتين من حنش، ليهبطن أرضكم الحبش وليملكن ما بين أبين إلى جرش"(٣)...

---

(١) المشتف: المستقصي، والمقتف: العجول.

(٢) الباذخ: العالي: والأرومة وكذلك الجرثومة: الأصل.

(٣) الحرتان: تثنية حرة وهي أرض ذات حجارة نخرة سود، والحنش: الذباب والحية وكل ما يصاد من الطير والهوام وحشرات الأرض، وجرش: مخلاف باليمن.

وقول شق أنمار من كهان العرب في تعبير تلك الرؤيا: "أحلف بما بين الحرتين من إنسان لينزلن أرضكم السودان، وليغلبن على كل طَفْلَةِ البنان وليملكن إلى ما بين أبين ونجران"[١].

وقول الكاهن الخزاعي في تنفير هاشم بن عبد مناف على أخيه أمية بن عبد شمس: "والقمر الباهر والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو من طائر وما اهتدى بعلم مسافر من منجد أو غائر، لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر..."

وفي العصر الإسلامي، نهى النبيﷺ عن سجع الكهان، فقد روي أنهﷺ ، قضى في جنين امرأة ضربتها أخرى فسقط ميتًا، بغرة أي: عبد أو أمة على عاقلة الضاربة، فقال رجل منهم: كيف ندي من لا شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، ومثل ذلك دمه يُطَلُّ"[٢]، فقال ﷺ: «إيَّاكُمْ وسَجْعَ الْكُهَّانِ، أوْ أَسَجْعًا كَسَجْعِ الْكُهَّانِ»، وفي رواية: «أَسَجْعَ الْـجَاهِلِيَّةِ وكَهَانَتَهَا»[٣].

وسبب نهيه عليه الصلاة والسلام عن سجع الكهان، يرجع إلى ما فيه من التكلف والتصنع، وما تضمنه من أحكام تخالف تعاليم الإسلام، وما يقصد إليه الكاهن من التزييف وتزيين الباطل كي يعلو على الحق... ولم يقصد عليه الصلاة والسلام- النهي عن السجع مطلقًا، بل قصد النهي عن هذا النوع منه وهو سجع الكهان...

ودليل ذلك أن أسلوب السجع قد ورد في النظم الكريم على نحو ما رأينا، كما ورد في أقوالهﷺ ، من ذلك قوله: «يقول العبد مالي مالي، وهَلْ لَكَ يا ابْنَ آدمَ مِنْ مَالِكَ إلاَّ مَا أَكَلْتَ فأَفْنَيتَ أَوْ لَبِسْتَ فأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فأمْضَيْتَ»[٤]. وقوله: «أيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلام وأطعِمَوا الطَّعَام، وَصِلُوا الأرْحَام، وصَلُّوا بالليل والنَّاسُ نِيَام تَدْخُلُوا الْـجَنَّةَ بِسَلامَ"[٥]، وفي أقوال أصحابه رضوان الله عليهم... من ذلك قول عبد الله بن

---

(١) طفلة البنان: رخصة البنان أي ناعمته: بفتح الطاء واللام وسكون الفاء.

(٢) يطل: أي يهدر... مبني للمفعول.. يقال: طُلَّ دمه طَلاًّ أي: أُهْدِرَ.. انظر لسان العرب مادة: طَلّ.

(٣) رواه أبو داود في الديات باب "دية الجنين" برقم (٤٥٧٤).

(٤) رواه مسلم في الزهد برقم (٣- ٢٩٥٨) والترمذي في الزهد أيضًا برقم (٣١- ٢٣٤٢).

(٥) رواه الترمذي في الأطعمة برقم (١-٣٢٥١)، وفي الإقامة برقم (١٣٣٤).

عباس في وصف أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «رحم الله أبا بكر كان والله للقرآن تاليا وعن المنكر ناهيا، وبذنبه عارفا ومن الله خائفا وعن الشبهات زاجرا وبالمعروف آمرًا، وبالليل قائما وبالنهار صائما، فاق أصحابه ورعا وكفافا، وسادهم زهدا وعفافا».

وإذا كان سجع الكهان قد اختفى بمجيء الإسلام، فقد ظهر نوع آخر من السجع أغرق منه في الكذب والضلال، وأكثر منه اضطرابًا في النظم وسماجة التركيب، ألا وهو سجع مدعي النبوة الذين استخفوا قومهم فأطاعوهم...

من ذلك قول مسيلمة الكذاب.: "يا ضفدع نقي نقي، كم تنقين لا الماء تكدرين ولا الشراب تمنعين..." وقوله: "سبح اسم ربك الأعلى الذي يسر على الحبلى، فأخرج منها نسمة تسعى، من بين أحشاء ومعى، فمنهم من يموت ويدس في الثرى، ومنهم من يعيش ويبقى إلى أجل ومنتهى والله يعلم السر وأخفى، ولا تخفى عليه الآخرة والأولى..."[١].

وإذا ما استثنينا هذا النوع وهو سجع مدعي النبوة، نجد أن أسلوب السجع ظل قويًا مطبوعًا وبخاصة في الوصايا والحكم والوعظ والأجوبة والنوادر وغير ذلك من فنون القول حتى أواسط القرن الرابع الهجري حيث امتزج العجم بالعرب، ودب الفساد في اللغة، وعدل القوم عن الأسلوب الفطري المطبوع، وتحولوا إلى الزخرف والزينة، فكان الإسراف والإفراط، وظهرت الصنعة والتكلف، ليس في السجع فقط، بل في مختلف الفنون البلاغية...

آراء العلماء في أسلوب السجع

ولا تفوتنا الإشارة بإيجاز إلى آراء العلماء في أسلوب السجع من حيث الإباحة والحظر ومن حيث جواز إطلاقه على ما في القرآن الكريم من فواصل وعدم الجواز فقد اختلفت آراء العلماء في ذلك، فمنهم من عاب أسلوب السجع وعده من الأساليب التي تقوم أكثر ما تقوم على الصنعة وعلى التكلف والتعسف وهم يستدلون على وجهة نظرهم هذه بما آل إليه حال البيان العربي من تدهور وانحطاط في العصور التي شاع فيها استعمال السجع...

---

(١) انظر نهاية الإيجاز ص ٣٤ وثمار القلوب ص ١١٥.

ومنهم من استحسنه ودافع عنه محتجًا بأنه لو كان مذمومًا لما ورد في النظم الكريم؛ حيث لا تكاد سورة تخلو منه، بل إن من سوره ما جاءت جميعها مسجوعة كسورة القمر وسورة الرحمن وغيرهما... ومنهم من أجاز إطلاق السجع على ما في القرآن الكريم... ومنهم من منعه وأطلق عليه اسم "الفواصل".

وخلاصة الرأي في هذا الخلاف، أن منع إطلاق مصطلح السجع على ما في القرآن الكريم إنما هو لرعاية الأدب فقط، لأن السجع في الأصل هديل الحمام ونحوه، ولأنه قد شاع إطلاق هذا المصطلح على أقوال الكهان ولم يرد نص شرعي صريح يمنع من إطلاق السجع على ما في القرآن الكريم، أما نهي النبي ﷺ عن السجع فهو مقيد بسجع الكهان، وليس مطلقًا وقد مر بنا سبب هذا النهي... والسجع كغيره من ألوان البلاغة إنما يستحسن ويستجاد إذا صدر عن طبع وجاء عفوا وقاد إليه المعنى، أما إذا تكلف وتصنع، وصار هو الذي يقود إلى المعنى، فإنه يستقبح ويعاب ويرد على قائله...

يقول عبد القاهر: "ولن تجد أيمن طائرا ولا أحسن أولا وآخرا، وأهدى إلى الإحسان وأجلب إلى الاستحسان من أن ترسل المعاني على سجيتها، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس منها إلا ما يليق بها، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها... فأما أن تضع في نفسك أنك لابد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين، فهو الذي أنت منه بعرض الاستكراه، وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم..."(١).

بلاغة السجع

وترجع بلاغة السجع إلى أنه يؤثر في النفس تأثير السحر ويلعب بالأفهام لعب الريح بالهشيم، لما يحدثه من النغمة المؤثرة والموسيقى القوية التي تطرب لها الأذن وتهش لها النفس، فتقبل على السماع من غير أن يداخلها

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٣.

ملل أو يخالطها فتور، فيتمكن المعنى من الأذهان، ويقر في الأفكار، ويعز لدى العقول(١)...

كما أن من مزايا السجع في النظم الكريم شدة ارتباط الفاصلة وتماسكها بما قبلها من الكلام بحيث تنحدر على الأسماع انحدارا، وكأن ما سبقها لم يكن إلا تمهيدًا لها وبحيث لو حذفت لاختل معنى الكلام، ولو سكت عنها لاستطاع السامع أن يختمه بها انسياقًا مع الطبع والذوق السليم...

انظر إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢٢]، تجد أن كلمة «ضيزى» الواقعة في الفاصلة تتماسك مع المعنى وتنحدر على الأسماع وتنساق مع السياق انسياقًا تامًا، وهي لفظة غريبة ولكن غرابتها من أشد الأشياء ملاءمة لغرابة تلك القسمة التي أنكرها النظم الكريم(٢)، وذلك هو شأن الفواصل في جميع آي الذكر الحكيم...

* * *

رد الأعجاز على الصدور

ورد العجز على الصدر أو الأعجاز على الصدور، من الفنون البديعية التي فطن لها القدماء، فقد جعله ابن المعتز أحد الفنون الخمسة الرئيسية للبديع وسماه: "رد أعجاز الكلام على ما تقدمها" وأشار إلى أنه يرد في النثر كما يرد في الشعر... وقد عرفه المتأخرون من البلاغيين بأنه: "أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بالمتجانسين في أول الفقرة والآخر في آخرها، هذا في النثر، أما في الشعر فهو أن يكون أحد اللفظينِ في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الأول أو في حشوه أو في آخره أو في صدر المصراع الثاني(٣).

واللفظان المكرران هما المتفقان في اللفظ والمعنى، والمتجانسان هما المتشابهان

---

(١) انظر الصبغ البديعي ٤٩٧.

(٢) انظر إعجاز القرآن للرافعي ص ٢٦١.

(٣) انظر الإيضاح ٤/ ٨٧.

في اللفظ دون المعنى -كما مر بنا في الجناس- وأما الملحقان بهما أي بالمتجانسين فهما اللفظان اللذان يجمعهما الاشتقاق أو شبهه...

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقوله عز وجل: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح: ١٠]، ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨] ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٨]، ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]...

ومن أقوالهم: "القتل أنفى للقتل"... "الحيلة ترك الحيلة"... "سائل اللئيم يرجع ودمعه سائل"... ومنه شعرًا قول الأقيشر الأسدي:

سَرِيعٌ إلى ابنِ الْعَمِّ يَلْطِمُ وجهَهُ وليسَ إلى داعِي النَّدَى بِسَرِيع

وقول الشافعي رحمه الله:

مَشَيْنَاهَا خُطًى كُتِبَتْ علينَا وَمَنْ كُتِبَتْ عليهِ خُطًى مَشَاهَا

وقول القاضي الأرجاني:

دَعَانِي من مَلاَمِكُمَا سِفَاهًا فداعِي الشَّوْقِ قَبْلَكُمَا دَعَانِي

وقول امرئ القيس:

إذا المرءُ لمْ يَخْزِنْ عليهِ لِسَانَهُ فَلَيْسَ على شَيْءٍ سِوَاهُ بِخَزَّانِ

وقول أبي الأسود الدؤلي:

وما كلُّ ذِي لُبٍّ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ ولا كلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبِ

وقول الآخر:

إذا لم تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعْهُ وجَاوِزْهُ إلى ما تَسْتَطِيعَ

وقول الحماسي:

تَمَتَّعْ من شَمِيمِ عَرارِ نَجْدٍ فما بَعْدَ الْعَشِيَّةِ من عَرارِ (١)

(١) شميم: مصدر شم، والعرار: بهار ناعم أصفر طيب الرائحة، أو النرجس البري.

وقول جرير:

زَعَمَ الفرزدقُ أنْ سَيَقْتُلَ مِرْبعًا ... أَبْشِرْ بِطُولِ سَلاَمَةٍ يا مِرْبعُ

وقول الحريري:

فَمَشْغُوفٌ بآيَاتِ المَثَانِي ... ومَفْتُونٌ بِرَنَّاتِ المَثَانِي (١)

وقول الآخر:

فَدَعِ الْوَعِيدَ فمَا وَعِيدُكَ ضائِرِي ... أَطَنِينُ أَجْنحَةِ الذُّبَابِ يَضيرُ

وقول أبي تمام:

وقَدْ كَانَتِ البِيضُ القَوَاضِبُ في الْوَغَى ... بَوَاتِرَ فَهِيَ الآنَ من بَعْدِهِ بُتْرُ (٢)

وقول الآخر:

نَاظِرَاهُ فِيمَا جَنَى نَاظِرَاهُ ... أَوْ دَعَانِي أَمُتْ بِمَا أَوْدَعَانِي

وقول القاضي الأرجاني:

أمَّلْتُهُمْ ثمَّ تَأَمَّلْتُهُمْ ... فَلاحَ لي أنْ لَيْسَ فيهمْ فَلاَحُ (٣)

هذا ولا يخفى عليك معرفة نوع اللفظين في الشواهد المذكورة، أهما مكرران أم متجانسان أم ملحقان... كما لا يخفى عليك معرفة موضع اللفظ الأول المردود عليه في الشواهد الشعرية أهو في أول المصراع الأول أم في حشوه أم في آخره أم في أول المصراع الثاني...

ما الفرق بين الإرصاد ورد الأعجاز على الصدور؟

مر بنا أن الإرصاد هو أن تجعل قبل العجز ما يدل عليه إذا عرف الروي، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

---

(١) المثاني: الأولى آيات القرآن والثانية أوتار المزامير.

(٢) بواتر: جمع باتر وهو القاطع، وبتر بضم الباء وسكون التاء جمع أبتر وهو المقطوع.

(٣) أملت: بفتح الميم المشددة: رجوت الخير وتأملت: نظرت في أحوالهم.

وقول زهير بن أبي سلمى:

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الحَيَاةِ ومَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلاً –لا أبا لكَ– يَسْأمِ

وقول عدي بن الرقاع:

تُزْجِي أَغَنَّ كَأنَّ إِبَرَةَ رَوْقِهِ قَلَمٌ أصَابَ مِنَ الدَّواةِ مِدَادَهَا

فقد دل قوله عز وجل: «ليظلمهم» على أن ختام الآية الكريمة «يظلمون» ودل قول زهير: "سئمت" على أن عجز البيت "يسأم" ودل قول عدي" قلم أصاب من الدواة" على أن عجز البيت "مدادها".

وعندما نتأمل الشواهد في رد الأعجاز على الصدور، نجد أن الصدر المردود عليه قد دل على العجز، فما الفرق إذًا بينه وبين الإرصاد؟ الفرق بينهما هو أن رد الأعجاز على الصدور قد قيد بكون اللفظين إما مكررين أو متجانسين أو ملحقين بالمتجانسين، أما الإرصاد فلم يقيد بذلك، فالدال على العجز في الإرصاد قد يكون هو نفس العجز كما في الآية الكريمة وبيت زهير فيكون من التكرار وقد يكون مجانسا له أو ملحقًا بالمتجانس، وقد يكون غير ذلك كما في بيت عدي... وبهذا نستطيع أن نقول: إن الإرصاد أعم من رد الأعجاز على الصدور...

بلاغة رد الأعجاز على الصدور

وترجع بلاغة هذا الفن إلى أمرين: أولهما: دلالته على تأكيد المعاني وتقريرها، وذلك أن اللفظ عندما يكرر أو يذكر مجانسًا للآخر يتأكد معناه في ذهن السامع ويتقرر...

انظر إلى قول القائل:

عَمِيدُ بني سُلَيْمٍ أَقْصَدَتْهُ سِهَامُ المَوْتِ وَهِيَ لَهُ سِهَامُ

تجد أن تكرار السهام قد قرر المعنى وأكد المأساة، فهذا بطل شجاع ظل طوال حياته يقاتل حاملا سهام الموت التي يوجهها إلى أعدائه، ثم إن تلك السهام لم تغفل عنه فقد قصدته ولم تبق عليه، فاعجب للموت ينزل به الموت والرجل يصاب بمثل سهمه...

وتأمل قول الآخر:

وَمَا كُلُّ ذِي لُبٍّ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ ولاَ كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبِ

تجده يحذر من قبول نصيحة الناصح دون ترو في قبولها وتأن في أخذها، ثم يؤكد بالمجانسة بين: لب ولبيب(١) فأنت أمام رجلين أحدهما ذو لب بخيل بنصيحته، والآخر جاهل يؤتى النصيحة عن جهل وحماقة، وإذا كان الأمر كذلك فعليك بالتروي والتأني في قبول النصيحة.

ثانيهما: دلالة أول الكلام على آخره، وارتباط آخره بأوله، وتلك هي البلاغة -كما أوضحنا في حديثنا عن الإرصاد -فقد قال الخبراء بفن القول: البلاغة أن يكون أول كلامك دالاً على آخره، وآخره مرتبطًا بأوله... وقد كان صناع الكلام يفخرون بدلالة أول كلامهم على آخره، وارتباط آخره بأوله، كما كان النقاد يفطنون للكلام الجيد المتماسك ويدركون آخره عند سماعهم لأوله(٢)...

***

لزوم ما لا يلزم

لزوم ما لا يلزم -كما يقول ابن الأثير- من أشق هذه الصناعة، أي: صناعة الكلام مذهبًا وأبعدها مسلكًا وذلك لأن مؤلفه يلتزم فيه بما لا يلزمه... وقد عده ابن المعتز في كتابه البديع من محاسن الكلام وسماه: إعنات الشاعر نفسه في القوافي وتكلفه من ذلك ما ليس له...

وقد عرفه الخطيب القزويني بقوله: "هو أن يجيء قبل حرف الروي أو ما في معناه من الفاصلة ما ليس بلازم في السجع"(٣) فالشاعر أو الناثر قد يلتزم في كلامه بحرف أو أكثر قبل حرف الروي، وهذا يعد حسنًا إذا صدر عن طبع وجاء عفوا أما إذا تكلف وتصنع كان قبيحًا كما هو الشأن في سائر ألوان البديع.

---

(١) بين اللفظين جناس الاشتقاق، فاللب هو العقل، ولبيب: نابه عاقل فاهم.

(٢) ارجع إلى حديثنا عن الإرصاد وبلاغته.

(٣) انظر الإيضاح ٤/ ١٠٣.

ومن شواهده في النظم الكريم قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضحى: ٩، ١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾ [الطور: ١ - ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾ [القيامة: ٢٩، ٣٠]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝٢٠٢﴾ [الأعراف: ٢٠٢]، فقد التزم قبل حرف الروي في تلك الآيات بحرف في بعضها وبأكثر في البعض الآخر، ولا يخفى أن هذا غير مقصود في الآيات الكريمة، وقد اقتضاه المقام واستدعته المناسبة وجاء تابعًا للمعنى، وليس المعنى تابعًا له...

ومن أقوالهم قول بديع الزمان الهمذاني: "هلموا إلى كلامه فهو بعيد الإشارات قليل الاستعارات، قريب العبارات"، وقول الحريري: "ملت في ريق زماني الذي غبر، إلى مجاورة أهل الوبر، لآخذ نفوسهم الأبية وألسنتهم العربية"...

ومنه شعرًا قول طرفة بن العبد:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ المالَ يُكْسِبُ أهلَهُ ... فضوحًا إذا لمْ يُعْطَ منهُ نواسبُهُ

أَرَى كلَّ مالٍ لا محَالةَ ذاهبًا ... وأفضلَهُ يبقَى وإن هانَ كاسبُهُ

وقول الفرزدق:

مَنَعَ الحياةَ من الرجال ونَفْعَهَا ... حَدَقٌ تُقَلِّبُهَا النِّسَاءُ مِرَاضُ

وكأَنَّ أَفْئِدَةَ الرِّجَالِ إذا رَأَوْا ... حَدَقَ النِّسَاءِ لِنَبْلِهَا أَغْرَاضُ (١)

وقول الآخر:

سأشكُرُ عَمْرًا إن تراخَتْ مَنِيَّتِي ... أَيَادِيَ لمْ تُمْنَنْ وإنْ هِيَ جَلَّتِ

فتًى غيرُ محْجُوبِ الْغِنَى عن صِدِيقِهِ ... ولا مُظْهِرُ الشَّكْوَى إذا النَّعْلُ زلَّتِ

---

(١) حدقٌ: مفردها حدقة إذ تجمع الحدقة على حداق وأحداق، وحدق، والحدقة: السواد المستدير وسط العين، ومراض في عيونهن فتور، والنبل: سهام الأعين على سبيل الاستعارة لنظراتها...

رأى خُلَّتِي من حيثُ يخْفَى مَكَانُها   فكانَتْ قَذَى عَيْنَيْهِ حتَّى تجَلَّتِ

وقول كثير عزة:

خليليَّ هذا ربعُ عَزَّةَ فاعْقِلاَ   قَلوُصَيْكُمَا ثُمَّ احْلُلاَ حيثُ حَلَّتِ

وما كنتُ أدرِي قَبْلَ عَزَّةَ مَا الْهَوَى   ولا موُجِعَاتِ الْحُزْنِ حتَّى تَوَلَّتِ

وقول ابن الرومي:

يقولُونَ في الْبُسْتَانِ للعينِ لذةٌ   وفي الخُمْرِ والماءِ الذي غَيْرُ آسِن

إذا شئتَ أن تَلْقَى المحاسِنَ كلَّهَا   ففي وَجْهِ من تَهْوَى جَمِيعُ المحاسِنِ

وقول أبي تمام:

خدمَ الْعُلاَ فَخَدَمْنَهُ وهيَ التي   لاَ تَخْدُمُ الأَقْوَامَ ما لَمْ تُخْدَمِ

فإذا ارتقَى في قُلَّةٍ من سُؤْدَدٍ   قَالتْ لَهُ الأُخْرَى: بَلَغْتَ تَقَدَّمِ

وقول ابن أذينة:

إنَّ التي زَعَمَتْ فُؤَادَكَ ملَّهَا   خُلِقَتْ هواكَ كمَا خُلِقْتَ هوىً لهَا

بيضاءُ باكَرَها النَّعِيمُ فَصَاغَهَا   بِلَبَاقَةٍ فَأَدَقَّهَا وأَجَلَّهَا

هذا والتزام ما لا يلزم لدى المتقدمين كما يبدو من شعرهم يأتي عفو الخاطر غير مقصود ولا متعمد، ولذا لا ترى عليه أثرًا للتكلف أو الصنعة... أما المتأخرون فقد توسعوا فيه وأكثروا منه، ومنهم من تعمده وقصد إليه قصدًا، وكأنما يريد أن يدل على مقدرته في النظم وسعة إحاطته بمفردات اللغة... ومن هؤلاء أبو العلاء المعري، فله ديوان يسمى باللزوميات أتى فيه بالجيد الذي يحمد وبالرديء الذي يذم.

ومن جيده قوله:

أرَى الدُّنَيا وما وُصِفَتْ ببرٍّ   إذا أَغْنَتْ فَقِيرًا أَرْهَقَتْهُ

إذا خُشِيَتْ لِشَرٍّ عَجَّلَتْهُ   وإنْ رُجِيَتْ لخَيْرٍ عَوَّقَتْهُ

حيـــاةٌ كَالحِبَالـــةِ ذاتُ مَكْـــر وَنَفْـــسُ المَـــرْءِ صَـــيْدًا أَعْلَقَتْـــهُ
فـــلا يُخْـــدَعْ بِحِيلَتِهَـــا أريـــبٌ وإنْ هِـــيَ سَـــوَّرتْهُ ونَطَّقَتْـــهُ
أذَاقَتْـــهُ شَـــهِيًّا مِـــنْ جَنَاهَـــا وَصَـــدَّتْ فَـــاهُ عـــمَّا ذَوَّقَتْـــهُ

وكما يكون التزام ما لا يلزم في الحرف يكون في الحركة وحدها، كما في قول ابن الرومي:

لِمَـا تُـؤْذِنُ الـدُّنْيَا بـهِ مـن صُرُوفهَـا يكـونُ بكـاءُ الطِّفْـلِ سَـاعَةَ يُولَـدُ
وإلاَّ فـمَا يُبْكِيـهِ منهَـا وإنَّهَـا لأَوْسَـعُ مِمَّـا كَـانَ فيـهِ وَأَرْغَـدُ

ومما تجدر الإشارة إليه أن هنالك فرقًا بين لزوم ما يلزم ولزوم ما لا يلزم في القوافي؛ فمن باب لزوم ما يلزم قول القائل:

في شِـعَابِ النِّـسْيَانِ أُفْـرَدُ وَحْـدِي فَعَـبَرْتُ الأَيَّـامَ حيًّـا كَمَيْـتِ
أَجِـدُ الْغَـدْرَ والْعُقُـوقَ مِـنَ النَّـاسِ وأَلْقَـى الظَّـلامَ في عُقْـرِ بَيْتـي

فقد التزم الشاعر هنا حرف الياء الساكنة قبل القافية "التاء" والياء هنا ردف يجب عليه الالتزام به في جميع أبيات القصيدة فتركه يعد عيبًا من عيوب القافية... أما لزوم ما لا يلزم فلا يعد تركه عيبًا، بل يجوز للشاعر أن يلتزم به وأن يعدل عنه...

وخلاصة القول أن لزوم ما لا يلزم يعد من محاسن الكلام إذا وفق فيه الأديب فجاء عفوًا بلا تكلف، وكان المعنى هو الذي يقود إليه ويستدعيه، وليس هو الذي يقود إلى المعنى، وإلا عد من مساوئ الكلام وقبحه لا من محاسنه.

☆☆☆

السرقات الشعرية

أول من أشار إلى موضوع السرقات الشعرية هو الجاحظ وذلك في معرض حديثه عن التأثر والتأثير بين الشعراء؛ إذ يقول: "لا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام، وفي معنى غريب عجيب، أو في معنى شريف كريم، أو في بديع مخترع، إلا كل من جاء من الشعراء من بعده أو معه، إنه هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يَدَّعِهِ بأسره، فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكًا فيه، كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف فيه ألفاظهم وأعاريض أشعارهم، ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه، أو لعله أن يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط، وقال: إنه خطر على بالي من غير سماع كما خطر على بال الأول"(١).

ثم كثر الحديث بعد ذلك عن سرقات الشعراء، وألفت فيها كتب، فرأينا "سرقات الشعراء" لعبد الله بن المعتز، و"سرقات أبي تمام" لأحمد بن أبي طاهر، وأحمد بن عمار، و "سرقات البحتري من أبي تمام" لأبي الضياء بشر بن تميم، كما كتب مهلهل بن يموت في "سرقات أبي نواس".

وقد تعرض البلاغيون لهذا الموضوع، وتناولوه بالدراسة والبحث، فقرروا أن اتفاق الشاعرين في الغرض العام كالوصف بالشجاعة والسخاء والفقر والثراء والبلادة والذكاء، لا يعد سرقة، لأن هذه أمور متقررة في النفوس، ومصورة أمام العقول، يشترك فيها العامة والخاصة... أما اتفاقهما في وجه الدلالة على الغرض من تشبيه أو مجاز أو كناية أو حقيقة، فإن كان مما يشترك الناس في معرفته لاستقراره في العقول وجريان العادة والعرف به كتشبيه الحسناء بالبدر والشمس والجواد بالغيث والبحر، والبليد البطيء الفهم بالحجر والحمار، والشجاع الماضي بالسيف والنار، واستعارة الأسد للشجاع، والكناية عن الكرم بكثرة الرماد وهزال الفصيل، وكوصف الجواد بالتهلل عند ورود العفاة، والارتياح لرؤيتهم ووصف البخيل بالعبوس وقلة البشر، ووصف الشجاع حال الحرب بالابتسام وسكون الجوارح ووضوح الوجه لعدم مبالاته بعدوه...

---

(١) الحيوان ٢-١١٥.

من ذلك قول الشاعر:

كــأنَّ دنــانيرًا عــلى قَــسِمَاتِهِمْ وإنْ كــانَ قــد شَــفَّ الْوُجُــوهَ لِقَــاءُ

فلا يعد اتفاقهما عندئذ سرقة... وإن كان وجه الدلالة على الغرض مما لا ينال إلا بفكر وروية، ولا يصل إليه كل أحد، لكونه في أصله خاصيًا غريبًا، كقول عدي بن الرقاع:

تُزْجِــي أَغَــنَّ كــأنَّ إِبْــرَةَ رَوْقِــهِ قَلَــمٌ أَصَــابَ مِــنَ الــدَّواةِ مِــدَادَها

وقول أبي تمام في مدح أحمد بن المعتصم:

إقــدامُ عمــرو في ســماحة حــاتمٍ في حِلْــمِ أحْنَــفَ في ذَكَــاءِ إِيَــاس

فلما انتقد بأن الأمير أرفع وأعز من هؤلاء، قال معتذرًا:

لا تُنْكِــرُوا ضَرْبي لَــهُ مَــنْ دُونَــهُ مَــثَلاً شَرُودًا في النَّــدَى والْبَــاسِ

فــاللهُ قــدْ ضَرَبَ الأَقَــلَّ لنُــورِهِ مَــثَلاً مــنَ المــشْكَاةِ والنِّــبْرَاسِ

أو لكونه في أصله عاميًا مبتذلاً وتصرف فيه بما يخرجه من العامية إلى الخاصية، كقول علي بن الجهم:

عَــشِيَّةَ حَيَّــاني بِــوَرْدٍ كَأَنَّــهُ خُــدُودٌ أُضِــيفَتْ بعــضُهُنَّ إلى بعــضِ

وقول المتنبي:

لمْ تَلْــقَ هــذا الْوَجْــهَ شَــمْسُ نهَارِنَــا إلاَّ بِوَجْــهٍ لَــيْسَ فيــهِ حَيَــاءُ

فتشبيه الخد بالورد أو الورد بالخد تشبيه عامي مبتذل، وكذا تشبيه الوجه بالشمس ولكن الشاعرين تصرفا فيه بما أخرجه عن الابتذال حيث جعل عليٌّ الخدود مضافًا بعضها إلى بعض، وجعل المتنبي للشمس وجهًا قد انتزع منه الحياء... فمثل هذا هو الذي تقع فيه السرقة، وإن اتفق فيه الشاعران يقال إن أحدهما قد سطا على الآخر وسرق منه وانتحل قوله، أو أغار عليه ومسخ، أو ألم به وسلخ إلى آخر ما ذكره البلاغيون في وصف السرقة وتعداد أقسامها.

أقسام السرقة

جعل البلاغيون السرقة قسمين، سرقة ظاهرة، وسرقة غير ظاهرة، فالسرقة الظاهرة أنواع منها:

١-النسخ: ويقال له أيضا الانتحال، وهو أخذ المعنى واللفظ معا أو أخذ المعنى ومعظم اللفظ من غير تغيير لنظمه، وهو مذموم لأنه سرقة محضة، من ذلك ما روي أن عبد الله بن الزبير دخل على معاوية فأنشده:

إذَا أنـتَ لمْ تُنْـصِفْ أخـاكَ وَجَدْتَـهُ   عـلى طَـرَفِ الْهِجْـرَانِ إنْ كـانَ يَعْقِـلُ

وَيَرْكَـبُ حَـدَّ الـسَّيفِ مـن أنْ تَـضِيمَهُ   إذا لـمْ يَكُـنْ عـنْ شَفْرَةِ السَّيْفِ مَزْحَلُ (١)

ثم دخل معن بن أوس المزني فأنشده قصيدته التي مطلعها:

لعَمْـرُكَ مـا أَدْرِي وإنِّي لأَوْجَـلُ   عَـلَى أَيِّنَـا تَعْـدُو الْمَـنِيَّةُ أَوَّلُ

حتى أتى عليها وفيها بيتا عبد الله فأقبل معاوية على عبد الله وقال له: ألم تخبرني أنهما لك؟ فقال: المعنى لي واللفظ له، وبعد فهو أخي من الرضاعة وأنا أحق بشعره.

وروي لأوس ولزهير هذا البيت:

إذا أنتَ لمْ تُعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِ والْخَنَا   أَصَـبْتَ حَلِـيمًا أوْ أصَـابَكَ جاهِـلُ

وروي للفرزدق:

أَتَعْـدِلُ أحـسابًا لِئَامًـا حُمَاتُهَـا   بأحـسابِنَا إنِّي إلى اللهِ راجِـعُ

ولجرير:

أتَعْـدِلُ أحـسابًا كِرَامًـا حُمَاتُهَـا   بأحـسابِكُم إنِّي إلى اللهِ راجِـعُ

---

(١) الضيم: الظلم، ومزحل بفتح الميم والحاء وسكون الزاي: مبعد.

وروي للأبيرد اليربوعي:

فتَــى يَــشْتَرِي حُــسْنَ الثَّنَــاءِ بمالــهِ　　إذَا الــسَّنَةُ الــشَّهْبَاءُ أَعْوَزَهَــا الْقَطْــرُ(١)

ولأبي نواس:

فتَــى يَــشْتَرِي حُــسْنَ الثَّنَــاءِ بمالــهِ　　ويَعْلَـــمُ أنَّ الـــدَّائِرَاتِ تَـــدُورُ

وروي لأحد المتقدمين يمدح معبدًا:

أجــادَ طُــوَيْسٌ والــسُّريجِيُّ بَعْــدَهُ　　ومــا قَــصَبَاتُ الــسَّبْقِ إلا لِــمَعْبَدِ

ولأبي تمام:

محَاسِــنُ أَصْــنَافِ الْــمُغَنِّينَ جَمَّــةٌ　　ومــا قَــصَبَات الــسَّبْق إلا لِــمَعْبَدِ

وكقول امرئ القيس:

وُقُوفًــا بهَــا صَــحْبِي عــليَّ مَطِــيَّهُمْ　　يقولُــون: لا تَهْلَــكْ أسًــى وتجَمَّــلِ

وقول طرفة:

وُقُوفًــا بهَــا صَــحْبِي عــليَّ مَطِــيَّهُمْ　　يقولــون: لا تَهْلَــكْ أسًــى وتجَلَّــدِ

وكقول العباس بن عبد المطلب ﷺ:

ومــا النــاسُ بالنــاسِ الــذينَ عَهِــدْتهُمْ　　ولا الــدَّارُ بالــدَّارِ التــي كُنْــتَ تَعْلَــمُ

وقول الفرزدق:

ومــا النــاسُ بالنــاسِ الــذينَ عَهِــدْتهُمْ　　ولا الــدَّارُ بالــدَّارِ التــي كُنْــتَ تَعْــرِفُ

وكقول حسان بن ثابت ﷺ في مدح آل جفنة:

بِــيضُ الوُجُــوهِ كريمــةٌ أحْــسَابُهُمْ　　شُــمُّ الأُنُــوفِ مِــنَ الطِّــرازِ الأَوَّلِ

وقول بعضهم في الهجاء:

سُــودُ الوُجُــوهِ لَئِيمَــةٌ أحْــسَابُهُمْ　　فُطْــسُ الأُنُــوفِ مِــنَ الطِّــرازِ الآخِــرِ

---

(١) السنة الشهباء: المجدبة. والقطر: المطر.

٢- الإغارة أو المسخ: وهو أخذ المعنى واللفظ معا مع تغيير النظم أو أخذ المعنى وبعض اللفظ... فإن كان الثاني "المأخوذ" أبلغ من الأول "المأخوذ منه" لاختصاصه بحسن النظم وقوة السبك أو الاختصار والإيضاح أو زيادة معنى فهو حسن مقبول...

من ذلك قول بشار:

مَنْ راقَبَ الناسَ لمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ ... وفَازَ بالطَّيِّبَاتِ الْفَاتِكُ اللَّهِجُ

وقول سلم الخاسر:

مَنْ راقبَ النَاسَ مَاتَ غمًّا ... وفَازَ باللَّذَّةِ الْجَسُورُ

فالمعنى في البيتين واحد، وبيت سلم أجود سبكًا وأخصر لفظًا وقد شهد بشار لتلميذه "سلم" بهذا فقال: "ذهب والله بيتي فهو -أي بيت سلم- أخف منه وأعذب...".

وإن كان الثاني "المأخوذ" دون الأول "المأخوذ منه" في البلاغة فهو مذموم مردود، كقول أبي تمام:

هَيْهَاتَ لا يَأْتِي الزَّمَانُ بِمِثْلِهِ ... إنَّ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ لَبَخِيلُ

وقول أبي الطيب:

أَعْدَى الزمانَ سَخَاؤُهُ فَسَخَا بِهِ ... وَلَقَدْ يَكُونُ به الزَّمَانُ بخيلاَ

فمصراع بيت أبي تمام أحسن سبكا من مصراع بيت أبي الطيب، لأنه أراد أن يقول: كان الزمان به بخيلا، فعدل عن الماضي إلى المضارع للوزن...

وإن كان الثاني مثل الأول فالخطب فيه أهون، وصاحب الثاني أبعد عن المذمة، والفضل لصاحب الأول، من ذلك قول بشار:

يَا قومُ أُذْني لِبَعْضِ الحَيِّ عَاشِقَةٌ ... والأُذْنُ تَعْشَقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَانًا

وقول الآخر:

وإنِّي امْرؤٌ أَحْبَبْتُكُمْ لمكارِمِ ... سَمِعْتُ بها والأُذْنُ كالْعَيْنِ تَعْشَقُ

وكقول أبي تمام:

لــو حَــارَ مُرْتَــادُ المَنِيَّــةِ لمْ يَجِــدْ إلاَّ الْفِــرَاقَ عــلى النُّفُــوسِ دلــيلاً

وقول الطيب:

لــولاَ مُفَارَقَــةُ الأَحْبَــابِ مَــا وَجَــدَتْ لهَــا المنايَــا إلى أَرْوَاحِنَــا سُــبُلا

٣-**الإلمام أو السلخ**: وهو أخذ المعنى وحده دون اللفظ، وهذا أدق أنواع السرقات مذهبًا وأحسنها صورة، ويأتي على ثلاثة ألوان...

أولـها: أن يكون الثاني أبلغ من الأول لحسن نظمه وجودة سبكه...

كمـا في قول البحتري:

تَــصُدُّ حَيَــاءَ أنْ تَــرَاكَ بِأَوْجُــهٍ أَتَـى الـذَّنْبَ عاصِيهَا فلِـيمَ مُطِيعُهَـا[1]

وقول أبي الطيب:

وجــرمٍ جَــرَّهُ سُــفَهَاءُ قَــوْمٍ وَحَــلَّ بِغَــيْرِ جَارِمِــهِ الْعَــذَابُ

فبيت المتنبي أجود سبكًا وأحسن وصفًا، وكأنه قد اقتبسه من قوله تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وكقول القائل:

ولــستُ بنَظَّــارٍ إلى جَانِــبِ الْغِنَــى إذا كانــتِ الْعَلْيَــاءُ في جَانِــبِ الْفَقْــرِ

وقول أبي تمام بعده:

يَــصُدُّ عــن الــدُّنْيَا إذا عَــنَّ سُــؤْدَدٌ ولَــوْ بَــرَزَتْ في زيٍّ عَــذْرَاءَ نَاهِــدِ

فبيت أبي تمام أخصر وأبلغ، لأن الصد عن الدنيا أبلغ من نفي النظر إليها، ولأن قوله: "ولو برزت في زي عذراء ناهد" زيادة حسنة وتخييل بديع.

وكقول أبي تمام:

جــذلانُ مــن ظَفَــرٍ حَــرَّانُ أنْ رَجَعَــتْ مخْــضُوبَةً مِــنْكُمْ أظفــارُهُ بِــدَمِ

---

(١) تصد: بمعنى تصرف وفاعله ضمير مستتر يعود على تغلب، والخطاب في: تراك للخليفة المتوكل.

أخذه البحتري فأحسن سبكه فقال:

إذا احْتَرَبَتْ يومًا ففاضَتْ دِمَاؤُهَا   تَذَكَّرَتِ الْقُرْبَى ففاضَتْ دُمُوعُهَا

وكقول أبي تمام:

هُوَ الصُّنْعُ إنْ يَعْجَلْ فَخَيْرٌ وإنْ يَرِثْ   فَلَلرَّيْثُ في بعض المواضِعِ أَنْفَعُ(١)

وقول المتنبي:

ومن الخيرِ بُطْءُ سَيْبِكَ عَنِّي   أَسْرَعُ السُّحْبِ في الْمَسِيرِ الْجَهَامِ(٢)

فبيت أبي الطيب أبلغ لاشتماله على زيادة بيان؛ إذ علله بكون السحاب الجهام أسرع مسيرًا، وأن أبطأ السحب أثقلها، فكأنه دعوى بدليلها بخلاف بيت أبي تمام فقد خلا من ذلك.

ثانيها: أن يكون الثاني دون الأول في البلاغة وجودة السبك.

كقول بعض الأعراب:

وريحُهَا أطيبُ من طِيبِهَا   والطيبُ فيهِ المسكُ والعنبرُ

وقول بشار:

وإذا أَدْنَيْتَ منهَا بَصَلاً   غَلَبَ المسْكُ على ريحِ الْبَصَلْ

فبيت الأعرابي أبلغ وأجود: لأن بشارًا جعل الغلبة للمسك لا لرائحتها، كما أن إدناء البصل منها مما يقبح فعله، ولا يحسن ذكره...

وكقول الخنساء:

ومَا بَلَغَ الْمُهْدُونَ للنَّاسِ مِدْحَةً   وإنْ أطنبُوا إلاَّ ومَا فِيكَ أَفْضَلُ

---

(١) الصنع: الاحسان، ويريث: يبطئ، والريث: الإبطاء... يقال: راث يريث ريثا، أي: أبطأ، ويقال: عجل يعجل عجلا، أي: أسرع، فالريث ضد العجل.

(٢) الجهام: بفتح الجيم: السحاب الذي لا ماء فيه.

فهو أجود نظما من قول أشجع:

وَمَا تَرَكَ الْمُدَّاحُ فيكَ مَقَالَةً ... ولا قالَ - إلا دونَ ما فيكَ - قائلُ

لما في مصراعه الثاني من التعقيد اللفظي...

ثالثها: أن يكون الثاني مثل الأول في البلاغة وجودة السبك وعندئذ يكون الفضل لصاحب الأول...

كقول الأعرابي:

ولمْ يكُ أكثرُ الفِتْيَانِ مالاً ... ولكنْ كانَ أرْحَبَهُمْ ذِرَاعًا

وقول أشجع:

وَلَيْسَ بِأَوْسَعِهِمْ في الْغِنَى ... وَلَكِنَّ مَعْرُوفَهُ أوسَعُ

فالبيتان متساويان في البلاغة وجودة النظم... وقيل بيت الأعرابي أجود لدلالته على السخاء بطريق الكناية "أرحبهم ذراعا"، والكناية أبلغ من الحقيقة...

وكقول بكر بن النطاح:

كأنَّكَ عندَ الْكَرِّ في حَوْمَةِ الْوَغَى ... تَفِرُّ من الصَّفِّ الَّذي من ورَائِكَا

وقول أبي الطيب المتنبي:

فكأنَّهُ والطَّعْنُ من قُدَّامِهِ ... مُتَخَوِّفٌ من خَلْفِهِ أنْ يُطْعَنَا

فالبيتان سواء في المعنى والنظم...

وكقول العتبي في رثاء ابن له:

والصَّبْرُ يُحْمَدُ في المواطِنِ كُلِّهَا ... إلاَّ عَلَيْكَ فإنَّهُ مَذْمُومُ

وقول أبي تمام بعده:

وقدْ كانَ يُدْعَى لاَبِسُ الصَّبْرِ حازِمًا ... فَأَصْبَحَ يُدْعَى حَازِمًا حِينَ يَجْزَعُ

فالبيتان سواء، وقيل بيت أبي تمام أبلغ، لأن في قوله: "لابس الصبر" استعارة بالكناية والاستعارة أبلغ من الحقيقة.

السرقة غير الظاهرة

أما السرقة غير الظاهرة فهي مقبولة بجميع أنواعها لما فيها من حسن التصرف وخفاء الأخذ، وكلما كان الأخذ أشد خفاء كانت أولى قبولاً، لأنها عندئذ تخرج من سبيل الأخذ والاتباع إلى حيز الاختراع والابتداع... وهي عدة أنواع منها:

١-أن يتشابه معنى الأول ومعنى الثاني، دون نقل للمعنى إلى محل آخر....

كقول الطرماح:

لقـــدْ زادَني حُبًّـــا لِنَفْـــسِي أَنَّنِـــي بَغِـيضٌ إلى كُـلِّ امْـرِئٍ غَـيْرِ طائِـلِ

وقول أبي الطيب:

وإذَا أَتَتْـــكَ مَـــذَمَّتِي مِـــن نـــاقِصٍ فَهِـــيَ الـــشَّهادةُ لي بـــأنّي كَامِـــلُ

فإن ذم الناقص أبا الطيب كبغض الذي هو غير طائل الطرماح، وشهادة ذم الناقص لأبي الطيب بالكمال، كزيادة حب الطرماح لنفسه بسبب بغض غير الطائل له... ومعرفة أن هذا المعنى أصله من ذلك المعنى خفي غامض، لا يعرفه إلا من مارس الأشعار، ولا يتبين إلا لمن أغرق وغاص في استخراج المعاني...

ومن ذلك قول أبي العلاء المعري في مرثيته:

ومـــا كُلْفَـــةُ الْبَـــدْرِ الْـــمُنِيرِ قديمـــةٌ ولكنَّهَـــا في وَجْهِـــهِ أَثَـــرُ اللَّطْـــمِ (١)

وقول ابن القيسراني:

وأَهْـوَى الـذي أهـوَى لَـهُ الْبَـدْرُ سـاجِدًا أَلَـسْتَ تَـرَى في وجْهِـهِ أَثَـرَ الـتُّرْبِ (٢)

فالشطر الثاني من هذا البيت يشبه الشطر الثاني من البيت الأول؛ إذ كلاهما

---

(١) الكلفة بضم الكاف وسكون اللام وفتح الفاء: حمرة يخالطها سواد، يريد أن كلفة البدر من لطمه على من يرثيه لشدة حزنه عليه.

(٢) أهوى الأولى بمعنى أحب والثانية بمعنى سقط فبينهما جناس تام، والترب بضم التاء المشددة وسكون الراء: التراب.

يشير إلى كلفة البدر، ولكنها في الأول من أثر اللطم، وفي الثاني من أثر السجود...

وأوضح من ذلك قول جرير:

إذا مَا كنتَ ملتمسًا نكاحًا فلا تَعْدِلْ بجَمْعِ بَنِي ضِرارِ

فلاَ يَمْنَعْكَ من أرَبٍ لِحَاهُمْ سَوَاءٌ ذُوَ الْعِمَامَةِ والخْمَارِ

وقول أبي الطيب:

ومَنْ في كفِّهِ منهمُ قنَاةٌ كمَنْ في كفِّهِ منهمْ خِضَابُ

فبيت المتنبي يشبه بيت جرير الثاني، ولكن الأخذ هنا واضح وليس خفيًا، فالأولى أن يكون من السرقة الظاهرة.

٢-النقل: وهو أن ينقل معنى الأول إلى غير محله.

كما في قول البحتري:

سُلِبُوا وأشرقَتِ الدِّمَاءُ عَلَيْهِمُ مُحْمَرَّةً فكأنَّهُمْ لمْ يُسْلَبوا

أخذه المتنبي ونقله إلى السيف فقال:

يَبِسَ النَّجِيعُ عليهِ وهو مجُرَّدٌ عن غِمْدِهِ فكأنَّمَا هو مُغْمَدُ(١)

وكقول أبي تمام:

رَعَتْهُ الْفَيَافِي بَعْدَمَا كانَ حِقْبَةً رَعَاها وماءُ الرَّوْضِ يَنْهَلُ سِاكِبُهُ

أخذه البحتري ونقله من الجمل إلى شيخين كبيرين قد هرما فقال:

ركبَا القنَا من بعدِ مَا حملاَ القَنا في عَسْكَرٍ مُتَحَامِلٍ في عَسْكَرِ

٣-أن يكون معنى الثاني أشمل من معنى الأول.

كقول جريري:

إذا غضبَتْ عليكَ بنوُ تميمِ وَجَدْتَ النَّاس كُلَّهُمُ غِضَابَا

---

(١) النجيع: الدم المائل إلى سواد.

وقول أبي نواس:

ليس على الله بمستنكرٍ … أن يجمع العالمَ في واحد

فبيت أبي نواس أشمل، لأن العالم يشمل الإنس وغيرهم كالملائكة والجن وغيرهما...

٤-القلب: وهو أن يكون معنى الثاني نقيض معنى الأول، سمي بالقلب لأن الشاعر يأخذ المعنى ويقلبه إلى نقيضه...

كما في قول أبي الشيص:

أجدُ الملامةَ في هواكِ لذيذةً … حبًا لذكركِ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ

آخذ أبو الطيب هذا المعنى وعكسه فقال:

أأُحِبُّهُ وَأُحِبُّ فيه مَلاَمَةً … إنَّ الملامةَ فيه من أعدائِهِ

فأبو الشيص جعل الملامة محبوبة لأنها تذكره بالحبيب، والمتنبي أنكرها وكرهها، لأنه لا يستطيع أن يحبه ويحب أعداءه؛ إذ الملامة لا تكون إلا من أعدائه...

وكقول أبي تمام:

كريمٌ متى أَمْدَحُهُ أَمْدَحُهُ والورَى … معي وإذا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وحدِي

أخذه ابن طاهر وقلبه فقال:

يشترِكُ العالَمُ في ذمِّهِ … لكنَّني أَمْدَحُهُ وَحْدِي

٥-أن يؤخذ بعض المعنى ويضاف إليه زيادة تحسنه وتجمله، كقول الأفوه الأودي:

وترَى الطَّيْرَ على آثارِنَا … رَأْيَ عَيْنٍ ثِقَةً أنْ سَتُمَار [1]

---

(١) ستمار: بمعنى ستطعم، يعني أنها تتبعهم عند خروجهم للحرب واثقة بذلك.

وقول أبي تمام:

وقد ظُلِّلَتْ عِقْبَانُ أَعْلامِهِ ضُحًى بِعِقْبَانِ طَيْرٍ في الدِّمَاءِ نَواهِلِ
أقامَتْ مع الرَّاياتِ حتَّى كأنَّهَا مِنَ الجَيْشِ إلا أنهَّا لمْ تُقَاتِلِ (١)

فأبو تمام قد جعل الطيور "في الدماء نواهل" وتلك زيادة حسنت المعنى وقررته، فطيور الأفوه واثقة بأنها ستطعم، أما طيور أبي تمام فإنها تنهل من دماء الأعداء... ثم جعلها قائمة مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لا تقاتل، لأن مهمتها أن تنهل من الدماء، وتلك زيادة أخرى ازداد بها المعنى حسنًا وبهاء.

هذا ويذكر البلاغيون والنقاد تسميات وألقابًا أخرى للسرقات الشعرية غير ما ذكرنا، كما يضيفون أنواعًا جديدة إذا تأملتها لن تجدها ذات بال... من ذلك الاصطراف والاجتلاب والاهتدام والمرافدة والاستلحاق... فالاصطراف: أن يعجب الشاعر ببيت من الشعر فيصرفه إلى نفسه، فإن صرفه إليه على جملة المثل فهو اجتلاب واستلحاق، وإن ادعاه جملة فهو انتحال، وإن كان الشعر لشاعر أخذ منه غلبة فتلك إغارة وغصب، فإن أخذه هبة فتلك مرافدة أو استرفاد، فإن كانت السرقة فيما دون البيت فهي اهتدام أو نسخ، فإن تساوى المعنيان دون اللفظ، وخفي الأخذ فذلك النظر والملاحظة وكذا إن تضادا ودل أحدهما على الآخر فإن حول المعنى من نسيب إلى مدح فذاك اختلاس، فإن صح أن الشاعر لم يسمع بقول الآخر فتلك موارده (٢).

رأينا في السرقات الشعرية

وأرى أن الأمر لا يعدو أن يكون تأثيرًا، وتأثرًا بين الشعراء، وتوارد خواطر، فمن الطبيعي أن يتأثر اللاحق بالسابق، وأن يؤثر السابق في اللاحق، يقول عنترة:

---

(١) عقبان الأعلام: جمع عقاب بكسر العين وهو الراية الضخمة من إضافة الخاص للعام، وعقبان الطير: جمع عقاب بضم العين وهو طائر جارح معروف وبينهما جناس تام. ونواهل: جمع ناهلة اسم فاعل من نهل بمعنى روى.

(٢) انظر العمدة ٢/ ٢١٥، ٢١٦.

مـــا أرانَـــا نَقُـــولُ إلا مُعَـــارًا أو مُعَـــادًا مـــن قولِنَـــا مَكْـــرُورًا

ويقول أيضًا:

هـــل غـــادَرَ الـــشُّعَراءُ مـــن مُـــتَرَدَّم أمْ هـــلْ عَرَفْـــتَ الـــدَّارَ بَعْـــدَ تَـــوَهُّم

ولذا لا ينبغي أن يتهم أحد بالسرقة دون أن تكون هنالك القرائن والدلائل التي تدل على ذلك... يقول الخطيب: "هذا كله[١] إذا علم أن الثاني أخذ من الأول، وهذا لا يعلم إلا أن يعلم أنه كان يحفظ قول الأول حين نظم قوله، أو بأن يخبر هو عن نفسه أنه أخذه منه، لجواز أن يكون الاتفاق من قبيل توارد الخواطر، أي مجيئه على سبيل الاتفاق من غير قصد إلى الأخذ أو السرقة، كما يحكى عن ابن ميادة أنه أنشد لنفسه:

مُفِيـــدٌ ومِـــتْلافٌ إذَا مـــا أَتَيْتَـــهُ تَهَلَّـــلَ واهتـــزَّ اهْتِـــزَازَ الْـــمُهَنَّدِ

فقيل له: أين يذهب بك؟ هذا للحطيئة، فقال: الآن علمت أني شاعر؛ إذ وافقته على قوله ولم أسمعه، ولهذا لا ينبغي لأحد بت الحكم على شاعر بالسرقة ما لم يعلم الحال، وإلا فالذي ينبغي أن يقال: قال فلان كذا وقد سبقه إليه فلان فقال كذا، فيغنم به فضيلة الصدق، ويسلم من دعوى العلم بالغيب ونسبة النقص إلى الغير..."[٢] والله أعلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.

☆☆☆

---

(١) يشير إلى أنواع السرقات المذكورة.

(٢) الإيضاح ٤/ ١٢٩.

أهم مراجع الكتاب

١ - الإتقان في علوم القرآن للسيوطي طبعة الحلبي سنة ١٣٩٨هـ.

٢- أثر القرآن في تطور البلاغة العربية للأستاذ/ كامل الخولي. ط: الأنوار سنة ١٣٨١هـ.

٣- أسرار البلاغة لعبد القاهر. ط: صبيح سنة ١٣٩٧هـ. ت. محمد عبد العزيز النجار.

٤- إعجاز القرآن للباقلاني. ط: دار المعارف سنة ١٩٧٧م. ت: السيد صقر.

٥- إعجاز القرآن بين النظرية والتطبيق د/ حفني شرف. ط: الأهرام سنة ١٩٧٠.

٦- الأغاني للأصفهاني. ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤م.

٧- الأقصى القريب للتنوخي. مطبعة دار السعادة سنة ١٣٣٧هـ.

٨- الإيضاح للقزويني وبهامشه البغية. ط: صبيح سنة ١٣٩٢هـ.

٩- بديع القرآن لابن أبي الأصبع. ط: الرسالة سنة ١٣٧٧هـ. ت: حفني شرف.

١٠- البديع لابن المعتز نشر إناطيوس كراتشوفسكي لندن سنة ١٩٣٥م.

١١- بغية الوعاة للسيوطي. ط: المطبعة الميمنية بمصر سنة ١٣٠٦هـ.

١٢- البلاغة تطور وتاريخ لشوقي ضيف. ط: دار المعارف سنة ١٩٧٧.

١٣- البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف للأستاذ/ محمد أبو موسى. ط: دار الفكر العربي.

١٤- البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها لأمين الخولي. ط: مجلة كلية الآداب سنة ١٣٤٩هـ.

١٥- البيان والتبيين للجاحظ. ط: الخاني. ت: عبد السلام هارون.

١٦- تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة. ط: الحلبي سنة ١٣٧٣هـ.

١٧- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة. ط: الحلبي سنة ١٣٧٣هـ.

١٨- تحرير التحبير لابن أبي الإصبع. ط: المجلس الأعلى سنة ١٣٨٣هـ. ت: حفني شرف.

١٩- تلخيص المفتاح للقزويني.

٢٠- تنزيه القرآن عن المطاعن لعبد الجبار. ط: دار النهضة ببيروت.

٢١- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. ط: دار المعارف سنة ١٩٧٦م.

٢٢- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي. ط: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. ت: د/ محمد الهاشمي.

٢٣- الحيوان للجاحظ. ط: الساسي سنة ١٩٥٠م.

٢٤- خزانة الأدب للحموي. ط: المطبعة الخيرية سنة ١٣٠٤هـ.

٢٥- دفاع عن البلاغة لأحمد حسن الزيات. ط: عالم الكتب سنة ١٩٦٧م.

٢٦- دلائل الإعجاز لعبد القاهر. ط: الفجالة. ت: د/ عبد المنعم خفاجي.

٢٧- دلالات التراكيب للأستاذ/ محمد أبو موسى. ط: دار المعلم سنة ١٣٩٩هـ.

٢٨- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي. ط: الخانجي. ت: علي فودة.

٢٩- شروح التلخيص.

٣٠- الشعر والشعراء لابن قتيبة. ط: دار المعارف سنة ١٩٦٧م. ت: الأستاذ أحمد شاكر.

٣١- الصبغ البديعي للأستاذ/ أحمد موسى. ط: دار الكاتب العربي سنة ١٣٨٨هـ.

٣٢- الصاحبي لأحمد بن فارس. ط: المؤيد سنة ١٣١٨هـ.

٣٣- الصناعتين لأبي هلال العسكري. ط: الحلبي سنة ١٩٧١م.

٣٤- طبقات فحول الشعراء للجمحي. ط: المدني. ت: محمود شاكر.

٣٥- الطراز للعلوي. ط: المقتطف سنة ١٣٣٢هـ.

٣٦- طراز الحلة وشفاء الغلة لأبي جعفر الغرناطي وهو شرح لبديعية ابن جابر الأندلسي مخطوط بالأزهر رقم ٦٣ خ بلاغة.

٣٧- العمدة لابن رشيق القيرواني. ط: دار الجيل. ت: محمد محيي الدين.

٣٨- عيار الشعر لابن طباطبا: ط: شركة فن الطباعة سنة ١٩٥٦م.

٣٩- الفهرست لابن النديم ط: الاستقامة.

٤٠- قواعد الشعر لثعلب. ط: دار المعارف سنة ١٩٦٦م. ت: د/ رمضان عبد التواب.

٤١- الكامل للمبرد. ط: نهضة مصر سنة ١٩٥٦م. ت: محمد أبو الفضل.

٤٢- الكتاب لسيبويه. ط: الهيئة المصرية سنة ١٩٧٧م. ت: عبد السلام هارون.

٤٣- الكشاف للزمخشري. ط: الحلبي سنة ١٣٨٩هـ.

٤٤- اللزوميات لأبي العلاء المعري. ط: بيروت سنة ١٣٨١هـ.

٤٥- لسان العرب لابن منظور. ط: دار المعارف.

٤٦- المثل السائر لابن الأثير. ط: الحلبي. ت: محمد محيي الدين.

٤٧- مجاز القرآن لأبي عبيدة. ط: الخانجي. ت: محمد فؤاد.

٤٨- معجم الأدباء لياقوت. ط: فريد رفاعي سنة ١٩٣٦م.

٤٩- معاني القرآن للفراء. ط: الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٨٠م.

٥٠- المطول لسعد الدين التفتازاني.

٥١- المغني للقاضي عبد الجبار جـ ١٦ في إعجاز القرآن. ط: وزارة الثقافة والإرشاد.

٥٢- مفتاح العلوم للسكاكي. ط: الحلبي سنة ١٣٥٦هـ.

٥٣- المقتضب للمبرد. ط. المجلس الأعلى سنة ١٣٨٦هـ.

٥٤- مناهج تجديد لأمين الخولي. ط: دار المعرفة سنة ١٩٦١م.

٥٥- الموازنة للآمدي. ط: دار المعارف سنة ١٣٨٩هـ. ت: السيد صقر.

٥٦- نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأنباري ط: جمعية إحياء تراث العلماء.

٥٧- نقد الشعر لقدامة. ط: مطبعة أنصار السنة المحمدية سنة ١٩٤٩م. ت: كمال مصطفى.

٥٨- نقد النثر (البرهان في وجوه البيان) لابن وهب. ط: مطبعة مصر سنة ١٩٣٩م. ت. طه حسين، وعبد الحميد العبادي.

٥٩- النقد المنهجي عند العرب د/ محمد مندور. ط: نهضة مصر سنة ١٩٧٢م.

٦٠- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي مطبعة الآداب سنة ١٣١٧هـ.

٦١- الوساطة بين المتنبي وخصومه لعلي بن عبد العزيز الجرجاني. ط: الحلبي. ت: محمد أبو الفضل إبراهيم.

٦٢- وفيات الأعيان لابن خلكان. ط: نشر فريد رفاعي.

٦٣- يتيمة الدهر للثعالبي. ط: الصاوي سنة ١٩٣٤.

☆☆☆

فهرس الموضوعات

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة